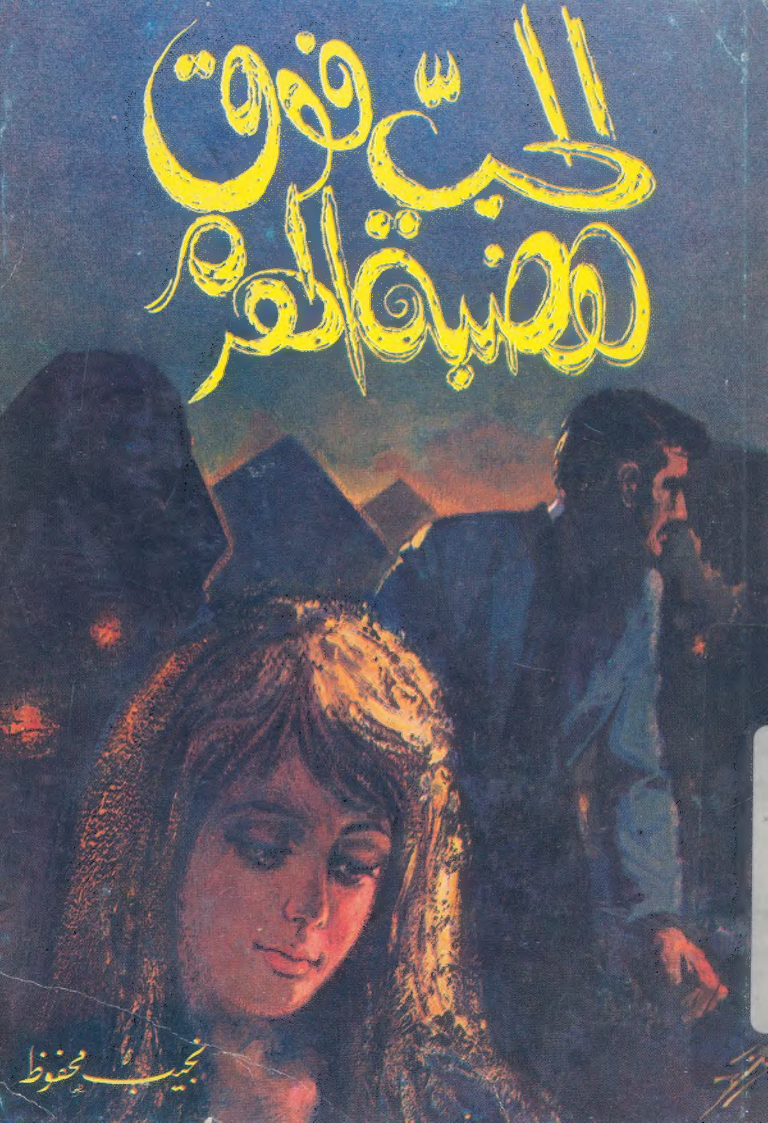

الحب فوق هضبة الهرم
نجيب محفوظ

مطبوعات مكتبة مصر

# الحب فوق هضبة الهرم

تأليف

نجيب محفوظ

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي الفجالة

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقي



# نور القمر

— ١ —

تجربة جنونية ، انتشر نبضها فى زمان الوداع ، وانغرست جذورها فى طمى النيل ، تحت ظلال النخيل واللبلاب والجازورينا ، مهومة فى الحى الرنان ذى الايحاءات اللانهائية ، روض الفرج . اهتدائى اليه مصير حتمى ، فهو مصيف من يبهظه الرحيل الى الاسكندرية أو رأس البر . وهناك وجدت مقلدا لكشكش بيه ، وآخر لبربرى مصر الوحيد ، ثم قادتنى قدماى — من باب العلم بالشىء — الى كازينو « الواق واق » فقضيت سهرة سماع لصوت « نور القمر » .

لعله أصغر المسارح ، يقع فى نهاية الخط ، مرسوم على هيئة سفينة ، تطوق جانبية أشجار الياسمين والحناء واللبلاب ، ومقاصير اهل الخلوة ، وتشغل وسطه صفوف الكراسى الخيزران . يقدم أول ما يقدم تواشيح عريقة ، فرقصة شرقية ، ثم يرفع الستار عن « نور القمر » وتختها المكون من القانون والعود والكمان والرق وأربعة من السنيدة العجائز .

رفعت الى المطربة عينين فاترتين ، شىء أرعشنى كجرس تنبيه ، انحصر وعيى كله فى النظر ، لم أسمع من الغناء الا أصداء متلاشية ، انسحب منى الماضى وذاب ، واتجهت بدفعة من المجهول نحو قبلة جديدة ، منذ تلك اللحظة أمسى « الواق الواق » مقصدى كل ليلة طوال فصل الصيف ، لم أهجره ولكنه هجرنى بانتهاء المصيف واغلاق المسارح والكازينوهات ، وتحول روض الفرج الى مرفأ لسفن الغلال .

# — ٢ —

من هى « نور القمر » ؟ ..

امرأة ناضجة . تتألق بأبهة الأنوثة الكاملة . لعلها فى الثلاثين . تختلف الآراء فى تقدير سنها بحسب الأهواء . لا تجد عند احد معلومة شافية عنها . قوى مجهولة تعزلها عن الناس فى موسم العمل ثم سرعان ما تختفى بقية العام . جميع السكارى يتكاشفون بعذوبة جمالها ولكننى — فيما بدا لى — خصصت بالهيام بها لحد الجنون . ماذا جرى ؟ ، أنهم منهمكون فى الأكل والشرب والضحك والطرب ، واعجابهم بها عابر ، على حين سلبت منى — بشراهة — الروح والجسد . ويقول من يدعون الخبرة :

— صوتها رقيق محبوب ..

فأقول :

— ولكنها لا تغنى الا الأغانى القديمة ، وفى اعتقادى أن أى ملحن معاصر يسره أن يلحن لها ..

— ولم تدفن نفسها فى روض الفرج ؟

— من يدرى ؟

من يدرى حقا ؟ . انها سر مغلق . علمى بها — كالآخرين — محدود جدا أما هيامى فلا حدود له ، على أى حال لم أعرف فى حياتى الانطواء أو السلبية .

ولكن من انا ؟

من ذوى المعاشات ، فى الخمسين من العمر ، اعزب ، ليس بينى وبين المرآة التى تعكس صورتى اى ضيق او اعتراض . أحب الطعام الجيد ، اكول ، احسن طهى الوان من الطعام كأمهر الطهاة ، ضحوك ، صافى السريرة ، غير أن عزوبتى ركزت اهتمامى فى ذاتى فعلقت بى انانية طفولية . كنت ضابطا بالجيش ، ادركنى المعاش وانا صاغ فى الخامسة والاربعين من عمرى . خدمت فى السودان والصعيد والسلوم . وكنت طوال عمرى جامح الأهواء ، مغرما بالنساء ، سيىء السمعة ، فى صباى وشبابى خيبت امل والدى ، رغم انى كنت وحيدهما ، بذلا جهدا طموحا ليجعلا منى طبيبا او وكيل نيابة ولكننى لم اظفر بالابتدائية الا بطلوع الروح وقد جاوزت الخامسة عشرة . لذت بالمدرسة الحربية كآخر معقل للأمل كى تجعل منى شيئا ما . وكنت بدينا مفرطا فى البدانة . رمقنى ناظر المدرسة الانجليزى بدهشة ، كأنه يتساءل عما جاء بى ، ولكنى اظهرت من البراعة فى السباحة والعدو ما سره وفتح قلبه لى فقبلنى او اصر على قبــولى وهو الأصح . كان الفشل هو ما يدفعنا الى المدرســة الحربيــة ، لا الوطنية ولا الروح العسكرية . غير ان الروح تتولد بطريقة ما ، اما الوطنية فقد تكفلت بها ثورة ١٩١٩ . وقد اشتركت فى مظاهرة المدرسة الحربية المشهورة واصابنى جندى انجليزى بالسونكى فى وركى ، ولولا العفو العام لفصلت من المدرسة وخاب آخر رجاء

فى وظيفة محترمة نوعا ما . وتخرجت مـــلازما ثانيا فى نهاية اربعة أعوام دراسية ، منها عام عقوبة لاشتراكى فى المظاهرة .
وفى الترام سمعت أحدهم يهمس :
ــ كل هذا البدن وملازم ثان فقط ؟ ! . .
فهمس آخر :
ــ انه فى وزن لواء !
وكان اللواءات فى تلك الأيام ذوى كروش وبدانة ، تحسبهم قصابين لا عسكريين . ومات والداى ، وامتدت خدمتى خمسة وعشرين عاما ، ثم أدركنى المعاش فوجدت نفسى ضخما وحيدا ضائعا يعيش فى زنزانة انفرادية فى صورة شقة . رسمت خطة لانقاص وزنى فصرت مقبولا ، وفترت بهجة الطعام والنساء ، وكان الشعر يستهوينى فقررت أن أتخذ من حافظ ابراهيم مثالا على نحو ما ، وشغلت وقت وحدتى بالقراءة فى شتى المعارف الدنيوية والدينية ، وبت من رواد قهوة المالية ــ قهوة أصحاب المعاشات ــ ألعب النرد والدومينو وأتكلم فى السياسة ، وأعلق على الأحداث ، أفلسفها مستعينا بثقافتى المتنامية ، ثم أنضم لكثيرين لأداء صلاة الجمعة . ورحم كثيرون وحدتى فاقترحوا على أن أتزوج .
ــ الخمسون مقبولة ، صحتك جيدة ، لم تشب شعرة واحدة فى رأسك بعد ، والجنس يعيش فى مثل هذه الظروف حتى آخر العمر . .
فكرت فى ذلك باهتمام فاق تصورى ، ولكن ثبط همتى أن ظروفى لن ترشحنى الا لامرأة يائسة وقد أبيت ذلك . الحق أنى اعتدلت فى شهواتى ، ربما كرد فعل لما سبق ، وقنعت أكثر الوقت بمراقبة الهوانم من موقعى فى القهوة ، ونادرا ما وجدت الدافع القوى لمطاردة احداهن . أصبح لهن فى قلبى أكثر من منافس كالكتاب والمسرح والسينما والأصحاب المدنيين ، حتى اقتادنى مصيرى المحتوم الى الواق الواق .

عرفت الحب لأول مرة فى حياتى . انه كالموت تسمع عنه كل حين خبرا ولكنك لا تعرفه الا اذا حضر . وهو قوة طاغية ، يلتهم فريسته ، يسلبه اى قوة دفاع ، يطمس عقله وادراكه ، يصب الجنون فى جوفه حتى يطفح به . انه العذاب والسرور واللانهائى . تلاشى شخصى القديم تماما وحل محله آخر بلا تراث ولا مبادىء ، ينقض على مصيره بعينين معصوبتين .

وجعلت اتساءل : « كيف الوصول الى نور القمر ؟ » .

انها تغنى وصلتين ثم تختفى حتى مساء اليوم التالى . لا ترى الا فوق المسرح . لم تذهب الى مقصورة قط . الراقصة وجوقتها يفعلن ذلك ، ويسعين اليه ، أما هى فما أن تفرغ من الغناء حتى تتلاشى فى الكون . وانى رجل فى الخمسين ، محدود الدخل ، لا جاه ولا مركز . لا قدرة لى على حيازتها ، ولا أدرى ان كانت تقبل علاقة عابرة ، أما ابتغاء الرضى والحب فما أبعده عن تصور من كان فى مثل سنى وحالى ، وأما الزواج فماذا يعنى لها ان لم يعن الأبهة والرفاهية ؟ !

أشار على العقل بأن اقتلع فكرتها من نفسى المعذبة ، ولكن ليس للعقل صوت يسمع فى ضجة أهازيج الهوى ، وصخب أمواجه العاتية ، وازيز أعاصيره الهوج .

واعجب من ذلك كله أن يتحول خبير الأطعمة المتقنة ، زير النساء ، الى مجنون ملهم ، يهيم فى دنيا الحب المترعة بالأسرار ، يخاطب باتنية المجهول ، ويجد فى البحث عن لا شىء فى كل شىء ،

فى ضياء الشمس ، بهاء القمر ، وهج النجوم ، ثراء السحب ، اريج الأزهار ، سلاسة الماء ، فقد غطت « نور القمر » على حياتى وحياة الكون من حولى ..

— ٥ —

وفى بوتقة الهجران يبعث القلب ويتطهر ولو كان فى الأصل غليظا مشبعا بالاثم . وقد خبرت الضحك والسخرية والشهوات فآن لى ان أعرف الشجى ، وأترنم بألحان الأسى .

مضيت انسحب برفق من جو أصحاب المعاش ، من الثرثرة والمقامرة والشراب والخوف من الموت . ملأت « نور القمر » وجدانى واستأثرت بوعيى . ابيت الاستسلام للقهر والهزيمة . جعلت اشجع نفسى واضرب لها الأمثال من ماضى . استهتارى الفائق ، ومغامراتى الجريئة ، واقتحاماتى المذهلة . عبدت دائما ما اهوى واريد واستهنت دائما بالتقاليد والسمعة والقيل والقال . وموقفى يوم المظاهرة المشهورة هل ينسى ؟ . لقد أضربنا وذهبنا الى مدرسة الشرطة ، هتفنا بالاضراب ، ولما وجدنا ترددا أطلقت رصاصة فى الهواء ! . وتحديت بدانتى فكنت أعدو بسرعة الريح كانى برميل بخارى . محال أن انتاعس يا نور القمر ..

وصممت ذات ليلة ، سمعت الوصلة الأولى وكانت :

كادنى الهوى وصبحت عليل

ثم غادرت مجلسى ماضيا الى الباب الخلفى للكازينو اعترضنى البواب فقلت بكبرياء :

— أعرف طريقى !

سرعان ما جاءنى الجرسون حمودة مبتسما متسائلا :

— اى خدمة يا بيه ؟

— حمودة ، أرغب فى مقابلة نور القمر لأهديها اعجابى .

— الجميع يعلنون الاعجاب بالتصفيق .

— ولكنى اريد أن اقدمه بنفسى .

— ممنوع .

فتساءلت بحدة :

— من صاحب هذا الأمر السخيف ؟

— أصحاب الشأن فى الكازينو ، ما أنا الا عبد مأمور ..

— ولكن لماذا ؟

— لا أدرى يا سيدى ، جميع الزبائن يعرفون ذلك ..

فقلت بعجرفة :

— ولكننى سأدخل ..

فقال بتوسل يليق بزبون دائم مثلى :

— أرجوك يا بيه ..

— على مسئوليتى !

— هناك سنجة الترام !

افقت من غضبي . سنجة الترام هو فتوة المحل وحاميه . لا قبل لي به فضلا عن انني في الخمسين من العمر ، تراجعت متسائلا في استنكار :

ـ لهذا الحد ؟

ـ انت بيه محترم ولا يليق بك الشغب !

تنهدت لأروح عن غيظي ، وقلت له :

ـ اذن فعليك أن تبلغها اعجابي ..

فقال بأسف :

ـ ولا هذا !

ـ امر غريب حقا !

ـ ما باليد حيلة ..

ـ لماذا لا تفعل كما تفعل الراقصة وجوقتها ؟

فقال وهو يحني راسه :

ـ الراقصة وجوقتها تحت أمرك !

## ـ ٧ ـ

ان هي الا جولة خاسرة ولكنها ليست كل شيء . الطريق طويل والزمن طويل . ها هو صوتك الحنون ينسرب الى أعماقي معطرا بالفتنة وليس بيني وبينك الا خطوات . لو كان لي أنف كلب لشممت أنفاسك . لو كان لك قلب لركزت بصرك على عابدك . ولو اعيتني السبل المادية في الوصول اليك فثمة قوة الحب ستصنع معجزة فائقة للعقل في الوصول اليك هازئة بأعين الحراس . في تلك الليلة تعمدت التأخير حتى استقللت الترام الأخير ، واخترت مجلسي الى جانب الجرسون حمودة ، دفعت عنـــه ثمن التذكرة

فاستعد الرجل للحديث المتوقع . ولما غاص الترام فى الظلام شاقا طريقه بين الحقول تساءلت :
ـ ما معنى هذا يا حمودة ؟
ـ تسأل عن نور القمر ؟ .. هذا هو الواقع ..
ـ أهى سيدة مصونة حقا ؟
ـ هى كذلك فيما نرى ..
ـ وما السر ؟
ـ لا علم لى به .
ـ يوجد سر ولا شك .
ـ علمى علمك .
ـ انك تعرف السر ولكنك تمكر بى .
ـ صدقنى ، ليس عندى أكثر مما قلت .
ـ هل تؤمن بالخرافات ؟
ـ انها حقيقة لا خرافة .
ـ هل تصدقها ؟
ـ فلنسلم بأنها شاذة ، ما الفائدة ؟
ـ عندك تفسير لها ؟
ـ لا أشغل نفسى بالتفكير فى ذلك .
ـ وراءك أشياء ولا شك ؟
ـ أبدا ، صدقنى ..
ـ هل تذهب نور القمر عقب العمل وحدها ؟
ـ كما ترى غالبا تذهب قبل ذلك حتى لا يفوتنى الترام الأخير .
ـ بأى وسيلة تذهب هى ؟
ـ ربما تاكسى ، حنطور المدير موسى القبلى ، مورد صاحب الكازينو حفنى داود ، من يدرى ؟
ـ الآن فهمت ..

ــ ماذا فهمت يا سيدى ؟
ــ انها عشيقة أحد الرجلين !
ــ الله وحده يعلم .
ــ الا يعرف أحد شيئا عن سيرتها الخاصة ؟ !
ــ نحن نتجنب الفضول حفظا على رزقنا ..
ــ أين تسكن المرأة ؟
ــ لا ادرى ..
فتنهدت وقلت بنبرة اعتراف :
ــ حمودة ، انت تدرك ولا شك ما وراء أسئلتى الملحة ؟
ــ أجل يا بيه .
ــ والعمل ؟
ــ ما باليد حيلة .. النساء كثيرات .. وكلهن فى النهاية طعام واحد ..
اهديت اليه سيجارة ، غمزته ببريزة ، ولكنه قال :
ــ انى لا أخدعك ، وليس عندى مقابل !
ــ حمودة !
ــ صدقنى ، لقد وقع فى هواها عمدة صعيدى واسع الثراء ، ولكن ماذا أفاد ؟
فهتفت بغيظ :
ــ ان ملكة مصر ايسر منالا من ذلك ..
ــ هذا هو الواقع ..
وتفكرت مليا ثم سألته :
ــ سنجة الترام رجل قوى ، هل يمكن الاستعانة به ؟
ــ لا ادرى ، جرب ان شئت ..
حقا ان مجرد الاتصال به مهانة ما بعدها مهانة ولكن ما الحيلة ؟ سألته :

ـ هل تساعدنى فى ذلك ؟
ـ انه صاحب غرزة تبدأ عقب التشطيب ..
ازددت امتعاضا وانا أسأل :
ـ أين ؟
ـ قارب شراعى ..
ـ ممكن تمهد لى السبيل باعتبارى من أصحاب المزاج ؟
ـ هذا ممكن ..

## ـ ٨ ـ

لم أكن يوما من أصحاب المزاج . انى من أصحاب الأمزجة الفوارة التى لا تتلاءم مع المخدرات . وقد دخنت مرة البانجو فى السودان وسرعان ما غشينى النوم فتوكد نفورى من المخدرات . وفى مثل الحال التى أنا مقبل عليها بوسعى أن أمثل وأن اتجنب التدخين الحقيقى . ما العمل وجنونى يستفحل ؟ . لقد ضاعت منى نفسى . جعلت أنظر اليها ـ كغريب ـ بعين الرثاء والأسى . وهان على أن أسعى لمصادقة سنجة الترام . وهو ربعة متين البنيان ضخم الرأس والوجه ، فى جبينه ثلاث ندبات وفى أنفه اعوجاج ، واسع الأشداق كأنه من أكلة الأحجـــار . وسرعان ما حسبت تكاليف السهرة فوجدتها ـ مع الاكرام ـ تستهلك خمسين قرشا ، وهو قدر لا يستهان به مع الاســـتمرار الذى يقتضيه توثيق العلاقة .

تسللت الى القارب فصافحنى على ضوء شعلة عربة ترمس وتمتم :
ـ أهلا ..

فشددت على اليد الغليظة وانا اقول :

ــ مساء الخير يا معلم سنجة . .

وانغرست على جانب وسط تكتل من الأوباش . وانساب القارب فوق الماء الرزين واهبا ذاته المتارجحة لظـــلام دامس تشعشعه اضواء النجوم كالهمسات . لعلهم من تجار الغلال والبصل ، يكتون ويقهقهون بفظاظة . ودارت علينا الجوزة لدى امتلاء الشراع بالهواء ، ولاطفتنا نسائم معطرة برائحة النيل . ورغم حذرى ثقل راسى ، وناء قلبى بالحزن . ومن حسن الحظ ان احدا لم يهتم بأحد ا فلم أضطر الى الخروج من صمتى وافكارى . وعند الوراق غادرنا البعض ، وانفض السامر عند الفجر .

## — ٩ —

وثقت المساهرة بينى وبين سنجة الترام . مســـــاء الخــــير يا معلم سنجة ، مساء الخير يا أنور بيه . دعوته للغداء عند الدهان فدعانى للغداء فى المذبح . وجدتنى أندمج فى أوساط البلطجية وتجار المخدرات . أرهقنى الخزى والحزن ، عجبت لتدهورى ، وكيف ساقتنى اليه انتى وأصدق عاطفة شدا بها قلبى . أجل طالما تحديت التقاليد والحرص على السمعة الطيبة ، ولكن عربدة العشاق شيء ومخالطة الأوباش شيء آخر . ولم أعد أختلف الى المقهى الا فى النادر . وخمن الصحاب أن فى الأمر امرأة ولكنهم لم يتصوروا أى امرأة تكون ، ولا أى تدهور دفعت اليه بيد حبها الناعمة ، وطبعا كتمت سرى حتى لا أكون حديث الجاد والساخر . كذلك ندر الوقت الموهوب للقراءة غير أن بعض الشعر الذى سبقت لى معاشرته لمتلأ حياة جديدة وتبدى بحسن

جديد وتفجر عن قوى جديدة فأدركت أن جمال الشعر لا يكمن فى ألفاظه وموسيقاه وصوره ولكنه يكمن قبل كل شيء فى القلب البشرى .

وفى تلك الفترة من حياتى زارتنى عمتى نظيمة ، أرملة فى الستين ، بكريها مهندس مقاول قد الدنيا ، وشقيقه موظف دبلوماسى فى سفارتنا بالحبشة . قالت :

— انقطعت عنى منذ مدة ولكنى لا أنساك ..

فلثمت خدها النحيل ممتنا ، وجعلت تتفحصنى باهتمام آثار قلقى ، ثم تساءلت :

— حتى متى ترضى بهذه الحياة المقفرة ؟

أدركت أنها تعود إلى موضوعها المفضل وهو « الزواج » فقلت :

— اعتدت يا عمتى العزوبة ..

فقالت بحرارة :

— عادة سيئة ، ضد مشيئة الله .

— كل شيء بمشيئة الله يا عمتى ..

احتست الشاى وهى تفكر ثم قالت بنبرات جديدة تماما :

— أنور .. حدثنى حمدى حديثا لا يصدق ..

حمدى مأمور شرطة وزوج ابنتها الوحيدة ، وقد اضطرب قلبى وتساءلت :

— ماذا ؟

— قال انك تصاحب قوما ليسوا من أصلك ولا مستواك !

فزعت . هل تتفشى الأسرار بهذه القوة ؟ . قلت مدافعا :

— كلنا أولاد حواء وآدم ..

— ولكنهما أنجبا قابيل كما أنجبا هابيل !

وقرأت فى وجهى ولا شك تحرجى وضيقى فقالت برقة :

— أردت أن أحذرك فسامحنى ..

تألمت ولكنى لم ابال . عزمت على مزيد من الخطوات المسددة .
ها هو سنجة الترام يتردد على شقتى فى المنيرة رافعا الكلفة .
يتناول الطعام احيانا ، وأحيانا يضطجع نائما ، ومرات أودع عندى
حشيشه بعيدا عن اى مظنة . أصبح البيت بيته ابن القديمة ،
وحمت حوله متحينا الفرص . آنس الى فروى لى قصة حياته منذ
نشأته فى سوق الزلط ، معاركه ، سجنه بلاءه فى ثورة ١٩١٩ ،
حتى اختير عنوة لكازينو الواق الواق .

— موسى القبلى هو الذى اتفق معى ..

— المدير ؟

— نعم .

فقلت بمكر :

— يقال انه قريب لنور القمر .

— كلام فارغ ..

— بذلك يفسرون عزلتها الغريبة ..

— سكارى واغبياء ..

— أصل عزلتها تثير القيل والقال !

— انها حرة تفعل ما تشاء ..

— تعنى أنها هى التى ترفض المؤانسة .. ؟

— علمى علمك ، ما يهمنى أننى مكلف بابعاد من تحدثه نفسه ،
بالاقتراب منها ..

— بلا علم بسبب ذلك ؟

ــ ليكن ما يكون ، هبها امراة مصونة ، او رجلا متنكرا فى صورة امراة ، او عشيقة للمدير او صاحب الكازينو ، ماذا يهم ؟ ، من حسن الحظ اننى لا ارغب فيها . .

وضحكنا طويلا ، ثم سألته :

ــ ماذا كنت تفعل ؟

ــ كنت اقتحم الحارس والمجروس !

فقلت بدهاء :

ــ ظننت ان الاسرار لا تغيب عن رجل مثلك ؟

ــ الاسرار التى تهمنى فقط .

ــ السث صديق المدير وصاحب الكازينو ؟

ــ لك أن تعتبرنى صديق الجميع ، ولك أن تعتبرنى بلا اصدقاء !

وكنت عرفت من طبعه انه لا يطيق سماع ثناء على أحد فقلت :

ــ يبدو أن المدير رجل محترم !

فقال ساخرا :

ــ ما هو الا قواد .

ــ قواد ؟ !

ــ صاحب بيت دعارة !

انبهر رأسى بضوء فوسفورى مباغت . هل يستغل نور القمر بطريقة محنكة ؟ . يا لخيبة الأمل اذا لم تكن المراة الا مومسا ؟ ! . ولكن حتى هذا الفرض لم يطفىء لمعة الوجد فى قلبى ، بل لعله أرثها بفتح باب يسير للوصول . وصبرت حتى دار رأس سنجة ورقص الانسجام فى مخايله فسألته :

ــ ما رأيك فى سهرة فى بيت موسى القبلى ؟

فقال بازدراء :

ــ أعوذ بالله !

ـ من باب العلم بالشيء ؟

ـ ولكنك كهل محترم وأب !

فقلت ضاحكا :

ـ لست الا اعزب !

ـ أعوذ بالله !

ثم مستدركا :

ـ وكيف تعيش بنصف دين ؟

فقلت لنفسي بأسى « حقا ينقصني النصف الآخر » ..

— ١١ —

قلت للجرسون حمودة وأنا اغمزه ببريزة :

ـ دلني على بيت موسى القبلي ..

ابتسم الرجل ابتسامة عريضة ، غمز بعينيه ، قال :

ـ بريزة اخرى ..

فأثنيت في سري على صدق فراستي .

— ١٢ —

البيت في أول شارع مهران السندي المتفرع من شـــارع دوبريه ، شقة أنيقة ، صامتة ، الابواب مغلقة ، كأنها خالية . تدمني حمودة الى موسى القبلي فتلقاني بوجه ودود غير الوجه الذي يدير به الكازينو . وقلت لنفسي من بلطجي الى قواد يا قلبي لا تحزن . أما هو فقال بلا حياء :

ـــ جنيهان من فضلك ..

دفعتهما بلا تردد فقال :

ـــ آخر حجرة فى الدهليز ، هل تريد شرابا ؟ .. زجاجة الأوتار بجنيه واحد ..

اللص ! .. انها فى السوق بثلاثين قرشا . قلت معتذرا :

ـــ ربما فى المرة القادمة .

فقال بشىء من الفتور :

ـــ الهدوء هنا مهم جدا !

## - ١٣ -

كم لعب الأمل بتلى ان اجدها عقب فتح الباب ولكن المعجزة لا تقع بمثل هذه السهولة . ها هى امراة اخرى لا رغبة لى فيها . تنضم الى سلسلة المغامرات العقيمة المتلاشية فى العدم واللامبالا . وقررت ان احوز ثقة موسى القبنى ورضاه . كما فعلت مع حمودة وسنجة الترام . وسطاء سوء ولكن بيد أحدهم مفتاح الكنز . مثل هذا العناء تكابده الشجرة حتى يتمخض ليلها الطويل عن زهرة ضاحكة .

واقترحت عليه ـــ موسى القبنى ـــ فى المرات التالية ان أشاربه فى حجرته الخاصة قبل الذهاب الى حجرتى المقسومة . انبسط واعتبر ذلك تحية فريدة . وذات ليلة قال لى :

ـــ علمت أنك من زبائن الواق الواق ؟

ـــ الم تقع عيناك على ؟ .. طالما رايتك واعجبت بادارتك ؟

ـــ الامر مختلف غير ان وجهك بدا لى غير غريب وأنت تطالعنى هنا لاول مرة ..

شجعته على الشراب ، وقلت :
ــ انى اشرب فى اعتدال لأسباب صحية !
ــ لكنها مفيدة للصحة !
فقلت ضاحكا :
ــ الأمر مختلف !
ــ موظف ؟
ــ على المعاش .
ــ لكنك ما زلت فى طور الرجولة ؟
ــ الضابط يحال على المعاش فى أى سن ..
ــ كنت ضابط جيش ؟
ــ كنت !
فضحك عاليا وقال :
ــ حلمت فى صغرى بأن اكون ضابط شرطة ..
ــ مصيرنا فى الحياة لا نتحكم فيه رغباتنا ..
وهو يضحك مرة أخرى :
ــ على اى حال فعملى ذو علاقة وثيقة بالشرطة !
ــ قال الله ولا قالك .
ــ متزوج ؟
ــ كلا .
ــ يندر أن يجيء أحد فى سنك ..
فقلت ساخرا :
ــ الحياة دائمة التقدم .
ــ وكيف عرفت نيتى ؟
ــ صاحب الحاجة مستكشف .
ــ حمودة ؟
ــ نعم .

ـ رجل غاية فى الفطنة ...

فرميت سهمى الأخير قائلا :

ـ وقف مصادفة على سر شغفى بنور القمر ..

رفع حاجبيه الخفيفين وقال :

ـ أنت من عشاقها ؟

فحنيت رأسى لبلوغى آخر الأبواب وانتظرت الفرج غير انه قال :

ـ لولا عزلتها ما أثارت شغف أحد ..

ـ ولكن الشغف سبق اكتشاف عزلتها ..

ـ لا تهتم بالممتنع ، عندى من هن خير منها !

يا للداهية ! .. هل خاب المسعى أيضا ؟ ! .. وانطفأت الجمرات تحت كثافة الرماد .. ؟ !

— ١٠٤ —

وسألنى سنجة الترام :

ـ كيف تطيق هذه الوحدة ؟

كان قد فرغ من قدح الشاى الرابع فاسترخت جفونه من السطول ، أجبته :

ـ العادة أقوى من الوحدة ..

ـ وهل يليق بمثلك التردد على بيت دعارة ؟

فلم أحر جوابا أما هو فقال :

ـ اعتزمت على أن أكمل لك نصف دينك ..

فضحكت وقلت :

ـ انى الأعزب الأبدى يا معلم سنجة ..

فقال بصراحة مخيفة :

ـ عندى بنت مطلقة ..

لطمنى قوله كنذير حريق أما هو فواصل :

ـ بنت ممتازة ، هدية ، اوقعهـا سـوء الحظ فى رجل لا قيمة له .

ما توقعت ان أتعرض لغضبه قط . لعنت فى سرى الزمان والمكان . قلت :

ـ يلزمنى تفكير طويل فالتخلى عن عادة مزمنة كالعزوبة ليس بالأمر الهين ... !

## ـ ١٥ ـ

بات الخطر تحتى تماما مثل ظل منتصف النهار ، انسحب من التجربة كلها قبل ان يدهمك القضاء ، هكذا حاورنى عقلى . ولكنى كنت أحلم بالنجاة وأنا اتدحرج نحو الهاوية ، لم تعد قوة بقادرة على صدى . الحب المستبد الذى لا قاهر له . ذلك الغول الذى تغنيه فريسته عن المطاردة . الحلم الذى يزرى بكافة الأحلام ويحولها الى نفاية . لم انقطع عن موسى القبلى جريا وراء المزيد من الأمل والعرفان . ولما ثمل وانبعث من قلبه الخيال قال :

ـ بيتى محترم ، ليس بين زبائنه زبون واحد من الرعاع :

ابتسمت موافقا فتساءل :

ـ ما رأيك فى فتياتنا ؟

فقلت باصرار :

ـ اعترفت لك بأننى مشغوف بالغناء !

ــ نور القمر ؟
ــ هو الحق .
ــ أنت رجل غريب ..
ــ الم تحبها أنت ؟
ــ كلا .. والحمد لله ..
ــ الحمد لله ؟ !
ــ لو بدرت منى حركة واحدة تنم عن ميل لفقدت عملى فى الحال ..
ــ اذن فهو حفنى داود صاحب الكازينو !
ــ ماذا تعنى ؟
ــ هو العاشق الغيور ..
ــ انه عجوز ذو وجه قرد ..
ــ ذلك ادعى للغيرة ..
ــ صدقنى اننى أتجاهل الأمر كله ..
ــ ولكن عندك أفكار ولا شك ..
ــ ليكن عاشقها أو أباها .. من يدرى ؟ !
ــ هل ..
ــ هل ؟ !
ــ هل يعجز مثلك عن مساعدتى ؟
ــ ولم أكدر صفوى ومستقبلى بسببك ؟
ــ كصديق ..
ولكنه قاطعنى بجفاء :
ــ ما أنت الا مغرض !
ــ لا تسىء بى الظن ..
ــ لا تحاول اقحامى فى هذا الأمر ، لا تكن أنانيا ، غامر بنفسك اذا شئت والا فاصرف النظر ..

فقلت بحرارة :

ـ اقدم لك الأسف والاعتذار !

مضيت اشاربه دافنا همى فى الصمت ، ومضى يذوب فى النشوة وينفض عن نفسه الكدر ، ثم سألنى :

ـ هل اغضبتك ؟

ـ الحق لا يغضب ، ولكن كيف عرفت حفنى داود ؟

ـ كان ناظر مدرسة أهلية وكنت كاتب حسابات عنده ، وتحت ضغط مراقبة وزارة المعارف ومحاسبتها اضطر الى تصفية المشروع ، وبعد حين قدم مشروع الواق الواق وضمنى اليه مديرا ..

ـ ومتى عملت نور القمر عنده ؟

ـ من أول ليلة ، لعله لم يقم بالمشروع الا من اجلها ..

ـ وهو الذى فرض عليها العزلة ؟

ـ على الأقل هو الذى أصدر الأوامر الينا ..

ـ اتصور انها تجيء معه وتذهب معه .. ؟

ـ فى الفورد ..

ـ لا شك أنه أصبح ذا مال ؟

ـ اعتقد ذلك ..

لم اهدر الوقت سدى كما توهمت ، لقد اثريت بمعلومات مفيدة ، وتحدد سبيلى كما لم يتحدد من قبل . ولن أقطع صلتى بموسى القيلى مداراة لنواياى الحقيقية ..

واقتحمنى سنجة الترام بزيارة توقعتها وخشيتها ..وكنت قد تجنبت الانفراد به لعله يدرك موقفى من اقتراحه ولكنه كان مدمن بلطجة ، معتادا للأخذ دون مقابل ورغم المجاملات ران الفتور على اللقاء ، وبتخلى البشاشة عن قسماته اسفرت عن دمامتها وندرها . تساءل :

ــ ماذا جرى ؟

انه يتساءل عن سر تباعدى رغم وضوحه فيضطرنى الى اختلاق المعاذير . قلت :

ــ ليس المزاج على ما يرام !

فقال بقحة :

ــ هذه عاقبة التردد على بيت قواد !

فقلت باستياء :

ــ ليس الأمر كذلك ..

فسأل ببرود :

ــ متى تفى بوعدك ؟

ــ أى وعد يا معلم ؟

ــ الم نقرأ الفاتحة ؟

حملقت فيه بذهول فقال :

ــ قرئت بالقلب ، أم وجدتنا دون المقام ؟!

ــ استغفر الله ، المسألة بالنسبة لى قفزة خطيرة ..

فقال وهو ينهض :

ــ ام وجدتنا دون المقام ؟!

غادرني مضطربا . كلا . لم أعرف الجبن في حياتي ، ولا كنت ممن تعرقلهم الخشية على حسن السمعة . لكني شعرت بانني مقبل على عاصفة أو أن عاصفة مقبلة على ، وحتى هذه اللحظة فالنجاة ممكنة . ممكن أن أسدل بيدي ستارا على روض الفرج وبيت موسى القبلي وقارب سنجة ، ثم ارجع الى روتين حياتي السابق بين معاشرة الكتب وسمر قهوة المالية . هذا ممكن نظريا ولكنه مستحيل في الواقع . الواقع انني فريسة جنون طاغ يلفظ كافة قيم الحياة ، ويتركز في هدف واحد . ذلك يدفع بي في شبكة من العلاقات المذهلة ، والأخطار المحدقة ، ويفتح لي طريقا واحدا الى مصير محتوم .

## — ١٧ —

تبادلنا الأنخاب ، انا وموسى القبلي . قال وهو يتفحصني :

— لعلك شفيت من حبك ؟

فهززت راسي نفيا قال :

— انه أمر مضحك وعجيب ..

— هل عندك نصيحة ؟

— انت غني ؟

— كلا ..

— هذا يعني ضياع ٩٠٪ من الأمل ..

— لا مؤهلات من مال أو شباب !

فقال بدهاء :

— ثمة وسيلة للشفاء ، أن تكثر من زيارتنا !

— يخيل الى انك لم تعرف الحب يا موسى ؟

ــ هذا حق .

ثم مواصلا بقحة :

ــ الحق أننى لا احب النساء ، لذلك اتعامل معهن بمهارة فائقة !

تفكرت مليا فى معنى قوله ، ثم سألته :

ــ اترى حالى ميئوسا منها ؟

ــ حدثنى أولا عن حبك ؟

ــ ماذا اقول ؟ ، انها تفرض ذاتها على وجدانى وخيالى ، اقوى واعز من الحياة نفسها ، لا غنى عنها كما أنه لا غنى للحياة عن اشعة الشمس ..

فضحك على رغمه وقال :

ــ ما اعجب هذا الكلام يخرج من فم ضابط متقاعد خبير بالناس والحياة .. !

ــ نحن نعرف معنى الأسر أكثر من غيرنا .

فضحك مرة أخرى وقال وقد ثمل :

ــ منظرك ضخم لا يثير الرثاء ابدا !

فغضبت وقلت له موبخا :

ــ سكرت عليك اللعنة .

وقبل أن يفتح فاه دق جرس الباب الخارجى ..

خف مسرعا مغادرا الحجرة . ترامت الى ضجة مريبة ، قمت الى باب الحجرة واخرجت رأسى الى الدهليز . رأيت مجموعة تتدفق من رجال الشرطة والمخبرين !

## — ١٨ —

لم اشعر — من قبل — بمثل الذعر الذى اجتاحنى ، تجسد لى وجه سنجة الترام وراء الكبسة . انقض على مخبر فقبض على أعلى الجاكتة ، ضكنى بكوعه فى صدرى ، وهو يقذفنى بوابل من الشتائم . اجتيحت الحجرات ، سيق الرجال والنساء عرايا او شبه عرايا . من حسن الحظ اننى لم اضبط متلبسا ولكن اى حسن حظ . حاولت أن أهمس بهويتى فى اذن الضابط ولكن المخبر أرجعنى بلكمة فى عنقى . انغمست فى العار حتى القمة . دفعنا الى السيارة كخراف تشد الى الذبح .

وصلنا الى القسم وقد استل منى الاحساس والفكر . وكان تحقيق مهين . حجزت النساء ، وموسى القبلى ، وحررت المحاضر للرجال ثم أفرج عنهم . غصصت بذروة الألم وأنا أعلن هويتى . غادرت القسم شخصا جديدا عاريا تماما !!

## — ١٩ —

ذكرت الحادثة فى صفحة الحوادث الصباحية . لم تعلن أسماء — عدا موسى القبلى — وقيل عنى « وضابط جيش متقاعد فى الخمسين من عمره ! » . خيل الى انه اعلان كاف لفضحى فى محيط الأسرة وفى قهوة المالية . انزويت فى شقتى بالمنيرة غارقا فى القرف : طالت لحيتى وأهملت نفى تماما . على تلك الحال زارتنى عمتى ، وأكد لى قلبى بأن صبرها أخبرها بكل شىء .

اقنعتنى ــ ما وسعها ذلك ــ بأن زيارتها عادية . سأصبح حديث الأسرة المحترمة . ابناء عمتى وعمى وخالى اناس محترمون حقا ؛ وطالما تبادلنا الازدراء الصامت . لا يحبنى فى أسرتى أحد الا عمتى . ها هى تعود الى حديثها المفضل « الزواج » .

ــ لا تكن عنيدا ..

حدجتها بارتياب فقالت :

ــ اهملت نفسك اكثر مما يتصور العقل ..

فضحكت ضحكة متكلفة وتساءلت :

ــ ماذا عندكِ من اخبار ؟

فضحكت ضحكة عصبية وتمتمت :

ــ تصور !

ثم اغرورقت عيناها ، وقالت :

ــ انك صورة طبق الأصل من ابيك ، لك منزلة فى قلبى لا نظير لها ، ليتك تعمل بنصيحتى !

## ـ ٢٠ ـ

لم افد من الدرس ما يتوقعه العقلاء . قلت ان الجنون حقا هو الرجوع بعد ما كان . تخففت من البقية الباقية من الحياء فمزقت اثوابى . من الآن والى الابد سأنتمى الى عالم غير عالم الناس . سأفتح ذراعى للجنون والسفه . وخمر النزق المعتقة . الحياة لا تتكرر والحب اغلى جوهرة فى تاجها . وفى سبيل الجنون المقدس تستحل كل حماقة . اقتلعت نفسى من مجرى الحياة المألوف المحفوف بالعقل والحكم . خف وزنى تماما وبت قادرا على الطيران والشيطنة ، وليأخذ بزمامى نبض القلب الثمل بالبهجة والأسى .

وهدانى الصوت الخفى الى خاطرة مبتكرة وجريئة فقلت لحمودة الجرسون :

ـ سيسجن موسى القبلى فهل يمضى الكازينو بلا مدير ؟

فقال وهو يرمقنى بانتباه :

ـ هذا ما يشغل حفنى بيه فى هذا الوقت ..

فقلت بهدوء :

ـ انى أرحب بهذا العمل !

ـ انت ؟ !

ـ نعم أنا ، ام لا ؟

فتردد متفكرا فقلت :

ـ قدم ما يسعك من معاونة وانت مطمئن !

فقال حمودة بارتياب :

ـ انى اخمن الدافع وراء ذلك ..

ـ انى اعرف الأصول !

ـ لدى أى خطأ تتورط فيه فسأعتبر بالتبعية متورطا فيه ومسئولا عنه وأخسر رزقى !

ـ لا تخش شيئا من هذه الناحية .

ـ الا تحاول الاستحواز على المراة ؟

ـ كلا ..

ـ اذن لماذا ترغب فى هذا العمل ؟

فقلت باسما فى ثقة واخلاص :

ـ ربما لأعمل فى رحابها ...

# - ٢١ -

دعاني حمودة ذات ليلة لمقابلة حفني داود صاحب الكازينو واق الواق . وجدته وراء مكتب صغير وأنيق في حجرة تطل بنافذة على النيل ، استقبلني بوجه محايد ، وراح يتفحص هيكلي الضخم بلا انفعال . كان عجوزا في السبعين أو فوقها ، ضئيل الجسم ، له سحنة قرد لانحدار جبهته وغور عينيه وبروز ذقنه . شعره الفضي مفروق وممشط بعناية ، كذلك شاربه . أشار الى فجلست على أحد مقعدين جلديين متقابلين امام المكتب . تبادلنا النظر في صمت مليا ثم سألني :

ــ اسمك ؟

ــ أنور عزمي .

ــ انت ضابط جيش متقاعد حقا ؟

ــ اجل ..

ــ وترغب في العمل مديرا للكازينو ؟

ــ نعم ..

ــ ما الذي دفعك الى ذلك ؟

قلت ضابطا مشاعري تماما :

ــ الفراغ فتاك ، ثم انني محدود المعاش !

ــ أتراه عملا مناسبا ؟

ــ لم لا ؟ .. وهناك سبب آخر ان أحتفظ به لموسى القبلي لحين خروجه من السجن !

ــ صديقه ؟

ـــ نعم ..
ـــ ولكن العمل يحتاج الى خبرة خاصة ؟
ـــ اكثر مدة خدمتى فى الجيش انقضت فى الفروع الادارية فأنا ذو خبرة بالادارة والحسابات ..
ـــ العمل عندنا يتنافر مع الروح العسكرية ؟
ـــ لا تنقصنى اللباقة !
وساد الصمت مرة أخرى ثم قال :
ـــ لا بأس من تجربتك ، ولكن اعلم أن أهم واجباتك أن تمنع المتطفلين عن نور القمر ..
ـــ على الاقناع وعلى سنجة القوة عند اللزوم !
ـــ عظيم ..
ونادى سنجة الترام فجاء وقد دهش لمرآى ، فقال له حنفى داود مشيرا الى :
ـــ أنور عزمى المدير الجديد ، تعاون معه كما تعاونت مع موسى القبلى .

## ـ ٢٢ ـ

لى مجلس خاص بمحاذاة المسرح . والى جانب النسبة المئوية التى تشكل مكافأتى على امتياز وهو أن أطلب من المشارب ما أشاء . على الأساسى المحافظة على النظام ، مراجعة دفتر التذاكر ، التصدى لأى خلاف ينشب بين زبون وزبون ، زبون وجرسون ، زبون وامرأة من نساء جوقة الراقصة ، الى المهمة المقدمة على غيرها وهى صد المتطفلين عن نور القمر .
ولكن ماذا فعلت بنفسى ؟ .

أظن يحسن بى أن أدفن هذا السؤال وامثاله . عملى أشرف من غشيان غرزة سنجة ، أو التردد على بيت موسى القبلى ، أو موقفى فى القسم . فلتدر أسئلتى حول الحب نفسه فهو السر الجدير بالبحث والفهم حقا . على أى حال فأنا لم أقع فى هوى امرأة عادية . جمالها الفائق معترف به من الجميع . وهى تتبدى فى هالة من الغموض المثير للفضول . تحدق بها العزلة والحراسة المغريتان بالجذب والضلال . ولكن هل اقتربت منها حقا ؟ . الجواب بالايجاب بالحساب المادى . فها أنا أعمل لحساب حارسها الأخير . اقابله يوميا ، أتلقى تعليماته . أقدم له الحساب . انى اتحرك على بعد خطوات من استراحتها الخاصة . سألتقى بها ذات مرة ، فى حجرة حفنى داود أو فى الممشى وراء الكواليس . ولكن شيئا من ذلك لم يحدث بعد . لم يحدث لقاء ولا تعارف ولا تلامس . كأنى بذلت ما بذلت وضحيت بما ضحيت لأصل فى النهاية الى القرد العجوز . وانى هذا كله جعلت أرقب سنجة الترام بحذر ، وأخاف جانبه . وقد أعطانى حقى وزيادة . بل سألنى مرة :

ــ ألم تحن من جديد الى قاربنا الشراعى ؟

فشكرته بقلب يفيض بمقته وقلت :

ــ ستجمعنا الأيام باذن الله ..

لا شك أنه كان وراء الكبسة ولكن لم يخطر بباله أن يجدنى ــ نتيجة لها ــ مديرا عليه ! . ولا خطر ببالى أن عملى الجديد سيبعدنى عن نور القمر خطوة بدلا من أن يقربنى منها خطوات . كنت وأنا زبون أراها من مقدمة الصفوف وفى مواجهتها ، أتملى طلعتها البهية طيلة الوصلتين ، واسبح فى تيار أنغامها المنسرب ، أما الآن فلا أراها الا من زاوية جانبية ، ويشغلنى العمل كثيرا عن التركيز فى عذوبة الصوت ، واسير أحيانا فى الممشى الفاصل بين جانبى الصالة كأنما لأتفقد النظام ، وفى الحقيقة لأملأ عينى منها ،

وبأمل أن ألفت عينيها الى عابدها المعذب ولكنها كانت تهيم فى النعمة ولا ترى السامعين . وبات عزائى الوحيد أننى أنتمى الى العالم الغامض المنور بنور القمر ...

## - ٢٣ -

ثمة علاقة عجيبة بين حفنى داود ونور القمر ، ما هى ؟ . هو الذى يسيطر على ظهورها واختفائها ، ويرسم الحدود التى لا يجوز تخطيها ، وهى تجىء وتذهب ، تغنى وتسكت ، تنزوى وتصمت ، بإملائه وتوجيهه ، فأى قوة خفية يملكها هذا العجوز القرد ؟ ! . والى هذا كله فهى تتبدى هادئة وسعيدة ، لم لا ؟ ، ما دام لا تبدر منها بادرة غضب أو تمرد ، وهو ليس أباها فالقرد لا يُنجب ملاكا ، وليس زوجها والا لعرف ذلك على أوسع نطاق ، ولا يتصور أن يكون عشيقها بقبحه وعجزه ، فما سر هذه العلاقة العجيبة ؟ ! وهبه ثريا فما قناعته بهذا المسرح الصيفى ، لم لم يجعل منها نجمة من نجوم عماد الدين ؟ ! ومهما يكن من أمر سيطرته عليها الا يشكل هذا الوجه الآخر لسيطرتها هى عليه ؟ ! . هذا مؤكد فيما أرى ، لا شك أنها القوة الحقيقية فى هذه العلاقة الغامضة ، وما جنيت حتى الآن من مغامرتى الا زيادة فى اضطرام عواطفى وهياج أحلامى وحوماتى بجنون حول الخطوة التالية . انى أقبع فى مجلسى ، رفيقى قدح من البيرة مكلل بالزبد ، أناجى طيلة الوقت أحلاما طائشة . أتصور أنها علمت بالمدير الجديد ، عرفت اسمه وهويته ، لمحته مرة أو أكثر ، راقها منظره ، لم لا ؟ . حدست السر وراء سعيه ، وحتما سيصاب حفنى داود مرة بوعكة تمنعه من المجىء ، أو سينقضى أجله ، أو أجد حيلة للتخلص منه ،

عند ذاك تتسرب أضواء الأمل فى هذا الليل البهيم ، وينفسح المجال أمام الحب ليصنع معجزاته ، انى أتمزز البيرة ، واحلم ، وأتذوق النشوة ، أعانى العذاب المقدس ، ومن ناحية تلاطفنى نسمة مفعمة بأريج الياسمين ..

## — ٢٤ —

الظاهر أننى شغلت بال حفنى داود كما شغل بالى ، فعقب المحاسبة والتشطيب فى ذات ليلة قال لى :

— لا تذهب .

فلبثت فى مقعدى الجلدى لعبة بيد الاحتمالات المتناقضة ، ونهض قائلا :

— تعال ..

خرج من الباب الخلفى وأنا ظله . رأيت الفورد قابعة فى الظلام المتفشى عقب التشطيب واطفاء الأنوار . فتح الباب الخلفى قائلا :

— تفضل ..

واتخذ مجلسه فى المقعد الأمامى أمام عجلة القيادة . سرعان ما تبينت وجودها الى جانبه فكاد قلبى يثب من صدرى . هكذا جاءت الخطوة التالية بلا سعى منى أو تدبر ، جاءت كضحكة الشروق مسربلة ببهجة سماوية . واندفعت تلقائيا الى تحيتها فقلت :

— مساء الخير يا هانم .

غمغمت برد غامض ، وخفت عواقب خرقى للتقاليد ، ركزت بصرى عليها لائذا بالظلمة . تمليت رسم خلفية رأسها وأعلى

منكبيها ، ميزت قبعتها العريضة وشملتها المطـرزة بالترتر ؟ وثملت بعطـرها الفواح . شبـران هما ما يفصـلان بينى وبينها . انسابت السيارة فى الظلام ممزقة هدوء الحقول بأزيز محركها . انسبت معها فى بحر الهيام بأمواجه المتلاطمة وحواره الشجى . وددت ان اسمع صوتها وهى تحادثه او ان تمتد الرحلة الى الأبد .

وجدت السيارة تدخل حى المنيرة . الحى الذى ولدت وما زلت أقيم فيه . ودارت الى شارع أصلان فوقفت أمام فيللا صغيرة مكونة من حديقة ودور واحد تقع خلف العمارة التى اسكن فيها مباشرة ، لم أتمالك أن قلت بدهشة :

ــ انى أسكن العمارة خلف الفيللا مباشرة !

فأجاب حفنى بصوت محايد اطفأ حماسى :

ــ عظيم ..

أدخلت الى حجرة انيقة مؤثثة على الطراز العربى . جلست على ديوان رانيا الى القنديل باعجاب ، منادبا ارادتى لجمع شتات فكرى والسيطرة على هوج انفعالاتى . لبثت وحدى عشر دقائق ، استقر بقلبى خلالها احساس مطمئن بالانتماء .

وجاء حفنى داود فى روب صيفى مزركش مثل جدران الحجرة ، يحمل مدفأة مشتعلة الجمرات وجوزة . رمقتها باعتبارها أدوات صداقة والفة . انتقع المعجزة وتهل نور القمر بطلعتها السنية ؟ ! .

ذهب الى الباب فأغلقه ثم إتخذ مجلسه بادئا النشاط المعهود . خاب الأمل . صمتت بلابل السرور . ما الذى دعاه الى استصحابى معه ؟ . رغم طعونه فى السن فهو مدخن شره . جاريته رغم نفورى الطبيعى من المخدر . مهما يكن من عبثية الرحلة فقد اهتديت الى المقام وامسيت جليسا لصاحبه . واذا به يقول :

ــ لا شك انك تتساءل عن سر الدعوة ولك حق ، اعلم انى رجل صريح وواضح ، وانت بدورك رجل عسكرى لا يناسبه اللف والدوران .

فرنوت اليه متسائلا فقال :

ــ المسألة تتلخص فى الآتى ، سفر الى السويس ، نزول فى فندق الفردوس ، يدخل عليك صباحا خادم بالفطور ، يترك فى الحجرة لفة معينة ، يذهب ، تضع اللفة فى حقيبتك ، ترجع بالسلامة ، توتة توتة فرغت الحدوتة !

ازاء كل عبارة تقهقرت ميلا منغمسا فى مستنقع الخيبة . تمتمت :

ــ تهريب !

ــ سمه ما تشاء من الأسماء ، أربع مرات فى الشهر ، مائة جنيه مكافأة عن كل مرة !

ــ لكنه تهريب !

ــ الشك لا يمكن أن يرتقى الى شخص محترم مثلك ..

ــ عندك ولا شك من يقوم بذلك خيرا منى ..

ــ أنت خير من يقوم به حتى يخرج صديقك من السجن .

فقلت باستياء :

ــ لن اكون مهربا !

ــ الا يغريك الثراء ؟

ــ بلى ، ولكن الوسيلة يجب أن تكون شريفة ..

ــ أنت حر طبعا ، ولكن العمل لا مساس فيه للشرف !

ــ هو كذلك فى نظرى ..

ــ لعله الخوف ؟ !

فقلت بحدة :

ــ لست جبانا ..

ــ أنت حر يا أنور بيه .

وخطرت لى فكرة ماكرة فسألته :

ــ أنت رجل محترم فلم لا تقوم بالمهمة بنفسك ؟

ـــ وقتى لا يسمح بذلك !

فقلت باصرار :

ـــ لا أحب الأعمال المخالفة للقانون !

ـــ انا لا أعترف الا بالقانون الالهى ..

ـــ آسف جداً يا حفنى بيه ..

صمت . رجعنا الى التدخين المتواصل . تنهد أخيرا وقال :

ـــ على أى حال لنفترق أصدقاء ..

ظننته يطالبنى بالانصراف فهممت بالقيام ولكنه قال بسرعة :

ـــ لا اعنى هذا ، اعنى أنه على ان أختار مديرا جديدا !

وقفت مادا يدى ، صافحنى وهو يقول :

ـــ فكر ، انى منتظر جوابك النهائى غدا !

## — ٢٥ —

نجح فى أن يبقينى صاحبا حتى صباح اليوم التالى . انى مفقود بحسب التعبير العسكرى . وقلت بصوت مرتفع فى حجرة الجلوس بشقتى :

ـــ لا .. لا .. لا ..

ان يكن القرب نارا فالبعد موت . ومهما يكن الثمن فلن أرتضى هجر الواق الواق . فيم التردد وقد انتهى أنور عزمى من زمان ؟! . لقد هجرّ الأقارب والأصدقاء ، تخطى العرف والتقاليد ، تمرغ فى السمعة السيئة ، حمل فى سيارة الشرطة بين المومسات ، يعمل فى وظيفة بينها وبين القوادة نصف خطوة . فيم التردد ؟ . لم اللغو بمنطق العقلاء وأنت مجنون ؟ ! . حقا انى أتدهور الى غير ما حد ولكن ما أحوجنى الى رحمتك يا اله المعذبين ؟ !

ومضيت الى حجرة حفنى داود فرمقنى ببرود وتساءل :
ــ يبدو انك اتخذت قرارا ؟
فحنيت رأسى فى تسليم فسألنى :
ــ ترى كيف تغير رأيك ؟
فقلت غاضا بصرى :
ــ الثراء ، أليس هو بالاغراء الكافى ؟ !

ورجعت الى مجلسى بخاطرة جديدة من الشك . هل فطن الرجل الى غرامى بنور القمر ؟ . العاشق تفضحه أحواله . وهناك أيضا حمودة المطلع على سرى ، وكان موسى القبلي كذلك قبله . ولعل العجوز لم يقبلنى مديرا الا لعلمه بحالى واعتزامه استغلالى الى اقصى حد . لو صحت ظنونى فعلى أن أتوقع البطش بى لدى أول بادرة تهديد من ناحيتى . ولكن لعلها مجرد ظنون ووساوس لا أساس لها . .

## - ٢٦ -

ذهبت وجئت وقبضت . لأول مرة يمتلىء جيبى ويصير لى حساب فى البنك ، من أعماق الظلمات التى أتردى فيها صعد الى شعور ملىء بالثقة والنشوة ، ينتشر مثل الشذا الطيب ، أملى على بأننى أسير فى الطريق الصحيح وأننى بالغ شجرة طوبى (١) . شعور داخلى كنشوة الخمر . ذو قوة تتفتت حيالها صخور الواقع المتحدية . ولم يكن مجرد شعور باطنى فحسب فالمنطق آزره بطريقته الخاصة معتبرا ما ترديت فيه من درجات السقوط مما لا يمكن أن يضيع عبثا ولكنه الثمن الفادح يؤدى مقدما ، وأن حسن الختام آت لا ريب فيه . هكذا عللت نفسى بالأمانى لأتزود

---

(١) اسم شجرة فى الجنة .

بالصبر والطف من نذالة الجو . وحسبي الآن أنني أمكث في هالتها كل ليلة في الفورد مقدار نصف ساعة تضاف الى رصيد الوصلتين بالواق الواق . وحسبي ايضا أني صرت عضوا خارجيا في الأسرة وجليسا دائما في الحجرة العربية ومغامرا يحمل اليها كل أسبوع كنز نعيمها الوفير ، ولدي بعد ذلك عزاء الانسان — احلامه المتهورة — التي تحلق به في الفضاء بلا اجنحة .

وفي احدى سهرات الليالي الزرقاء بالحجرة العربية سألته :

— لم تقنع بفصل نشاط محدود في ملهى ثانوي بروض الفرج ؟!

فأجاب باقتضاب :

— فيه ما يكفي . . .

— ولكن ثمة ملحنين معاصرين متفوقين والحان جديدة جميلة وملاهي عامرة بعماد الدين ؟

فنقبني بنظرة كريهة وسألني :

— ماذا يهمك من ذلك ؟

فرجفت قلبي لغير أنني ضحكت قائلا :

— يبدو أنني اصبحت من رجال الأعمال !

فقال ببرود :

— كلا أنت موظف يا جنرال !

تضاعف حنقي عليه ، تمنيت تحطيم جمجمته ، تساءلت :

— الا تحب الذيوع والتوسع والشهرة ؟

فأجاب بصوت أبرد من الأول :

— كلا . .

المسألة انك أناني وجبان . حريص على حبس العصفور المغرد في القفص . تخاف عليها من الملحنين ومن الجمهور الحقيقي ، ولكن لماذا لا تحكم نبضتك المعروفة المدبوغة فتبقيها في الفيللا مثل جواري الحريم ؟!

الحياة تمضى فى طريقها لا اجنى منها الا أمر الثمرات . أحترق مثل الشمعة فيترسب ذوبى فى ماء آسن . وأسرى عن نفسى فأقول لها انى خليفته ، لا خليفة له غيرى . ولكن هل أقنع بالصبر كالعجائز ؟ . الا يجدر بى أنا المغامر بالتهريب ان أغامر بالاقتحام ؟ ! ولكن كيف وهو متصد لى مثل كلب الحراسة ؟ : . حقا انى لمجنون . أسير قوى غامضة تترامى خيوطها حتى تتشابك بمدارات الأفلاك أو تنعقد فى مركز الأرض . ويؤكد جنونى وأسرى الخفيف والنسمة والخوار والضجة والتغريد والألوان والضوء وكل شىء .

وتتوقف الحياة فجأة عندما تدق الساعة الثامنة مساء فلا يجىء النورد كعادته كل ليلة .. انتظرت متابعا عقارب الساعة . اقترب ميعاد الغناء فاتصلت بالفيلا بالتليفون . رد على صوتها :

— آلو .

— أنور عزمى .. ماذا أخركم ؟

— لن نأتى الليلة ..

— ولكن الجمهور منتظر ..

— تصرف .. مع السلامة ..

قطعت الخط . وجدتنى فى دوامة من الابتهاج والانفعال والحيرة . انه ول حوار يدور بينى وبينها وان لم تمازجه نبرة طيبة أو كلمة مجاملة . أين حقنى داود ؟ . لم لم يبلغنى بالأمر ؟ . لم لم يرد بنفسه ؟

وكان على أن أواجه الجمهور معتذرا عن غياب نور القمر .

## — ٢٨ —

عند منتصف الليل وقفت أمام الفيللا بشارع أصلان . نائمة مغلقة بالظلام ولا بصيص نور فى الداخل . انها تطرد الزائر بصرامة موحشة . مضيت الى شقتى فلم يطرق عينى نوم حتى الصباح . ترى هل جاءت المعجزة ؟ . عم ينكشف الستار الأسود ؟!

ورجعت اليها حوالى التاسعة صباحا . سألت البواب :

— حفنى بيه موجود ؟

اجاب الرجل :

— البيه مريض ..

تصرفت كفرد من الأسرة فدخلت بثبات . وجدت فى المدخل ممرضة فقلت لها :

— انى مدير اعمال حفنى بيه .. كيف حاله ؟

— لعله أحسن .

— ماذا به ؟

— تعب فى القلب ..

— هل أستطيع رؤيته ؟

غابت دقيقة ثم رجعت وهى تشير الى بالدخول . رأيته راقدا لا يبدو من الغطاء الا وجهه . لمحت مخايل الموت فى نظرة عينيه الغائمة الخالية من نبض الحياة وهمومها . الحجرة خالية بخلاف ما توقعت ! .

— لا بأس عليك ، شد حيلك ..

اجاب بصوت خافت :

ـــ شكرا .

ـــ لن ارهقك بالحديث ..

ـــ لا اهمية لذلك .. انها النهاية !

اشار الى بالجلوس على مقعد قريب من الفراش وقال :

ـــ لم اتوقع حضورك !

فتساءلت فى دهشة :

ـــ كيف ؟ .. لقد جئتك عند منتصف ليلة أمس ولكنى وجدت البيت نائما تماما ..

قال باقتضاب :

ـــ ذهبت !

جفل قلبى ، تساءلت :

ـــ من ؟

ـــ لم تضيع لحظة .. هربت !

ـــ نور القمر ؟

ـــ المتوحشة ..

فترت انفعالاتى كلها كشعلة ضئيلة ردمت بكوم تراب ! . فلم أدر ماذا أقول ، أما هو فقد تحطمت مغالبته وتدفق الاعتراف بلا ضابط ..

ـــ انها عذراء ، انه الحب ، انه الجنون ، أنت تفهم معنى ما أقول !

حدجته بنظرة محرجة ويائسة فقال :

ـــ توهمت وقتا انه أنت ..

ـــ أنا ؟ !

ـــ انك برىء ، واحمق مثلى ، انها ابنة المرحومة زوجتى ، شبت تنادينى بالابوة ، ماتت امها وهى عروس فى السادســة عشرة ، حاولت محاولة يائسة ثم قررت الاحتفاظ بها مهما كلفنى

جنونى ، بسببها خسرت مشروع مدرسة أهلية كانت تدر على رزقا لا بأس به ...

وعيت كل كلمة ولكن ما الفائدة ؟ .. سألته :

ــ أين تظنها ذهبت ؟

تجاهل سؤالى وواصل اعترافه :

ــ حصلت على المال بأى ثمن كما تعلم لأوفر لها أسباب السعادة ، انشأت مشروع روض الفرج لأشبع رغبتها فى الغناء والفن ، تجرعت العذاب ليلة بعد أخرى ، فعلت المستحيل ..

تساءلت بحيرة :

ــ الم يكن بوسعها أن تتمرد عليك ؟

ــ كلا ..

ــ لم ؟ ..

وهو يتنهد :

ــ موهبة اذا شئت !

ــ اى موهبة ؟

ــ فى عينى ، لا تفسير لذلك ..

ايخرف الرجل ؟ .. ايؤمن بالسحر ؟ .. هل يتمتع بقوة تسلطية خاصة ؟ ..

ــ بمجرد أن اقتحمنى المرض طارت ..

ــ متى ؟ .. لقد ردت على مكالمة تليفونية فى منصف التاسعة من أمس ..

ــ لم تنتظر النهار .. ربما عند منتصف الليل أو عقب ذلك :

كان من الممكن أن اصادفها فى موقف أمام الفيللا ! .. يا للخسرة المعذبة .. وعدت اتساءل :

ــ اين تظنها ذهبت ؟

فتمتم :

ــ يا له من سؤال احمق !

مات حفنى داود فى نهاية الاسبوع . اغلق الواق الواق ابوابه ولما ينته الموسم . توارت عن عينى الحياة الجديدة بأضوائها واناسها فوجدتنى منبوذا خارج الاسوار . انا وحبي الشهيد . هل خدعنى الشعور الباطنى الملهم كما خدعنى المنطق ؟ ! . هل ارضى من الغنيمة بالاياب سالما من قبضة الشرطة ؟ . الحياة قفراء لدرجة الرعب . لا شيء ولا معنى ولا طعم ، وهذا الاحساس المتغلغل فى الاعماق بالاحباط والحزن وخيبة الأمل . هل استطيع أن أواصل الحياة بخواء شامل وقلب معذب ؟ . وانى لاتحرى كلما وجدت الى التحرى سبيلا . استجوب بواب الفيلا وحمودة وسنجة الترام . اغشى الملاهى ملهى بعد ملهى . امشى فى الأسواق والشوارع كالمخبرين . فعلت أكثر من ذلك . قصدت قسم المنيرة . ادعيت أن لى دينا فى عنق الفتاة المختفية . اعطيت أوصافها وما لدى من معلومات قليلة عنها ، طالبت بمعاونتى فى العثور عليها . اندفعت فى كل سبيل بقوة جنونى والمى .

ولما بلغ بى الالم حده الاعلى قررت أن اقاوم ما دمت أرفض فكرة الانتحار . تجنبت زنزانتى ما وسعنى ذلك ولكن قهوة المالية لم تشغل الا بعض وقتى ولم تجد كثيرا فى تسليتى . خطر لى أن اقامر ، فالقمار ينسى الانسان النوم والطعام فلعله يبرئه من الحب . وجدت فيه مهربا محموما ولكنه لم يستطع أن يستغرقنى واساء الى أعصابى اساءة حملتنى على اعادة التفكير . والتمست الشفاء فى الكتب الروحية ، ولا أنكر انها فتحت لى باب أمل ولكنه لا يؤتى ثمرته بلقاء المحبوبة الا بعد الموت ، ويجعل من الحياة فترة تمهيد

وتعذيب وانتظار . وخطوت خطوة جديدة تماما فاستشرت طبيبا نفسيا . قصصت عليه قصتي ، رأيته يصغي بعناية وحدب . ولما وجدته يرمق هيكلي الضخم قلت له مرددا قولا قديما :

ــ منظري لا يثير الرثاء !

فقال بجدية :

ــ انك انسان معذب ..

ثم واصل بعد هنيهة :

ــ لا اعتقد انك مريض الا اذا اعتبرنا الحب مرضا !

فسألته بتوسل :

ــ الا يوجد علاج لحالي ؟.. أعني عقاقير مفيدة مثلا .. ؟

ــ العقاقير مفيدة ولكني لا أنصح بها الا عند اليأس ..

ــ اظن أن حالي ميئوس منها تماما ..

ــ ليس الامر كما تصور .. انك سجين ذاتك وعلاجك في أن تخرج منها ..

ارتبكت امام اقواله فصمت مبتهلا فقال بوضوح :

ــ انصحك اولا بالزواج ، انصحك ثانيا بالاندماج في نشاط اجتماعي او سياسي ، اذا لم يجد معك فلدينا آخر وسيلة وهي العقاقير ..

بقدر ما أعاني من الم بقدر ما اصمم على المقاومة ، ازمتي تكشف لي عن جوانب ظلت خانية في نفسي بلا استغلال . زرت عمتي نظيمة وعالنتها برغبتي في الزواج . صادفتنا عراقيل غير يسيرة . السن مثلا والمعاش المحدود وأجزاء من سيرتي الماضية . ولكن ثمة نساء فضليات يعانين ظروفا سيئة ويرحبن بالزواج بقلب متسامح وعقل متفتح . وجدت بينهن ارملة في الحلقة الرابعة ، أما لفتاة متزوجة ، متوسطة الحال والمنشأ والتعليم تدعى فائزة . جددت شقتي بالترميم والتجديد والطلاء ثم استقبلت بها عروسي . الامر بالنسبة لي علاج ، في نظر عمتي رغبة في الاستقرار

والانجاب ، ليس زواج حب ولكنـه زواج للشـفاء من الحب أو تخفيف حدة جنونه ، عناصره الأساسية الطيبة والمودة والتعاون والحياة النظيفة المطمئنة . سرعان ما لمحت مخايل الأبوة ، تلقيتها بقلق وحب استطلاع ونوع من السرور ، ولكن أسير الحب ما زال يرزح تحت أغلاله الصلبة . ثمة شعور بالذنب كأننى أنى فى الحياة الأخرى سأطلق زوجتى المخلصة لأتزوج من الأخرى ! . من يدرى فلعل زوجتى ترجع وقتذاك الى زوجها المتوفى أو الى من يروق لها من الأرواح الخالدة ! .

ثم خضت تجربة الانتماء السياسى . تجربة مثيرة للعب عندما يشرع فيها انسان جاوز الخمسين من عمره بلا انتماء حقيقى . غير أننى لم أكن بلا انتماء . ألم يتقرر لى ميل محدد مذ اشتركت فى المظاهرة وأطلقت الرصاصة فى فناء مدرسة الشرطة ؟ . ولكن الوطن يموج بتيارات جديدة أيضا . تيار دينى عنيف ، تيار يسارى متطرف ، تيار فاشستى حاد . تحيرت طويلاً بين المبادىء . فى كل واحد على حدة وجدت عنصر جذب وعنصر رفض . وبدافع من ميولى القديمة اتجهت نحو الوفد ، وبخاصة نحو جناحه اليسارى . فيه يطمئن ايمانى الراسخ بالله وحماسى العقلى الجديد للعدالة الاجتماعية . وهو محطة تأمل حتى أكتسب مزيدا من الخبرة والضوء وأفيد فى الوقت نفسه من نفوذ الحزب الشعبى . سرعان ما انضممت الى لجنـة الوفد بالمنيرة . انغمست فى الزوجية والسياسة . رغم ذلك ظل الأسير الكامن فى يناضل سلاسله ، طالبت بترشيحى فى الانتخابات ولكن مطالبتى رفضت لحداثة عهدى الرسمى بالوفدية . رشحت نفسى على مبادىء الوفد . وجدتنى أنافس مرشح الوفد الرسمى ومرشحا آخر من الاخوان . وعند احتدام المعركة وزعت منشورات غريبة استهدفت نسفى تماما . فيها كلام عن محضر الشرطة اثر القبض على فى بيت موسى القبلى ، وكلام عن وظيفتى كمدير للواق الواق ، وتعليقات ساخرة وجارحة .

وخسرت التأمين ، ولكنى كعادتى توثبت بكل قوتى لمواصلة المعركة السياسية ، خطبت ، حررت فى الصحف ، وثقت علاقتى بالزعماء ، تبرعت من مدخرات التهزيب للجهاد ، مضى الأسير على مضى الأعوام يتخفف من آلامه ويتحول المه الى أسى مقدس وهادىء لا يموت ولا يحيا بعنف وبريدة .

★★★

وفى صيف احد الأعوام سافرت ضمن وفد برلمانى الى مؤتمر البرلمانات العربية ببيروت . وفى ذات ليلة ، فى رحاب الجبل الأخضر والينابيع العذبة ، وجدتنى امام نور القمر ! . كنت وبعض اعضاء الوفد فى جلسة سمر تضم صحفيا لبنانيا عائدا لتوه من باريس . تحدث بحماس عن مغنية من أصل مصرى ، تشدو بأغانى « فرانكو اراب » وتحقق نجاحا متواصلا تنبأ له بالعالمية ، تدعى نور القمر !

زلزل قلبى لدى ذكر الاسم بعنف يقظة كاسحة . اندفعت فى مجال التذكر والاستجواب متحررا من الجاذبية . انقلبت طفلا يلهو باللعب العتيقة والأحلام المتهورة ويناجى مرة اخرى المستحيل . وعلمت من الصحفى ايضا أن مدير اعمالها يرسم خطة لرحلة فنية لها ، لزيارة القارة الأوروبية كخطوة أولى ، فبادرت — فى الفندق — الى تحرير رسالة لها ، قلت :

عزيزتى الفنانة الكبيرة نور القمر :

هل تذكرين انور عزمى مدير الواق الواق ؟ .. لقد جاءتنى انباء نجاحك فى مكان لم تخطر لى من قبل زيارته ، وعند رجل لم أتصور أن أعرفه يوما أو أن يمدنى عنك بخبر ، وقد سعدت بنجاحك سعادة يعجز القلم عن وصفها ، سعادة موصولة بتراث قديم من الاعجاب والحب لك فى قلبى . أملى ايتها الفنانة الكبيرة

ان تضعى مصر فى اعز مكان من رحلتك الفنية المقبلة ، فهى الأصل ، وفيها أول قلب نبض بحبك .

★★★

وفى مصر تلقيت الرد على عنوانى باللجنة . الحق انه لم يكن ردا بالمعنى المفهوم . كان كارت بوستال تتألق فيه صورتها الخالدة ، وعلى ظهره دون بخط اليد :

تحية شكر وتقدير

« نور القمر »

جعلت اقرأ المدون بعناية . كلا لم اسعد بة السعادة المتوقعة . ليست رسالة شخصية من اى نوع كان . انه اكلشيه للرد على المعجبين . لعلها امرت بارسالة دون الاطلاع عليه ولا حتى امضائه ، انه يدفعنى الى عالم الأرقام والتجريد ويتجاهل عواطفى وآلامى المقدسة . ولكن ها هى صورة لنور القمر بين يدى ، بكل بهائها وعذوبتها ، بين يدى رغم انشغالها الواضح بمجدها ورغم حيادها القاسى ازاء المعجبين .

سأحتفظ بالصورة ما حييت . ومن يدرى ؟ .. فربما رجعت صاحبتها ذات يوم الى مصر للزيارة أو الاقامة . ماذا يعنى هذا بالنسبة لى ؟ . لا ادرى أيضا ، ولا احب أن أحسم الموضوع بفكرة محددة لن اجنى من ورائها الا العذاب . واذا داخلنى شك ذات يوم فى حقيقة مغامرتى العجيبة فما على الا أن استخرج الصورة من حافظتى ، وعند ذاك تنطرح أمامى الحياة بكل الوانها المتضاربة ، وما يند عن مفاتنها من جنون مقدس .

# أهل القمة

- ١ -

قبيلة من النساء . خاطرة تراوده كثيرا وهو ينظر نحوهن . سفرة الغداء معدة . مغرية للجائع . الصحاف والملاعق والشوك والسكاكين ، وعاء البلاستيك المملوء بأرباع الأرغفة ، الدورق والأكواب .. هرعت زهيرة الى المطبخ لتحضر الطعام . من باب الشرفة المفتوح لاح ميدان السكاكيني والجانب الأبعد من البستان الذي يتوسطه تحت سماء الخريف المنقوشة بسحائب بيضاء متناثرة .. نزع قبعته والبسها فازة فوق البوفيه واتخذ مجلسه فعلت هامته بصورة ملموسة فوق مستوى المائدة لطوله الفارع . جاءت زهرة بأواني الطعام ، بالكوسة والشواء والأرز والمخلل . تحلقت النساء السفرة ، سناء زوجته ( ٣٠ سنة ) .. وكريماته الثلاث ، أمل ( ١٠ سنوات ) .. سهير ( ٨ سنوات ) .. لمياء ( ٦ سنوات ) .. زهيرة شقيقه ( ٤٠ سنة وتكبره بخمس سنوات ) .. كريمتها سهام ( ١٧ سنة ) ..

تناول خيارة مخللة فدمعت عيناه السوداوان الصافيتان . ما امهر شقيقته زهيرة . طاهية ماهرة : تضفى على الطعام لذة تعوض ما ينقصه من ترف . يتجنب الثناء عليها اشفاقا من اثارة سناء ، يتحاشى قوتها أو بالأحرى عصبيتها . انه قوى في القسم ، أمام الخارجين على القانون ، ولكنه يتحلى بالحكمة في شقته . السخط لا يفارق سناء منذ اضطرت زهيرة وابنتها للاقامة معه . ورغم أنها تقوم بأعباء البيت كلها . رغم أنها تعمل كطاهية وخادمة ، فانها لم تستطع أن تفوز برضى سناء . لسهام كريمة اخته جمال

بديع « انه يحب جمالها . لم تحظ بمثله كريمة من كريمانه . رغم أن سناء لا بأس بها وهو أيضا لا بأس به . رغم ندبة فى صدغه الأيسر من مس رصاصة نجا منها فى أثناء مطاردة عصابة فى الدلنجات .

انتظمت السفرة حركة نشيطة فى جو يسوده الصمت حتى خرقته سناء بصوتها الرفيع :

ــ عندنا أخبار .

فتساءل فى توجس :

ــ ماذا عندكم ؟

ــ بعد الانتهاء من الطعام ..

حدثت مشاحنة من المشاحنات التى لا تنتهى . زهيرة وسهام يمكثان هنا بلا ترحيب . لم لا يعترف بأنه هو نفسه لا يرحب بالزحام وانه يعاني منه من الناحية الاقتصادية . ولكن الواجب هو الواجب . انقلبت الشقة فأصبحت ثلاث حجرات للنوم .. الغى كارها حجرة الاستقبال واحل مكانها السفرة .. وجعل من الصالة الصغيرة حجرة استقبال وجلوس . يومها قالت سناء :

ــ بيتى تهدم !..

فتساءل بامتعاض :

ــ هل ارمى بهما فى الطريق ؟

ــ لم لم تذهب الى احد من أخواتك ؟

ــ لا متسع لها ، وكيف تذهب الى بيت رجل غريب وأنا موجود ؟!

ــ أنت ضابط .. ابحث لها عن شقة .. ولها معاش الأرملة !

فضحك ساخرا وقال :

ــ شقة فى هذا الزمان ! .. أما المعاش فهو بضعة جنيهات .. لقد مات المرحوم بعد خدمة قصيرة !

ــ وما ذنبى أنا ؟!

ـــ لا حيلة لى أو لك ..

من بادىء الأمر شعرت زهيرة بالحرج أكثر مما شعرت بالترمل ، ومما يزيد الأسى أنها كانت فى زواجها موفقة .. ولكن الموت عاجله . انه يدرك تماما . يعرف أنها على يقين من انها غير مرغوب فيها .. لا هى ولا ابنتها الجميلة . وسناء عصبية . لا تحسن اخفاء مشاعرها أو لا يهمها ذلك . ولم يخفف من حدتها اقبال زهيرة على العمل اليومى الشاق . وطالبتها بالمعاش ولكن زهيرة قالت بذل :

ـــ انه تافه ، ولابد من أن تظهر سهام بمظهر لائق فى المدرسة .. وأنا أيضا .. وهو لا يكاد يفى بهذا أو ذاك .

ولاحظ أن شقيقته مستوصية بالصبر والاستسلام .. تسمع وتتجاهل .. تتلقى الأحجار صامتة واجمة .. تحذر كريمتها من الانفعال وادرك أن سهام متمردة نوعا ما . وقد نما الى اذنيه يوما صوت سهام وهى تقول لأمها :

ـــ متى انتذك وأنقذ نفسى ؟

فتقول الأم :

ـــ زوجة خالك لها عذرها ، ألم تكن لطيفة قبل أن نضطر للاقامة معها ؟

ـــ لكن خالى .. انه ممتاز ولكنه ضعيف !

ـــ ليس المفروض أن يكون ضابطا فى بيته أيضا .. الغلاء نار يا سهام كان الله فى عونه ..

واشد ما يزعج سهام هو موقف سناء من مستقبلها . قالت يوما لزهيرة على مسمع منه :

ـــ متى ما حصلت سهام على الثانوية العامة نعطيها أن تعمل ..

ولم تحر زهيرة جوابا أما سهام فقالت :

ـــ هذا يعنى ضياع مستقبلى ..

فقالت سناء بحدة :

ــ انك لا تدركين حقيقة الوضع ..

فقالت زهيرة :

ــ لم نتعجل الامور ؟

فقالت سناء بغضب :

ــ نحن نربى ثلاث بنات ، نحن نعانى ، عليك أن تفهمى ذلك .

فقالت زهيرة باستسلام :

ــ لتكن مشيئة الله .

وكان محمد فوزى ــ الضابط ــ يقول لنفسه ان القبيلة ممزقة .. ما منهن واحدة الا وهى ظالمة ومظلومة .. الحياة تبدو أحيانا لعنة طويلة . ويتذكر كم احب أخواته فيما مضى وخاصة هذه الاخت . وهى ليست أسوأ حظا منهن .. كلهن متعبات .. ووراء كل سرب من الذكور والاناث .

وتقول له زوجته سناء متحدية :

ــ عليك منذ الآن ان تستعد لزواج بناتك ..

فيتساءل ضاحكا :

ــ من الآن يا سناء ؟

ــ عليك أن تشترى شقة لكل منهن .

فيضحك ضحكة عالية ويهتف :

ــ أتحدى وزير الداخلية أن يفعل ذلك !

ــ ألا نسمع عن الذين يحتفلون بالزواج فى هيلتون وشيراتون ؟

ــ كما سمعت عن أغا خان رحمه الله ..

ويداعب أمل كبرى بناته ثم يتساءل :

ــ ماذا ندرى عن الغد ؟ !

## — ٢ —

عقب الغداء جلسوا فى الصالة ، وسأل محمد زوجته :

ـ ماذا عندكم من اخبار ؟

ساد صمت غامض كأن كل واحدة تدعو الأخرى للكلام ..

وقالت زهيرة :

ـ احدهم يطلب خطبة سهام !

ارتسم الاهتمام فى صفحة وجهه الأسمر . هذا الخبر قد يعنى نكتة سخيفة وقد يعد بفرج غير متوقع :

ـ من هو ؟

ـ من نفس الحى ، طالب بكلية العلوم ، يدعى رفعت حمدى ...

نكتة سخيفة لا فرج قريب كما يوحى به الجو . تساءل :

ـ ماذا تعرفون عنه أيضا ؟

فقالت زهيرة :

ـ اسرة طيبة ..

فقالت سناء :

ـ ولكنها فقيرة .

فقالت زهيرة :

ـ سيكون موظفا بعد ثلاثة أعوام وتكون سهام قد وجدت عملا أيضا .

فقالت سناء :

ـ الجملة ثلاثون جنيها على اكثر تقدير .

فتساءلت زهيرة :

ـ هل نتجاهل سعادتها ؟

فقال محمد فوزى متهربا :

ـ اعطونى فرصة للتحرى والاحاطة !

فقالت سناء :

ـ المسألة واضحة ، لن يملك مهرا ، لابد من جهاز ولو حجرة واحدة ، ثم لابد من شقة ، لسنا فى زمن العواطف ، وهذا ما يجب التفكير فيه من الآن ..

فقال محمد متحرجا :

ـ أعطونى فرصة ..

وعند ذاك قالت سهام بجفاء :

ـ فلنعتبر الموضوع منتهيا ..

فرمقها خالها بحنان وسألها :

ـ لا شك انك تعرفين أكثر مما نعرفه ؟

ـ ابدا ..

ـ اود أن اسمع رايك يا سهام ؟

ـ لقد أوضحت أبلة سناء الحقيقة .

فقالت سناء :

ـ ربنا يرزقك برجل قادر ، لا فائدة من الشباب ، هذا رأيى ..

فقال محمد مجاملا :

ـ المهم رأيك انت يا سهام !!

فقالت سهام بضيق واضح :

ـ لا رأى عندى يا خالى .

ـ العواطف وحدها لا تكفى ..

ـ نعم ..

ـ انى على استعداد لفعل ما تشيرين به !

فقالت سناء :

ـ سهام جميلة وسوف تسنح لها فرصة أطيب !

وسألته زهيرة :

ـ ما رأيك أنت يا أخى ؟

فتفكر قليلا ثم قال :

ـ رأيى أن تصارحه سهام بما سمعت وتسمع رأيه . .

فقالت سناء :

ـ معقول هذا الرأى .

هنا غادرت سهام الصالة الى حجرتها أما زهيرة فاغرورقت عيناها على رغمها .

سألتها سناء :

ـ هل أخطأنا ؟

وبادرها محمد :

ـ سأفعل ما تشيرين به .

فقالت زهيرة :

ـ لا خطأ هناك البتة ، ولكنى حزينة ، البنت راغبة فى التعليم ولن يتاح لها ذلك ، وراغبة فى الشباب ولن يكون نصيبها ، لا خطأ هناك ولكنى حزينة . .

ـ ٣ ـ

قرب مقعده من نافذة تطل على ميدان السكاكينى ليسترد أنفاسه . أى حظ هذا ؟ . انه غير راض عن نفسه ولا عن أى شىء . وحسن الا يكون شابا . انه زمن المودعين . ولكن . . وانقطعت أفكاره فجأة . استقرت عيناه فوق البستان . هذا الوجه يعرفه تماما . كان صاحب الوجه يتربع على الحشائش مسند الظهر

الى جذع نخلة . هو هو دون غيره . زعتر التورى . ماذا جاء به الى هنا ؟ . هل يتربص به الأحمق ؟ .. لا .. لا .. ثمة سبب آخر . شعره حليق . ما زال حنيقا . مفهوم . لن أمهله .

تناول قبعتة وغادر الشقة .

بعد دقيقة واحدة كان يقف أمام المتربع . وثب الرجل واقفا متهلل الوجه . طويل القامة ولكنه دون محمد بقبضة . وجهه نحيل طويل .. حاد البصر .. نابت شعر اللحية .. يرتدى بلوفر بنى قديم وبنطلونا رماديا رثا وصندلا . ابتسم عن أنياب قوية ملونة وهتف :

ــ أهلا بحضرة الضابط العظيم ..

فسأله محمد فوزى :

ــ متى خرجت من السجن ؟

ــ خرجت من السجن الذى دخلته بفضلك منذ شهر واحد .

ــ وماذا جاء بك الى هنا ؟

ــ جئت لأشم الهواء النقى ..

ــ اسمع يا ابن الثعلب ، ماذا جاء بك الى هنا ؟

فقال باسما :

ــ لماذا تكرهنى يا محمد بك ؟ .. لولاك ما كان الجن الأحمر نفسه يستطيع ضبطى متلبسا ويدخلنى السجن ، انك ضابط شريف ولكن ربنا أمر بالرحمة ، ولا تنس العلاقة الحميمة التى تجمع بين الضابط والنشال ، نحن معروفون لكم من قديم ، نحن نتبادل التحية ، وفى بعض حوادث النشل الحرجة تطالبنى برد الشىء الثمين فأسترده من صاحبه خدمة لك ، عظيم ، أين الرحمة اذن ؟ ..

فسأله بصرامة متجاهلا مرافعته :

ــ لماذا تجلس أمام مسكنى ؟

ــ صدقنى فانى أحب هذه الحديقة ..

ـــ زعتر ، حذار من المزاح ..
ـــ عظيم يا حضرة الضابط العظيم ، فلأبحث عن حديقة أخرى .
وتفحصه بدقة مليا ثم سأله :
ـــ كيف تحصل على رزقك ؟
ـــ حتى الساعة لا رزق لى .
ـــ هذا يعنى أنك متشرد ؟
ـــ كلا ..
ثم وهو يضحك :
ـــ لا مؤهل لى والحكومة لا تستخدم الا ذوى المؤهلات ..
فهتف به :
ـــ حذار من المزاح يا زعتر ..
فقال زعتر بجدية :
ـــ يلزمنى راسمال يا حضرة الضابط .
ـــ هذا ليس من شأنى ، واذا عثرت عليك مرة خرى بلا عمل فسوف أقبض عليك كمتشرد !
ـــ الله معنا ..
ـــ ادع الشيطان فهو الهك ..
ـــ أستغفر الله رب العالمين ..
ـــ أجبنى ماذا أنت فاعل ؟
فتنهد قائلا :
ـــ سأبحث عن عمل .
فقال بهدوء مخيف :
ـــ ابعد عن وجهى قبل أن أقرر القبض عليك ..
رفع زعتر يده تحية ومضى فى خطوات سريعة كأنه مشترك فى سباق المشى . وقف محمد فوزى يتبعه بعينيه حتى واراه شارع ابن خلدون .

— ٤٠ —

حظه من النجاح فى قسم الشرطة أضعاف حظه منه فى بيته ، انه ينتصر عادة على اللصوص والنشالين ولكنه ينهزم فى غشاء الهموم العائلية . وقد أبلغته زهيرة أن الشاب رفعت حمدى يرجو لقاءه فرحب بذلك . واقترحت أن تحضر سهام اللقاء فلم يمانع ، ولأنه لا يوجد فى الشقة مكان استقبال مناسب فقد تم اللقاء فى حديقة الشاى بحديقة الحيوان . وجده شابا معتدل القامة بشوش الوجه واضح الرجولة . قال لنفسه ومن واقع خبرته العريقة انه يوحى بالثقة ويمكن التفاهم معه . قال الشاب :

— انى معجب بشخصية آنسة سهام ، جادة ومحترمة ، وحضرتك رجل ذو سمعة طيبة جدا ..

فشكره محمد فواصل حديثه :

— ما يهم العلاقة المقدسة متوفر لدينا ..

فابتسم محمد قائلا :

— للأسف الشديد فانه تغطى ظروف جانبيه على الشروط الجوهرية ..

فقال الشاب بحماس العاشق :

— علينا أن نتغلب عليها ..

— هات ما عندك ..

— أمامى ثلاثة أعوام ، عملى مضمون فى التدريس أو المعامل .

— لعل التدريس أفضل فيما يقال .

وأمامى فرصة للعمل فى الخارج أيضا ..

ـ جميل ذلك ولكن يجب أن تعلم اننا لا نملك تكاليف الزواج ..
ـ أعرف ذلك ، المهم أن تكمل سهام تعليمها ..
ـ زدنى ايضاحا ..
ـ انها أيضا ترغب فى دراسة العلوم ، وستجد فرصة للعمل فى الخارج .
دخلت سناء زوجته فى اطار الجلسة فقال بحزم :
ـ ظروف حتمية توجب علينا توظيفها حال حصـــولها على الثانوية العامة فى نهاية العام ..
ـ الا يمكن ..
فقاطعه :
ـ غير ممكن . انى آسف ..
فتفكر رفعت مليا مغموما ثم قال :
ـ فلنعلن خطبتنا الآن ، ولنؤجل الهموم للمستقبل ..
وكان محمد يلحظ سهام من آن لآن ويقرأ موافقتها الصامتة ولكنه لم ير بدا من أن يقول :
ـ تصرف غير مقبول .
ـ لماذا ؟
ـ انه يعنى انتظارا طويلا وغير مضمون العواقب ..
ـ أرى انه ما دامت النية الطيبة متوفرة ، فالعقبات تذوب عادة ..
ـ لا أشاركك الرأى ، سهام كريمة شقيقتى ، ولا أريد أن أعلق مستقبلها على المجهول .
ـ انه ليس مجهولا .
ـ ولكن عندى راى افضل ..
ـ ما هو يا سيدى ؟
ـ أن يسير كل منكما فى سبيله دون التزام بعلاقة ما ، ان

شخصيا لا أحب الخطبة أن تطول بلا حدود ، فاذا وجدت ظروف ملائمة فى المستقبل فلا بأس من الموافقة عند ذاك !

فقال رفعت حمدى بقلق :

ـ قد يتقدم لها فى أثناء ذلك رجل ما .

ـ اصارحك بأننى سأعمل ما أراه فى صالحها و ..

وتوقف متمهلا ثم قال عادلا عما كان فى نيته قوله :

ـ ما أراه فى صالحها ..

فقال رفعت بهدوء :

ـ أظن من الانصاف احترام رأيها ..

ـ طبعا .. طبعا ..

وساد صمت مثقل بالخيبة .. وكانت سحب الخريف منبسطة فلم يهبط من الشمس شعاع واحد غير أن البرودة كانت وانية محتملة .. وابتسم محمد فوزى وقال :

ـ هناك رجاء لا مفر منه ..

فنظر اليه الشاب مستفهما فقال بحزم لا يجد مشقة فى دعوته فى أى وقت :

ـ الا يقع بينكما فى الهدنة المقترحة لقاء من أى نوع كان !

لحظ الرجل سهام فى طريق العودة مرات .. قال لنفسه انها ستجهش فى البكاء حالما تنفرد بنفسها .. لعن نفسه .. ولعن أشياء كثيرة ..

ـ ٥ ـ

كان منفردا بنفسه فى مكتبه عندما استأذن زغلول رأفت فى مقابلته .. نهض باهتمام فاستقبله عند الباب ، شد على يده باحترام ، وأجلسه أمام مكتبه وهو يقول :

ــ شرفت يا افندم !

الرجل فى الأربعين ، ولكنه يتمتع بحيوية شاب فى العشرين .. بدين مع ميل الى القصر ، كبير القسمات ، داكن السمرة .. معروف أنه رجل أعمال . وأنه ذو صلات ، ويتردد اسمه أحيانا عند التبرع لمشروعات خيرية فى الحى .

قال الرجل بصوت مبحوح قليلا :

ــ كان يجب أن نتعارف من قديم فأنت ضابط ذو سمعة هائلة ..

ــ كانت ستكون فرصة سعيدة لمعرفة وجيه من محبى الخير ..

ــ شكرا ، ها هى الفرصة ولكنها ليست سعيدة ..

وضحك فابتسم محمد فوزى وقال :

ــ حادث سخيف ..

ــ ثمنه عشرة آلاف ..

وقدم سيجارة فلما اعتذر لعدم التدخين اشعلها وقال :

ــ نشلت حافظة النقود ، بمائة جنيه غير الفكة ، ولكن توجد بها علاقة مفاتيح ذهبية وذات فص من الماس ..

فتساءل محمد :

ــ كيف ينشل رجل مثلك ؟ .. لأبد أنك كنت فى حفل .. ؟

ــ هو ذلك .. فى جامع القبة الفداوية ..

ــ آه ...

ــ أعتقد انه ليس من الميسور بيعه اذا وزعنا نشرة بأوصافه ..

ــ سنفعل ذلك على سبيل الحيطة . ولكن النشال يبيعه بثمن بخس لمن يصادفه ..

فقال الرجل مبتسما :

ــ انه عزيز لأسباب شخصية ، ما نسبة الأمل فى استرداده ؟

فقال محمد فوزى باسما ابتسامة أسيفة :

ــ لا سبيل الى نشال الا ان ضبط متلبسا ، نحن نعرفهم ولكن

من أين لنا الدليل ، وثمة تنبيهـــات متلاحقة بوجوب احـــترام القانون ...

ــ اذن اقول عليه العوض ؟

ــ توجد وسيلة مجربة فى الاحوال النادرة . أعطنى فرصة أربع وعشرين ساعة ..

ــ واذا لم تنفع ؟

ــ سنسير فى الاجراءات العقيمة .

ــ لكم ولا شك وسائل سحرية اقرا عن اخبارها احيانا فى الصحف ..

## ــ ٦ ــ

أمر الضـابط باستدعاء زعتر النورى .. جميـــع المخبرين يعرفون مقهى النشالين المعروف بمقهى حنش فى خلاء الحدائق فيما تتصل بالحقول ، وهو الذى اطلق عليه المعلم حنش أسم « مقهى الأمراء » بعد الثورة .. ودخل زعتر حجرة الضـابط تبوح عيناه الحادتان بنظرة تلقه متوجسة وهو يقول :

ــ ستجعلنى لعبتك يا حضرة الضـابط ؟

لم يرفع راسه عن اوراق بين يديه تركه وحده فى دوامة التوقعات المزعجة قال زعتر :

ــ أعطنى فرصة ..

نظر اليه ببرود وساله :

ــ أعتقد انك مصمم على تغيير حياتك ، قد أصبحت من المصلين !

ـ نعم ؟ !

ـ رآك البعض وانت تؤدى فريضة الصلاة .

ـ أنا ما دخلت جامعا قط طيلة حياتى !

ـ جامع القبة الفداوية .

ـ سيدى الضابط أنا لا افهم شيئا ..

ـ ولا أنا !

ـ انا تحت أمرك ..

قال بهدوء :

ـ اريد علاقة المفاتيح !

تراجع رأسه قليلا . اختفت نظرة القلق . أدرك انه مطلوب لمفاوضة . تشجع قائلا :

ـ اى علاقة مفاتيح ؟

ـ نحن نفهم بعضنا يا زعتر ..

ـ مذ خرجت من السجن وانا اعيش عالة على المعلم حنش ..

ـ نشل حافظة الوجيه زغلول رافت عمل لا يقدم عليه سواك ..

فابتسم زعتر وقال :

ـ انك تطلب مساعدتى ..

ـ حذار من الغرور .

ـ لقد قدمت أكثر من خدمة ولكن صدرى ينقبض فى جو القسم ..

ـ لا تخش شيئا . انك تعرف ما تعنيه كلمتى !

ـ كلام رجال .

ـ نعم يا ابن الثعلب ..

ـ عظيم .. لنبدأ من الأول ، ماذا تريد ؟

ــ علاقة رافت زغلول ..
ــ لم أنشلها .
ــ لا أصدقك .
ــ أقسم لك بشرفى .
فضحك محمد فوزى قائلا :
ــ يا ابن الثعلب .
ــ اقسم لك بشرفك انت !
قال الضابط بحدة :
ــ عليك اللعنة . انعرف ما يعنيه هذا القسم ؟
ــ أعرفه ..
ــ فمن نشلها ؟
فهز راسه قائلا :
ــ سؤال غير جدير بذكائك ..
ــ عندك علم بالموضوع ؟
ــ غير جدير بذكائك أيضا ؟
فنظر اليه مقطبا وقد اكفهر وجهه .
قال زعتر :
ــ يلزمنى وقت للعمل ..
ــ متى تحضرها لى ؟
ــ لا أدرى ، وربما ضاعت الى الأبد ..
ــ اسمع يا ابن الثعلب ..
ــ أعدك باننى سأبذل جهدى .
ــ فى ظرف يوم !
ــ على الله الجبر .
تمهل الضابط قليلا ثم قال :
ــ ربما نالك خير ، الرجل ثرى لدرجة الخيال ..

قال زعتر بحماس :
ــ لا يهمنى المال ، ما يهمنى حقا هو خدمتك !
تمتم محمد فوزى باسما :
ــ يا ابن الثعلب ..

## ــ ٧ ــ

المفاجأة أن زعتر طرق باب الضابط عصر اليوم التالى . كانت سهام هى التى فتحت الباب وهى التى ابلغت خالها بقدوم زائر يدعى زعتر . انفعل محمد انفعالا شديداً ولعنه الف لعنة . غير انه اضطر لاستقباله ومجالسته فى الصالة . بل وقدم له القهوة . بدأ زعتر مفعما بالحيوية والسعادة . قال :
ــ لا تؤاخذنى على حضورى الى بيتك اذ اننى أكره القسم .
ــ ماذا فعلت .. ؟
دس يده فى جيبه فاستخرج منه العلاقة والمحفظة . تمتم محمد :
ــ والنقود أيضا ؟
ــ عن آخر مليم ، اذا لم تكن فى الاتفاق فدعها لى ..
فقال محمد مداعبا لأول مرة :
ــ الغنى غنى النفس !
فقال الآخر بتسليم :
ــ أمرك .
ــ من الذى نشلها يا زعتر ؟
ــ لماذا تسأل يا حضرة الضابط ؟
ــ العلم بالشىء ولا الجهل به .
فابتسم الآخر قائلا :

— لم أخن زميلا فى حياتى ..
— حقا ؟! .. يالك من رجل عظيم فى الشر !
فضحك زعتر واشتد لمعان عينيه وقال :
— وشرف ربنا لولا الحظ السيىء ..
— هه .. لكنت من رجال الأمن ؟
— كلا .. لا يعجبنى عملك ..
— حقا ؟ .. ولمه ؟
— أقول لك ، انك تطارد اللصوص لحساب الحكومة بينما الحكومة أكبر لص فى الدولة !
— يا ابن الثعلب ..
— انكم تكرهون قول الحق يا محمد بك ..
— هه .. اذن ماذا تفضل من المهن ؟
فتفكر قليلا وقال :
— أقرب عمل لعملى الراهن أن أكون مدير بنك !
فلم يتمالك محمد فوزى نفسه من الضحك ، فقال زعتر :
— أريد رغيفا محشوا باللحم المحمر ..
— طلب غير هين ولكن سيكون لك ما تريد ..
فقال زعتر وهو يتنهد :
— ورغم العيش والملح سترجعنى الى السجن غدا اذا وقعت فى قبضتك !
— طبعا .. لا مفر من ذلك .
— الأمر لله .. من صاحب العلاقة ؟
— زغلول رأفت من رجال الأعمال والبر ..
— رجل أعمال ؟ .. طبعا لص ولكن ما تخصصه ؟
— كل الناس عندك لصوص !
— اسمع يا محمد بك .. ستندم ذات يوم على تمسكك بالشرف ..

ــ على فكرة يجب أن ازف اليه البشرى ..
وادار قرص التليفون ..
ــ زغلول بك رافت ؟
ــ ...
ــ مبارك .. العلاقة والحافظة معى ..
ــ ...
ــ وهو ايضا موجود .
ــ ...
ــ ولكن .. فكر قليلا .. انه قادر على ان يخطف الكحل من العين ..
ــ ...
ــ الى اللقاء يا اكسلانس ..
والتفت نحو زعتر قائلا :
ــ انه مصمم على رؤيتك ...
فقال زعتر باهتمام :
ــ تحت أمره .
ــ كن عاقلا .. وكن حكيما أيضا فى الافادة مما يجود به عليك ..
ــ طبعا .. ولن انسى المالك الشرعى للمحفظة ..
ــ المالك الشرعى ؟
ــ الذى نشلها يا محمد بك ..
فابتسم الضابط وقال :
ــ احذر أن تجعلنى أندم على الموافقة . الحظ يفتح لك بابا شريفا يا زعتر .. والآن دعنى أعد لك الرغيف ..
ولكن زعتر نهض فى لهفة وقال :
ــ لا تضيع الوقت : شكرا ، بنا الى الرجل ، وسوف أشترى اللحم بنقودى الحلال لأول مرة ..

# — ٨ —

مضت حياة الضابط بهمومها الشخصية وتوفيقها العــام .
البيت يسوده غالبا التوتر وقد استغرقت سهام فى دراستها ولكن
فى تعاسة ملحوظة . من يدرى فقد ينتصر الحب فى النهاية ، سيجد
لسهام عملا فى نهاية العام وسينضم مرتبها الى معاش أمها .
وربما حقق رفعت حمدى حلمه ، وهاجرت الأسرة الجديدة —
سهام ، رفعت ، زهيرة — الى الخارج مجبورة الخاطر . عند
ذاك يطمئن على أخته وتحظى أسرته بالاستقلال وتستكن أعصاب
سناء زوجته . ما أجمل الأحلام الملطفة للآلام !

وحصلت سهام على الثانوية العامة وراح يسعى لالحاقها بعمل
ولكن التوفيق فى ذلك بدا بعيد المنــــال . وفى ذلك الوقت جاءه
المخبرون بنبأ مثير وهو أن مقهى « الأمراء » أو مقهى النشالين
قد خلا منهم . وكان قد لاحظ قلة ملموسة فى حوادث النشل ،
حتى مضت أشهر لم يتلق فيها بلاغا واحدا . وأمر بالبحث عن
مجمعهم الجديد ولكن لم يعثر لهم احد على اثر . ولم يجد أحد
من المخبرين عند المعلم حنش صاحب المقهى تفسيرا ، وفسره هو
على هواه فقال انهم ضاقوا بصرامته ويقظة المخبرين فهاجروا
من الحى . وسر المأمور بتلك النتيجة غير المتوقعة وهنأ محمد
فوزى عليها .

***

وكان يغادر نادى الشرطة ذات يوم عندما رأى شابا وشابة
فى غاية الفخامة ، يغادران سيارة ، ويتجهان نحو برج القاهرة .
نال من الشاب نظرة عابرة وهو يمضى فى طريقه ، ولكنها لم

فتلاشى كما توقع . التفت وراءه فرأى الشخصين يصعدان سلم البرج . جعل يتأملهما حتى غابا فى المدخل .

ما معنى هذا ؟ هل سبق له أن رأى هذا الشاب ؟ لقد التقت عيناهما لحظة خاطفة ، لم تكن عينا الآخر محايدتين . أم هكذا خيل اليه ؟ . لمح فيهما معنى ما . حياة من نوع ما تشى بنوع من المعرفة . وضرب الأرض بقدمه . مستحيل . توقف عن المشى . استدار متجها نحو البرج . تفحص الكافتيريا . ثم صعد الى الشرفة العليا . رأى الشخصين يطلان على القاهرة ونسمة عليلة من نسمات الصيف تداعبهما . اقترب حتى وقف وراءهما . سمع الشاب يقول للشابة بصوت يسمعه هو كأنما هو المقصود به :

— ألم أقل لك ان له عينين لا تخدعان ؟

فهتف محمد فوزى :

— زعتر النورى ..

فاستدار نحوه باسما عن أسنان بيضاء وهو يقول محتجا :

— محمد زغلول من فضلك ؟

وأشار الى الفتاة قائلا :

— صديقتى بهية ..

فتمتم الضابط :

— جلجلة !

— قلت بهية من فضلك ..

جعل ينظر اليهما بريبة فضحك زعتر وقال :

— بهية اسم أختارته بنفسها أما أنا فكونت اسمى الجديد من اسمك « محمد » واسم البك زغلول ، بصفتكما صاحبى الفضل الأول ..

فقطب محمد فوزى متسائلا :

— ما معنى هذا ؟

— عن أى شىء تسأل ؟

ــ أنت تفهم ، ما أعنيه تماما يا زعتر ..

وضح له عن قرب أن فخامة الملابس وصقل الوجه والأطراف لم تغط تماما على الابتذال فى الحركة والهيئة ، وتقدمت بهيئة ( جنجلة ) خطوة بجمالها الشعبى الصارخ وتساءلت محتجة :

ــ ماذا فعلنا لكى تحقق معنا ؟

وسأله زعتر النورى بشىء من العظمة :

ــ بأى حق تتعرض لنا يا حضرة الضابط ؟

فقال الضابط :

ــ أريد أن أكتشف الجريمة المستترة وراء هذا التغيير .

ــ انك تخاطب رجلا من رجال الأعمال . وهذه امرأة من نساء الأعمال ..

ــ أعمال ؟

ــ نحن نعمل فى ضوء النهار ..

ــ لن يخفى سر .

فضحك زعتر وقال :

ــ يؤسفنى أن يكون أول لقاء لنا على هذا النحو ، لنا ماض مشترك ، وفضلك على عميم ، أنت الذى سلمتنى مفتاح السعادة ، فماذا يثيرك على الآن ؟ . دعنى أدعوك لفنجان شاى .. وليطمئن قلبك .. وهاك بطاقتى الشخصية اذا شئت ..

فقال محمد بذهول :

ــ انه عام واحد .

ــ ما قيمة الزمن ؟ .. صفقة واحدة تحولك من دنيا الى دنيا ، الفضل لك ولزغلول رأفت أيضا ، مازلت أعد من رجاله . ولى أيضا رجالى ..

ــ تهريب ؟ !

ــ رجعنا نردد ألفاظا لا معنى لها ، اسمها الوحيد «تجارة» .. حتى لو أصررت على الألفاظ الميرى فربما كانت تهريبا قبل أشهر

لكننا اليوم فى عصر الانفتاح ، لا تهريب ولا دياولو .. تفضل بزيارتنا .. وانظر الى تلميذك بنفسك ..

فقال الضابط ببطء :

— زعتر ..

فقاطعه بسرعة :

— محمد زغلول من فضلك ..

— انت تعرف من هو محمد فوزى .

— طبعا .. اعرف انك ستتحرى .. اعرف انك تحلم بارجاعى الى السجن .. ولكن الحقيقة ستتكشف لك .. ستعرف أننى رجل شريف .. آمل ان نكون اصدقاء .. لست دون زغلول رأفت استحقاقا لذلك ..

وقالت بهية بدلال :

— وأنا ايضا اريدك أن تكون صديقا لى !

وتساءل زعتر :

— البضائع المهربة كانت تملأ الطرقات فلم لم تصادروها ؟ .. لم لم تقبضوا على مروجيها ؟ .. كنا نجول فى الميدان يحرسنا رجال الامن .. ووراء كل واحد منا شخص ذو مقام ... انتهى عصر المغامرة وما نحن اليوم الا تجار شرفاء .. ثم انك صاحب الفضل ..

— اضجرتنى بقولك هذا ..

— لم يغضبك قول الحق ؟ .. أنا ايضا نشلت ذات يوم ولكنى استرددت مالى بقوتى الذاتية ، لم الجأ اليك لتسترد بقوتك مال لص كبير من نشال مسكين .

وهنفت بهية :

— صديقك زغلول رأفت لص عظيم ..

فانتهرها زعتر قائلا :

ـ اقطعى لسانك ؟ انه بحكم القانون الجديد تاجر عظيم !
فقالت مخاطبة محمد فوزى :
ـ نحن ندعوك الى فنجان شاى .
فقطب الضابط متحولا عنهما فقال له زعتر :
ـ يؤسفنى الا نلبى دعوتنا ، ولكن لا تبدد قوتك فى لاشىء ..

## ـ ٩ ـ

اقترب من الخلاء المشارف للحقول فبدى له مقهى « الأمراء » فى عزلته ورثاثته . حجرة حجرية يتقدمها فناء ترابى مسور بالصبار . بدا كالخالى بعد تخلى زبائنه الأصليين عنه . وقف فى الفناء المهجور فلمحه الحنش ـ العجوز الأحدب ـ وسرعان ما هرع اليه مرحبا وقلقا فى آن . جلس محمد وهو يشير للكرسى المقابل داعيا العجوز للجلوس وهو يقول :

ـ لا تقدم شيئا ، لى معك حديث يا حنش .

جلس الحنش ، لم يزايله القلق . قال :

ـ لم ارك منذ زمن ، آخر مرة كنا فى عاشوراء ..

ـ اذكر ذلك .. ولكن اين أصحابنا ؟

أخذ يطمئن نوعا ما فقال :

ـ ذهبوا ولم يرجعوا .. اختفوا تماما ..

رماه بنظرة طويلة وقال :

ـ عرفت ذلك ، ولكن اين ذهبوا يا حنش ؟

ـ الله وحده يعلم .

ـ ولكنك تدرى اشياء ولا شك ..

ـ هل وقعت حوادث نشل ؟

ـ كلا .

ــ ماذا يهمك من أمرهم بعد ذلك ؟
ــ هذا شأنى يا حنش .
ــ والله ..
فقاطعه بنبرة آمرة :
ــ هات ما عندك ..
اطمأن العجوز تماما وشعر بأهميته ، قال :
ــ لقد اقلعوا عن النشل . غدا سيختفى اللصوص جميعا ..
ــ هات ما عندك ..
فضحك العجوز عن فم خال وقال :
ــ أنت السبب يا حضرة الضابط ..
ــ ذاك بالنسبة لزعتر النورى ، انى اسأل عن الآخرين ..
ــ قيل ان زعتر ذهب للقاء الرجل الذى نشله .
ــ اعرف ذلك طبعا .
ــ واذا بالحال يتغير تماما ، لم يعد عتريس النورى الينا .. انتظروا ، انتظروا طويلا ولكنه لم يعد وكادت جلجلة تجن ..
ــ ثم ؟
ــ ظنوا انه قبض عليه .. اخذو يتناسونه .. حتى جلجلة بدأت تستجيب لعشاق آخرين .. حتى كان يوم ..
وسكت الرجل ليشحن الضابط بالشوق . فقال هذا باستياء :
ــ استمر يا عجوز .
ــ كانوا فى الداخل يقامرون حين دخل فجأة سمسون العفش مضطربا بفرحة طاغية ، لوح لهم بحافظة نقود فاخرة وتساءل : « لمن هذه ؟ » . فأجابه أحدهم متفكها : للسفير الأمريكى ، ولكنه قال بهدوء . انه عتريس النورى ، ملكهم ذهول شامل . اقبلوا نحوه وفى مقدمتهم جلجلة ، أقسم لهم على صدقه . أين هو ، لماذا لم يعد ، وكيف نشلته ، وراح الرجل يقول : « رأيته فى ميدان رمسيس ، كان يغادر سيارة . ليس عتريس الزمان الأول ،

شخص آخر تماما ، اى وجاهة وابهة . شككت فيه طويلا حتى عرفت مشيته وسمعت صوته . انه عتريس النورى . ماذا حصل له ؟ كل شىء تغير حتى جلده . تغير لونه ايضا كأنه نقع فى الماء عاما . هل استولى على ثروة الرجل الذى دعاه ليكافئه ؟ هل نشل البنك الأهلى ، وهو يقصد دكان قطع غيار ، انه محترم ابن الدائخة . فى الحال رسمت خطة لنشله ، نشلته فى الدكان . هذه هى الحكاية . وصاحت جلجلة : الخائن ابن الخائنة . أين يقيم ؟ ماذا يعمل ؟ ولكن سمسمون العفش لم يكن لديه مزيد . وصاحت جلجلة : لابد من العثور عليه .. وأكثر من صوت صاح : لن يفلت ولو اختبأ فى جبال الواق . وفيما هم يتبادلون الرأى اذ بدا عتريس النورى فى مدخل الحجرة وهو يرمقهم بنظرة ثقيلة محتدمة بالسباب والسخرية .

وسكت العجوز ليستريح ويسعل ما شاء له السعال فصبر محمد فوزى حتى استطرد :

ــ دخل منفوخا بالأبهة . تبادلوا النظرات فى صمت هادىء . حتى خرقته جلجلة متسائلة : « من سعادة الباشا القادم ؟ » . فقال بهدوء : الحافظة أولا ثم نتكلم . فسأله سمسمون العفش : عن أى حافظة تتكلم ؟ فثقبه بنظرة من عينيه الحادتين وقال : هو انت يا ابن الخائنة ! قلبى قال لى .. فقالت جلجلة : « قلب المؤمن » . فقال زعتر لسمسون : « الحافظة واعتذر لعمك » .

ــ أنت خائن !

ــ زعتر خائن !

ــ اين كنت ؟ .. تقطعنا للنقود .. من اين لك هذا ؟

ــ العمل الشريف !

هزت جلجلة وسطها وهتفت :

ــ ادعو له .. ادعو له ..

ــ العمل الشريف .. عمل الناس الأجلاء .. هات الحافظة ..

ــ أقسم لك بشرف ..

قاطعه مقهقها :

ــ احتفظ بشرفك وهات الحافظة .

فقال سمسون بتسليم :

ــ لى مكافأة !

ــ دع ذلك للنساء . هات الحافظة لنتكلم فى المعبد !

فرمى بها اليه سمسون وهو يقول :

ــ نار فى جثة الخائن ..

ــ الله يسامحك .. كان فى خطتى ان أزوركم فى الوقت المناسب ..

فتساءلت جلجلة :

ــ وما الوقت المناسب ؟

ــ هو وقت الخير ، لا يتقدم ولا يتأخر .

ــ ومتى يجىء ؟

ــ عما قريب جدا .

ــ ما هو العمل ؟

ــ تجارة .. بضائع تجىء من أوروبا ..

ــ تهريب ؟ !

ــ الصبر .. موعدنا بعد شهر واحد ..

وفى الميعاد يا حضرة الضابط ذهبوا جميعا ولم يرجع منهم احد .

ترامقا صامتين ، ثم تساءل الضابط :

ــ اين هم الآن ؟

فقال العجوز بقلق :

ــ انهم خارج منطقتك ..

ــ نعم .. هل تعلمنى واجبى ؟ ، اين هم الآن ؟

ــ انهم يعملون فى ضوء النهار وتحت حماية الشرطة ..

ــ الم اقل لك انك تعرف أشياء كثيرة ؟

فضحك العجوز وتساءل :

ــ الم تسمع عن سوق ليبيا ؟

ــ كلا .

ــ انه فى القلعة يا حضرة الضابط .

## ـ ١٠ ـ

يموج سوق ليبيا بالخلق والحركة والأصوات . يغمره ضوء الكلوبات الأحمر المدلاة من رءوس أعمدة مغروسة فى الأركان . أمواج تتلاطم من النساء والرجال مصبوغة الوجوه بالأضواء المركزة . قال الضابط انهم اختاروا مكانا مناسبا بين القلعة والمساقى القديمة . وتابع بعينيه الأكشاك القائمة فى محيط السوق مكتظة بالصابون والقوارير والعلب والبرطمانات والأدوات الكهربائية والالكترونية . وراء كل كشك صفت الفريجيديرات والسخانات ومكيفات الهواء والنجف فى سرداقات ، بهر الضابط بألوان البضائع . بجنون البيع والشراء . بالمهد الذى يلد أناسا جددا . ها هى وجوه العصابة التى اختص دهرا بمراقبتها . خلقوا من جديد ، رغم انهم فى ملابس العمل ، البلوفر والبنطلون ؟ فقد خلقوا من جديد . انهم يرمقونه بدهشة لا تخلو من قلق ثم ينسونه تماما . الشرطة تحفظ الأمن . والنشالون أصواتهم مرتفعة . سيختفى اللصوص ويستغنى بالتالى عن رجال الأمن !. ما علاقة زغلول رأفت بهذا كله ؟ أصبح هؤلاء من الأغنياء أما هو وأضرابه فيغوصون فى غمار الفقراء . ها هو زعتر ، محمد زغلول أستغفر الله . معه جلجلة فى كشك واحد . وجم الرجل عندما رآه . ها هو يقبل نحوه مرحا مرحبا .

ـــ أهلا محمد بك .. خطوة عزيزة !

ـــ أهلا بك ..

ـــ انتقلت الى منطقتنا ؟

ـــ كلا .

ـــ جئت للشراء ؟

ـــ للفرجة .

فتحت له جلجلة علبة كوكاكولا مستوردة وقدمتها مبتسمة ، قال :

ـــ شكرا ، لا احبها ..

تناولها زعتر وراح يشرب قائلا :

ـــ انى أعرف ما يحرجك ! .. لعلك سررت بما ترى ، تاب الله علينا !

ـــ حقا ؟ .. من النشل الى التهريب ؟

فضحك زعتر قائلا :

ـــ عملنا مشروع ، انظر الى الشرطة ، نحن تجار ، أناس يحتجون اذا الفقراء اغتنوا ..

ـــ الحال معدن ..

ـــ سمسون دفع أمس خلو رجل لا يستهان به وأصبح من سكان المنيل !

وقالت جلجلة :

ـــ عندنا بضائع تجنن .. شاهد بنفسك ..

فقال فى هدوء :

ـــ لست فى حاجة الى شىء ..

فسأله زعتر بقلق :

ـــ لم شرفتنا ؟

ـــ العلم بالشىء ولا الجهل به ..

ـــ اسمع يا حضرة الضابط ، ما كان تهريبا أصبح بفضل الانفتاح تجارة مشروعة ..

فضحك محمد فوزى ولم ينبس فواصل زعتر :

ـــ سيكون ابناؤنا ضباطا ووكلاء نيابة ..

ـــ ولم ترجعهم الى الفقر ؟

فتمادى الآخر فى حماسة قائلا :

ـــ ماذا كان الأمراء والباشـــوات قبل أن يصـــيروا أمراء وباشوات ؟ .. كانوا لصوصا ، فنحن أصل الوجود يا محمد بك .. ولكن اناسا يكرهون أن يفعل ابناء الشعب مثل الأمراء والباشوات ..

ـــ يا لها من آراء !

ـــ دعنا من هذا كله .. الا يلزمك فريجيدير ؟ .. معصرة ؟ .. ريكوردر ؟ .. مقويات ؛ كل شىء تحت أمرك ، ومن غير فلوس ..

ـــ انك لكريم ولكنى لا اريد شيئا ..

فمدت جلجلة عنقها بدلال واغراء وتساءلت :

ـــ الا يعجبك شىء ؟

فتساءل الضابط :

ـــ هل تزوجتما ؟

فقال زعتر :

ـــ كلا .. انها تهددنى بالقتل ..

ـــ لم ؟

ـــ رايى انه يجب أن اتزوج من اسرة !.. وعليها أن تبحث هى أيضا عن عريس لقطة ..

قال محمد فوزى لنفسه انها جميلة ، حتى ابتذالها جذاب ، ليس فى بيته من يضارعها فى جمالها الا سهام .

وقالت بهية « جلجلة » :

ـ انه وغد ويستحق الاعدام ..
فقال الضابط :
ـ انها لمشكلة ..
فقالت جلجلة :
ـ لا اهمية لذلك ، المهم ان نقدم لك هدية ..
ـ شكرا ، لا عودة الى هذا الحديث .
فقال زعتر :
ـ صدقنى لا يقضى بالفقر على الانسان الا عقله .
وقالت له جلجلة :
ـ لو عثرت على رجل قوى مثلك لزهدت فورا فى هذا الوغد ..
فتجاهل قولها ضاغطا تأثره الباطنى .
فعادت تقول :
ـ اذا لم تقبل هدية مستوردة فخذنى أنا هدية محلية .. ما رايك ؟
فقال زعتر :
ـ وتهدينى حلا لمشكلتى معها ..
فسأله محمد فوزى :
ـ هل صادفتك متاعب أيام التهريب ؟
ـ لا تكاد تذكر ، كل كشك يكمن وراءه رجل هام يحميه من بعيد ..
ـ لا تبالغ .
ـ هى الحقيقة ، انت نفسك رجعت الى زغلول رأفت ماله الضائع ..
ـ رجل لا غبار عليه ؟
ـ صدقنى ليس فى ثروته مليم حلال واحد ..
ـ ماذا فعل معك ؟

ــ وظفنى عنده فى أعمال تهريب تحتاج الى جراة خاصة ، تعلمت أشياء واشياء ، استعملت بدورى العصابة . اليوم العمل كله مشروع ..

وسألته جلجلة :

ــ هل لو كنت فى منطقتنا أيام التهريب كنت قبضت علينا ؟

ــ طبعا .

ــ رغم الحماية ؟

ــ بلا تردد .

فقال زعتر ضاحكا :

ــ يعملها ولو تعرض للنفى ، أنا عارفه .

فقالت جلجلة :

ــ يا لك من حبيب قاس ، وهل كنت تقبض على زغلول رأفت ؟

ــ ربما قبلكم ..

فثنت رقبتها فى مرح وقالت :

ــ ستصبح المدينة بلا لصوص ، ماذا تريد أكثر من ذلك ؟

ــ أو ستصبح كلها لصوصا ..

ــ النتيجة واحدة .

وقال زعتر بحرارة :

ــ بودى أن أغرقكَ فى السعادة !

فتمتم فى فتور :

ــ شكرا ..

تصافحا ، هتفت جلجلة مخاطبة زعتر :

ــ قل له انى مستعدة أن أوصله بسيارتى الى أى مكان ..

لوح لهما مودعا ومضى ..

ما معنى ذلك ؟ ها هو العبث يتأبط ذراعه متدثرا بالبسمات الحمراء . لاحظ الضابط ان صوت مرافقه مبحوح مثل صوت حفش . سأله عن السبب فأجاب بأن صوته بح من كثرة الخطب ، ولأنه يؤذن كثيرا داعيا المصلين الى سوق ليبيا . واشار الى الشجرة الضخمة تتوسط الميدان الصغير فى شارع البرج وقال للضابط :

ــ اى ضخامة ، ما عمرها ؟ ستعيش بعدك طويلا ، انها لا تعرف القيود ، تحيا حياة مطلقة .

واشار ايضا الى كلبين يتلاعبان وتمتم :

ــ يعيشان مثل الشجرة ، حياة مطلقة ، لا يعرفان الضمير ولا يخافان الموت ..

فقال الضابط :

ــ ولكنه الانسان ، وحده .

ــ حماقة مقنعة بالجلال !

ــ الجلال !

ــ هو السجن .

ــ لكنه الانسان ، لا يعرف ذلك الا الانسان ، الا يعنى ذلك شيئا ؟

ــ لا يعنى شيئا .

ــ هو وحده .

ــ الانسان الحقيقى مثل الشجرة ، مثل الكلبين ..

ــ انه وحده ، هنا يكمن سره .

ــ هبك مشرفا على الغرق ولا نجاة لك الا بالتضحية بآخر ، ماذا تفعل ؟

ــ ساعة الغرق يسيطر الحيوان .

ــ هذه هى الحياة ..

ــ كلا ، انها جريمة يجب التكفير عنها ..

ــ هل تعرف الجريمة بالفطرة .

ــ كفى ، على أحدنا أن يتلاشى ..

* * *

تهبط النقود بلا حساب فى ميدان ليبيا . السماء تمطر هدايا . بالوقاحة تصان الهيبة . طيب ، ها قد تغير كل شىء . ستسيطر على الحياة بدل أن تسيطر هى عليك . تتحسن علاقات الكائنات . تستقل سناء ببيتها ثم تنتقل الى بيت أفضل ، يتورد مستقبل أمل وسهير ولمياء . تغدق البركة على سهام وزهيرة . تنطلق سيارة بالأسرة يوم العطلة . الفضلاء يحلمون بالرذيلة ، الأرذال يحلمون بالفضيلة .

***

كان بالنادى عندما رأى زغلول رأفت قادما نحوه . انتحى به جانبا فجلسا فى جانب من الحديقة .

ــ فقدت شيئا ثمينا ؟

فقال زغلول باهتمام :

ــ كلا ، الأمر أجل ..

ــ ماذا فعلت بزعتر ؟

ــ كافأته بعمل شريف مربح .. ولكنه طماع ..

فضحك محمد فوزى وسأله :

ــ ما عدد الأعمال الشريفة فى نظرك ..

فقال باهتمام متزايد :

ــ محمد بك .. انى هنا لغرض هام .. انك رجل شريف .
صاحب جميل .. حسن .. على أن أرد الجميل ..

ــ خير ؟

ــ الأمر يتعلق بزعتر .

ــ سرقك ؟

ــ كلا .. لكنه شرع فى سرقتك انت .

ــ ماذا تعنى ؟

ــ الأمر يتعلق بكريمة اختك ..

قطب محمد فى حيرة شديدة :

ــ كريمة أختى ؟

ــ انه يحوم حولها .. يحوم حولها باعتباره الوجيه محمد زغلول ..

تغير وجهه تماما . ارتفق الخوان بساعديه متسائلا :

ــ ماذا ؟

ــ انى على يقين مما أقول ..

ــ كريمة شقيقتى آية فى العقل والاخلاق ..

ــ لم اقل خلاف ذلك ..

ــ لو تعرض لها باساءة لشكته الى ..

ــ لا يتعرض لها بما يسوء .. انه يحوم حولها كرجل شريف !

ــ الوغد .

ــ خفت أن تخدع الفتاة به ونحن لا نملك قلوبنا .

ــ شكرا لك تحذيرى .

## — ١٢ —

بدا محمد فوزى كئيبا متجهما . من اول نظرة لاحظت ذلك سناء وزهيرة وسهام اما الصغيرات فيئسن من ملاعبته . ونطق بنبرة مفعمة بالغضب :

ـــ سهام .

نظرت اليه الفتاة بذهول فقال :

ـــ ما هذا الذى يقال عنك ؟

وسكت من شدة الانفعال ثم قال بازدراء :

ـــ عن رجل له مظهر الوجهاء يدعى أن اسمه محمد زغلول . .

فقالت زهيرة :

ـــ لا شيء يستحق الغضب يا أخى .

وتمتمت سناء زوجته :

ـــ فعلا .

فتساءل بحدة :

ـــ آخر من يعلم ؟

فقالت سناء :

ـــ انه رجل غنى . غرضه شريف ، لم تخف سهام عنا شيئا .

قالت زهيرة :

ـــ لم أرد أن أزعجك قبل أن أتحقق بنفسى ، وافقتنى سناء على رأيى ، قالت لى سهام انه رجاها أن يحدثها ، ذهبت اليه بنفسى لأقول له ان الطريق الوحيد أن يحدثك أنت .

ـــ ماذا قال ؟

ـــ قال ان ثمة سوء تفاهم بينكما قد يخيب رجاءه .

ـــ أكان فى نيتك ان تزوجها من وراء ظهرى ؟

فقالت سناء :

ـــ اتفقنا أن حدثك أنا ولكنك سبقت !

فنظر الى سهام متسائلا :

ـــ هل اعجبك ؟ ...

فقالت زهيرة :

ـــ انى ابحث عن حل يرضى الجميع :

أدرك أبعاد الموقف . أدرك أيضا دور زوجته التى تحلم بالتخلص من زهيرة وسهام . ضحك بمرارة وقال :

ـــ ما هو الا نشال قضى فى السجن عامين !

فوجمن فى ذهول . تذكر هو يوم رآه رابضا فى البستان تحت البيت . قال بأسى :

ـــ لقد رويت لكن حكاية سوق ليبيا ، وحكاية زعتر النورى ، محمد زغلول هو زعتر النورى !

قرأ وجوههن بنظره الثاقب . سهام يغمرها شعور بالنجاة . زهيرة مطبوعة بالخيبة . سناء مغيظة محنقة ولكن قضى عليها بالهزيمة . تمتمت زهيرة :

ـــ ما تصورت ذلك قط !

فقال بسخرية :

ـــ هو هو لم يتغير الا مظهره ، كان لصا غير قانونى فأصبح لصا قانونيا ..

## – ١٣ –

التقت عيناه بعينيه رغم الضجيج والزحام . رسالة خفية سرت منه الى الآخر . غادر موقفه أمام الكشك نحوه . بدا أنه استشعر الجو كله . قال بتسليم :

ـ قلب المؤمن دليله .

سار محمد فوزى خارجا من نطاق السوق والآخر يتبعه حتى وقفا تحت جدار القلعة الشاهق ، وعند ذاك هتف به الضابط :

ـ انك وغد كالعهد بك ..

فتمتم وهو يواجهه بثبات :

ـ الحلم سيد الأخلاق .

ـ كيف تسول لك نفسك التعرض لبنت أختى ؟

ـ بالشرف تعرضت لها ..

ـ لا تنطق بهذه الكلمة يا زعتر ..

ـ محمد زغلول .

ـ كذاب .

ـ هذا كل شيء .

ـ سأعتبر الموضوع منتهيا وحذار ..

ـ محمد بك .. ربنا قبل التوبة .

ـ أنت لص لا أكثر ولا أقل .

ـ انى رجل شريف وغنى ومن حقى أن أفتح بيتا شريفا .

ـ اللعنة على شرفك المزعوم .

ـ لا داعى للغضب .

ـ فلينته كل شيء ، انى أكره الاستمرار فى هذا الحديث ..

وتركه دون تحية .

أول ما صنعه ان كلف مخبرا بمراقبة زعتر . وانهمك فى العمل اكثر واكثر لينسى هموم المطاردة . وقال لنفسه : سأبقى شريفا ولو لم يبق فى الحومة سواى . ولم يترك طويلا للنسيان فقد زاره فى النادى من جديد زغلول رأفت . فى ذلك المساء رجع الى بيته بالسكاكينى متفكرا ولكن يصاحبه امل جديد . وبدا وسط قبيلة النساء مرحا . وقال :

— عريس له وزنه يطلب يد سهام .

فتطلعت اليه الأبصار وقالت سناء بنغمة امل واضح :

— ما أكثر العرسان !

فقال بهدوء :

— هذه المرة زغلول رأفت ..

فبادرته سهام :

— قلت انه لص أيضا يا خالى ..

— لا أنكر ، رددت ما سمعته من لص محترف ، ولكن لا دليل على ذلك ..

— لن يغير ذلك من الواقع .

فقالت سناء :

— فرق بين النهار والليل ، انه رجل شريف برأى الجميع ..

وقال محمد فوزى :

— عرفته ثريا ومن رجال البر ..

فقالت سناء :

ـــ رجل له وزنه حقا ، وهو الحلم المطلوب ..

فقال محمد :

ـــ انه فى الأربعين ، أرمل ، ولا أولاد له .

ـــ عز الطلب ! ، لا خير فى الشبان .

ونظر محمد فوزى الى سهام وسألها :

ـــ ما رأيك ؟

ونظرت اليها أيضا زهيرة كأنما تستوهبها الموافقة ولكنها لاذت بالصمت حتى ضاقت سناء بصمتها فقالت :

ـــ من واجبك أن تكونى سعيدة !

فقالت سهام بنبرة متوترة :

ـــ صبركم حتى أجد عملا . عند ذاك سأذهب أنا وماما !

فقال محمد مقطبا :

ـــ قول غير لائق ..

واجتاح الغضب سناء فهتفت :

ـــ جئناك بالسعادة حتى موطىء قدميك ولكنك ما زلت تحلمين بالمستحيل ، انها فرصة لا تتكرر ، وأنا بصراحة لم يعد بى صبر !

وقال لها محمد معاتبا :

ـــ سناء !

فصاحت بصوت يهدر بالغضب :

ـــ دعنى أتنفس عما فى صدرى .

فقالت زهيرة :

ـــ أعطونا فرصة ، سهام ذكية وتفهم كل شىء ، ستسير الأمور كما نود ..

## — ١٥ —

ابلغ الضابط زغلول رأفت بموافقة الأسرة . كان التفاهم بين الرجلين كاملا . لم يترك صغيرة ولا كبيرة . اطمأنت سناء تماما الى أن زوجها لن يغرم مليما واحدا وأن حلمها يتحقق بكل أبعاده . وتصدى محمد فوزى لموجة امتعاض زاحفة فى أعماقه بأن جعل يؤكد لنفسه شرف العريس ، ويقول لضميره القلق ان أحدا لم يتهمه فى شرفه الا الوغد زعتر . أجل لقد تصرف مع سهام بطريقة قاسية . فما من شك أن الموافقة انتزعت منها على رغمها ، غير أنها ستحظى بالسعادة والجاه . انه قرار حكيم وستثبت الأيام صدقه واخلاصه . وسارت الأمور فى سبيلها المرسوم حتى خرجت سهام ذات يوم الى زيارة قريبة ولكنها لم تعد ! طال الوقت وغرق الانتظار فى مستنقع الشك القاتل . تحرى عنها فى جميع مظانها ولكن لم يسمع لها عن خبر .. تجسد واقع لم يخطر على بال . تقوض البنيان كله وتلاشت الآمال مخلفة الرعب والأسى . جنت سناء كما جنت زهيرة أما محمد فقد ثار ثورة هائلة . تصد من توه رفعت حمدى ولكنه وجده على حال يرثى لها ، وصاح به غاضبا :

ــ انك مسئول عما حدث ، أنت .. أنت المسئول الأول !

وفى الحال استغل الضابط خبرته فى الخدمة وامكاناته الغزيرة فى البحث عن المختفية ولكن مرت الأيام تباعا دون نتيجة .

ورن التليفون فى بيته ساعة الغداء عند اجتماع الأسرة فتناول محمد السماعة :

ــ الو .

ـ انا سهام يا خالى ..
ـ سهام .. أين أنت ؟
ـ اكلمك من الاسكندرية .
ـ ماذا تفعلين هناك ؟
ـ انى أعمل .. وبخير .. اطمئنوا .. أريد ماما أن تلحق بى ..
ـ اعطنى عنوانك أريد ان اقابلك ..
ـ ممكن أحضر بنفسى .
ـ وماذا يؤخرك ؟
ـ عدنى أن تلقانى بهدوء واحترام .
ـ لك هذا يا سهام .
ـ سأحضر غدا .
ـ احضرى الليلة أرجوك .
ـ ليكن .. الى اللقاء .

***

اقبلت عليهم فى ثبات كأنما قد نضجت فى أيام غيابها أعواما . تلقتها أمها باكية . تساءلت سناء :

ـ ماذا فعلت بنا يا سهام ؟

وقال محمد بهدوء :

ـ آخر ما كان يتوقع منك ..

قالت باسمة :

ـ الدفاع عن النفس حق مشروع .
ـ ليس بهذه الوسيلة .
ـ الأفضل أن تسمعوا حكايتى ..

صمتت مليا لتجمع شتات افكارها ثم راحت تقول :

ـ بلغ منى اليأس مداه ، صممت على التحدى والانتقام ، قلت

انهم يريدون أن يزوجونى من لص مغطى آخر . سأتزوج من اللص المكشوف . وذهبت الى محمد زغلول او زعتر النورى .
صاح محمد فى جنون :
ــ كلا .
ــ هو ما حصل ، كنت يائسة عمياء . رأيت فى كشكه امرأة جميلة فلوحت له من بعيد فجاءنى وهو لا يصدق عينيه ، فقلت له أريد أن احدثك حديثا هاما . أخذنى فى سيارته الى مدينة المقطم . فى مكان شبه خال يطل على القاهرة ، كان من العسير جدا أن ابدأ ولكن كان لابد أن ابدأ ، سألته الا زلت تريدنى ؟ أجاب ذاهلا بالايجاب . فقلت له انى موافقة . سألنى هل افضيت برغبتك الى محمد بك او والدتك ؟ اجبت بالنفى . سألنى ماذا دفعك الى المجىء الى ؟ فقلت له انى لا أريد استجوابا وانى مستعدة وكفى : قال انى رجل لا يهمنى شىء . لا يهمنى خالك نفسه .. أستطيع أن افعل ما يحلو لى .. ولكن لابد أن اعرف ما حملك على المجىء . قلت لا جواب عندى .. واتركنى اذا شئت . قال انى اعرف أن الوغد زغلول خطبك .. هذه هى المسألة .. ما قولك ؟ قلت انى أرفض الاستجواب . قال يبدو انك لا توافقين عليه .. ربما لسنه وسوء سمعته .. ان ما جاء بك الى هو الرغبة فى الانتقــام أو الرغبة فى الانتحار . فلم أحر جوابا ولمعت عيناى ، قال انك عنيدة مثل جلجلة .. انى أحب هذا .. ولكنى لا أعرف العبودية فى الحب . قلت فلنرجع . قال : ارفض أن اجعل من نفسى اداة انتقام فى يدك ، قلت اذن فلنرجع ، قال هذا يعنى أن اسلمك للوغد زغلول رافت .. كلا .. لقد وقعت فى شــبكة من المنافقــين واللصوص ومن الشهامة ابقائك . قلت ولكن كيف ، قال خالك يحسبنى شيئا قذرا .. كلا .. أنا لم اخن زميلا فى حياتى .. حتى جلجلة فانى مرتبط بها رغم شبعى منها .. وقد جعلت عصابة من النشالين عصبة من الأعيان .. معجزة تحتاج لثورة كاملة ..

وانى ارفض ان يستعملنى احد أداة انتقام .. ولكننى سأنقذك .. خالك رجل فقير لأنه شريف .. لذلك يهمه ان يتخلص منك على خير .. لذلك وافق على تسليمك للص قانونى .. اسمعينى جيدا .. انت متعلمة .. سألحقك بعمل يحفظك من المنافقين واللصوص ..

ساد صمت تجلى فيه صوت الانفاس المترددة .. ثم تساءلت امها :

ــ اى عمل ؟

ــ موظفة فى كشك يملكه فى الاسكندرية بأجر بسيط ونسبة فى الأرباح ..

ــ اهو يكفيك يا بنتى ؟

ــ فوق الكفاية يا ماما .. لابد أن تأتى معى .. ستجدين حياة معقولة جدا ..

وقالت سناء :

ــ انه رجل مذهل ..

استمر الحديث بعد ذلك ولكنه ــ محمد ــ لم يتابعه . غرق فى أفكاره بعمق وحزن وذهول . اى هزيمة منى بها ؟ انه يتلاشى من الوجود ويحسن به ان يتوارى عن الاعين ، وغادر الشقة صامتا . ولما اقترب من ضجيج السوق أثارت الأصوات فى صدره شجنا ثقيلا . ولمحه زعتر فهرع اليه متهللا . تصافحا . وقفا يترامقان فى صمت طال حتى ضاق به محمد فتمتم :

ــ شكرا لك يا زعتر .

فقال الرجل ضاحكا :

ــ محمد زغلول من فضلك .

فقال محمد فوزى بهدوء ويقين :

ــ زعتر النورى ، اسم طيب لرجل طيب ! ، ماذا يخجلك منــه ؟ !

# السماء السابعة

( الحب فوق هضبة الهرم )

— ١ —

سحابة معتمة تقتحم الوجود وتنغمس فى الفضاء . كل شيء يموج بحضور كونى غريب ، لا شبيه له من قبل ، يحلل الكائنات الى عناصرها الأولى ، ينذر بالعدم أو بخلق جديد . رغم ذلك ما زال يملك وعيا بما يحدث أى انه يعيش اللحظات الأخيرة من الوعى . سيطر عليه شعور فائق الالهام انه يشهد ما لم يشهد من قبل ولكنه ما زال رءوف عبد ربه . رءوف عبد ربه بلا خوف ولا وساوس ولا مبالاة . يقف خارج أسوار البوابة التاريخية ، فى الخلاء ، فى الظلام ، بلا وزن البتة . هو والصديق عانوس قدرى راجعان من سهرة الليل ، أين أنت يا عانوس ؟ لا يسمع صوتا . لا يحس بمس الأرض ، وثمة شعور عجيب بانعدام الوزن ، والغوص فى السحابة المعتمة المقتحمة . وعندما ينادى صديقه لا يند عنه صوت ، انه موجود وغير موجود . وهو حائر ولكنه غير خائف . وقلبه يتوقع اجابة قريبة وصريحة . وترق السحابة وتمضى فى التلاشى . ويقف التموج ويختفى . عند ذاك تتضح ظلمة الليل المشعشعة باشعاعات النجوم . أخيرا تتراءى يا عانوس . ولكن ماذا تفعل ؟ . ثمة أناس يحفرون فى الأرض حفرة بهمة ونشاط . وثمة شاب مطروح على ظهره ينزف الدم من رأسه . انه يرى ذلك بشيء من الوضوح أكثر بما تسمح أضواء النجوم . يا للعجب ! . ما الشاب المطروح الا ، رءوف عبد ربه نفسه . انه أنا دون غيرى . وهو منفصل عنه تماما ، يراه من بعد قريب . ليس شبيها به ولا توأم له ، انه جسمه وهذه بدلته ، وهذا حذاؤه . عانوس يحثهم على العمل ، لا يراه

البتة فيما يدنو ، يظن أن الجسم المطروح يحوى بالكامل صديقه رءوف ، لا يفطن الى الكائن الذى يراقبه بلا انفعال . أدرك أنه غير مرئى مثل جسده المطروح . هل انقسم الى اثنين ؟ . هل غادر الحياة ؟ . هل قتل وعانى الموت ؟ . قتلتنى يا عانوس ؟ . ألم نقض معا سهرة ممتعة ؟ . متى شرعت فى قتلى ؟ . كيف نفذته ؟ . وأين كان رجال أبيك الذين يحفرون قبرى ؟ . هانت صداقتى عليك لتستأثر برشيدة ؟ . الم تقل لى بأنك ستعتبرها شقيقة لك من الآن فصاعدا ؟ ! ها هم الرجال يحملون جثتى ويرمون بها فى الحفرة . ها هم يهيلون عليها التراب ويسوون سطح الأرض . عاد وجه الارض الى صورته المألوفة وغاب رءوف عبد ربه كأن لم يكن . ولكننى موجود يا عانوس . أحسنت صنعا بدفن اداة الجريمة الصلبة . زال كل اثر . لماذا أنت متجهم هكذا ؟ . اين نظرة عينيك الساخرة ؟ . أعترف لك — ولو أنك لا تسمعنى — أننى طالما أحببتها . اتظن أن علاقتنا انقطعت وانتهت ؟ . الصداقة اقوى مما نظن . حتى الموت يعجز عن محقها . كذلك الحب . رشيدة لى انا وليست لك ولكنك متهور وسيىء التربية . نشأت فى محيط ابيك المعلم قدرى الجزار . محتكر اللحوم ، ناهب الفقراء والمساكين ، راشى الرجال وشارى الذمم ، فلقنك أن تطمع فيما ليس لك وان تناله بقوة الجريمة . ماذا أنت فاعل الآن ؟ . لم يكن يطيب لك الجلوس فى المقهى بدونى ، ولا المذاكرة ، ولا الذهاب والاياب من الجامعة ، اكبر صديقين فى الحارة رغم الفارق اللانهائى فى المال والجاه والسطوة . فان نسيتنى انت فما انا بناسيك . واعلم بأننى لا احمل نحوك رغبة فى الانتقام أو حتى الايذاء ، لقد دفنت جميع هذه العواطف والانفعالات فى الحفرة مع جثتى ، حتى العذاب الذى تعانيه حارتنا من ظلم ابيك وأمثاله لا ينعكس الآن فى صدرى غضبا وحنقا وحقدا وثورة ،

واكنه صورة شائهة مرفوضة بقوة الحب . ويشكل رغبة سامية مبراة من الأوشاب لتغييرها تغييرا كليا . انى أرثى لك يا عانوس . لم أرك فى هذه الصورة القبيحة من قبل . انك هيــكل عظمى تسكنه الخفافيش . الدم المسفوك يلطخ وجهك وجبينك . عيناك تقدحان شررا وتتدلى من اذنيك حينان . رجال أبيك يسهرون خلفك على حوافر حمير وبرعوس غربان يرسفون فى أغلال مغروسة بالشوك . انه ليحزننى أن أكون السبب المباشر لتشويه صفحتكم لذلك يغشانى الأسى وتفتر فى أشواق البهجة .. !

— ٢ —

من خلال تنهدة وجد نفسه فى مدينة جديدة . تضىء بلا شمس مشرقة . مسقوفة بالسحب البيضاء . أرضها تنضح بالخضرة على هيئة أزهار وفواكه ، تتخللها على مدى لا نهائى أكواخ بيضـــاء كالورود ، وثمة جموع تتلاقى وتفترق فى خفة الطير . وجد نفسه فى بقعة خالية . عانى غربة الوافد الجديد . وعلى حين فجأة تجلى أمامه رجل يتدثر بسحابة بيضاء . ابتسم اليه وقال :

— أهلا بك يا رءوف فى السماء الأولى !

فهتف رءوف بفرحة متألقة :

— هى الفردوس ؟

— قلت السماء الأولى لا الفردوس ..

— اذن فأين الفردوس ؟

— بينك وبينها طريق طويل يقطعه سعيد الحظ فى مئات الألوف من السنين الضوئية !

فند عن رءوف صوت كالأنين فقال الرجل :

ــ دعنى اقدم لك نفسى أولا . محدثك آبو الذى كان يوما كاهن طيبة ذات المائة باب ..

تشرفنا يا سيدى ، من حسن الحظ أنى مصرى مثلك ..

ــ لا اهمية لذلك . لقد فقدت هذه الجنسية منذ آلاف السنين ، وانى الآن موفد كمحام للدفاع عن القادمين الجدد .. ؟

ــ ليس ورائى تهمة ولكننى شهيد ..

ــ صبرا ، دعنى أحدثك عن موطنك الجديد . هذه السماء تستقبل الوافدين الجدد ، فيها يحاكمون وأتولى أنا الدفاع عنهم ، الأحكام تتراوح بين البراءة والاعدام ، فى حال البراءة يقضى البرىء عاما واحدا هنا يتأهل فيه روحيا للصعود الى السماء الثانية ...

فقاطعه رءوف متسائلا :

ــ لكن ما معنى الاعدام ؟

ــ معناه أن يقضى عليه بأن يولد من جديد فى الأرض ليمارس الحياة مرة أخرى لعله يلقى قدرا أكثر من النجاح ، أما ما بين البراءة والاعدام فيقضى على المتهم عادة بأن يعمل مرشدا روحيا لشخص أو أكثر فى الأرض ، ويكون صعوده الى السماء الثانية رهنا بتوفيقه أو تمد مدة تجربته وهكذا ..

فقال رءوف باطمئنان :

ــ على أى حال فانى واثق من البراءة فقد عشت طيبا ومت شهيدا ..

فابتسم آبو وقال :

ــ لا تتعجل ، ولنبدأ الحديث فى قضيتك ... اخبرنى بهويتك ؟

ــ رءوف عبد ربه ، السن ثمانية عشر عاما ، طالب تاريخ بالجامعة ، يتيم الأب ، أمى أرملة تعيش على منحة خيرية من الأوقاف ...

ــ لماذا أنت راض عن نفسك هكذا يا رءوف ؟

ــ رغم فقرى الشديد فانى طالب مجتهد يحب العلم ولا يكف عن النهل منه ..

ــ جميل هذا من ناحية المبدا ، ولكنك كنت تتلقى كثيرا وتفكر قليلا ..

ــ التفكير يكتسب بالعمر والمران ، وعلى أى حال لا يعد ذلك تهمة ؟

ــ هنا يحاسب الانسان على كل شيء ، ألاحظ مثلا أنك كنت تبهر بالأفكار الجديدة ..

ــ للجديد سحره يا سيد آبو ..

ــ أولا لا تقل سيدى ، ثانيا نحن لا نحاسب على التفكير ولو كان خاطئا ، ولكننا ندين التسليم بأى فكرة ولو كانت صحيحة ..

ــ انها محاكمة قاسية ، ، العدل فى الأرض ارحم !

ــ ننتقل الى العدل ، كيف وجدت حارتك ؟

ــ بشعة .. أكثرها فقراء متسولون .. يسيطر عليها فتوة يحتكر الغذاء .. اشترى شيخ الحارة .. يسرق ويقتل ويعيش مطمئنا فوق القانون ..

ــ انه وصف دقيق ، ماذا كان موقفك ؟

ــ الرفض والتمرد والرغبة الصادقة فى تغيير كل شيء ..

ــ تشكر . ماذا فعلت لتحقيق ذلك ؟

ــ لم يكن بوسعى أن افعل شيئا !

ــ وتريد أن تصعد الى السماء الثانية ؟

ــ لم لا ؟ . كان عقلى وقلبى رافضين لما يجرى ..

ــ ولسانك ؟

ــ لو نطق بحرف متمرد لكان جزاؤه القطع ..

ــ ولكن حتى الكلام وحده لا يرضى محكمتنا المقدسة !

ــ يا لها من محكمة ! ، وهل كنت الا فردا وحيدا ؟ !

ــ حارتك مكتظة بالتعساء ..

ــ واجبى الأول كان تحصيل العلم ..

ــ الأمانة لا تتجزأ ولا عذر عن التخلى عنها ..

ــ لم يكن من المحتمل أن يؤدى ذلك الى العنف ؟

ــ لا تهمنا الصفات ، ما يهمنا هو الحق !

ــ الا يشفع لى أنى قتلت فى سبيل الحب ؟

ــ حتى هذا لا يخلو من عنصر فى غير صالحك .

فتساءل رءوف بدهشة :

ــ أى عنصر هذا ؟

ــ انك منحت عانوس ثقتك وهو صورة من أبيه الطاغية !

ــ لم أتصور أننى مذنب لهذا الحد ؟

ــ ثمة ظروف مخففة ولكن مهمتى فى الدفاع عنك ليست يسيرة .

ــ هيهات أن يظفر أحد بالبراءة فى ساحة هذه المحكمة ..

ــ صدقت ، قلة نادرة أدت واجبها الكامل نحو الأرض ..

ــ اعطنى مثالا أو مثالين .

ــ خالد بن الوليد وغاندى ..

ــ انهما نقيضان !

ــ للمحكمة تصور آخر ، والعبرة بالواجب نفسه ..

ــ الآن لم يعد لى أمل ..

ــ لا تيأس ، ولا تستهن بخبرتى الطويلة ، سأفعل المستحيل لانقاذك من الاعدام !

ــ ماذا يمكن أن يقال ؟

ــ أقول انك بدأت بداية لا بأس بها فى ظروف بالغة المشقة ، وانه كان يرجى منك خير لو امتد بك العمر ، وانك كنت محبا صادقا وبارا بوالدتك ..

ـــ اذن فغاية ما اطمع اليه أن يقضى على بأن أكون مرشدا روحيا ؟

ـــ وهى فرصة لاستدراك ما فاتك ، فى عالمنا هذا لا يصعد الانسان الا بفضل توفيقه فى الأرض ..

ـــ ايها المحامى الجليل لم لا ترسلون مرشدا للمعلم قدرى الجزار ؟

ـــ ما من أحد الا وله مرشده ..

فهتف رءوف بذهول :

ـــ وكيف يستمر الشر اذن ؟

ـــ لا تنس ان الانسان حر ، كل شىء يتوقف فى النهاية على قوة تأثير المرشد وحرية الفرد ..

ـــ لم يكن من الخير ان تلغى هذه الحرية ؟

ـــ قضت المشيئة بألا يقبل فى السموات الا الأحرار .

ـــ كيف لا يقبل فى السماء ولى حارتنا الطاهر الشيخ عاشور ؟. انه لا يمارس الحرية فكل ما يقول أو يفعل من املاء الهامة الصادق ؟

فابتسم آبو وقال :

ـــ ما هو الا صنيعة لقدرى الجزار ، يؤول الأحلام لمصلحته وينقل اليه همسات الضمائر من البيوت التى ترحب ببركته !

فصمت رءوف مغلوبا على أمره . غاب قليلا فى الخضرة اليانعة المزركشة بأكواخ الورود ، استسلم للملاحة وعذوبة الجو ، ثم تنهد قائلا :

ـــ ما أتعس أن يجبر الانسان على هجر هذه الجنة !

فهتف به آبو :

ـــ حذار من الرغبة الآثمة فى الهروب من الواجب ..

فتسائل رءوف :

ـــ متى أمثل فى ساحة المحكمة ؟

فأجاب آبو :

ـــ لقد تمت المحاكمة !

فرنا اليه رءوف بدهشة فقال :

ـــ تم الاستجواب ومرافعة الدفاع فيما جرى بينى وبينك ، وصدر الحكم وهو يقضى بندبك مرشدا روحيا ، تهانى !

— ٣ —

تقرر استبقاء رءوف عبد ربه فى السماء الأولى فترة قصيرة ليتطهر من اى شائبة ، وليؤهل لمهمته . وبغية تدريبه وتثقيفه أبقاه آبو الى جانبه فى الوقت الذى يستقبل فيه المرشدين عادة . وقال له رءوف :

ـــ أود ان ارى ادولف هتلر ، هل يجىء الآن ؟

ـــ لقد قضى عليه بالاعدام فولد فى حارتكم من جديد وطالما رايته !

ـــ هتلر ؟

ـــ هو المعلم قدرى الجزار :

فصمت رءوف مليا من الدهشة ثم تساءل :

ـــ اذن فمن يكون شيخ الحارة شاكر الدرزى ؟

ـــ لورد بلفور !

ـــ والشيخ عاشور الولى الكذاب ؟

ـــ انه خنفس خائن الثورة العرابية ..

ـــ اراهم لا يتغيرون ولم يستفيدوا من اعادة التجربة ..

ـــ ليس الحال كذلك دائما ، اتدرى من تكون أمك ؟

ـــ انها ملاك يا آبو !

ـــ ما هى الا ريا السفاحة المشهورة فانظر كم تقدمت !

فذهل رءوف وصمت على حين استقبل آبو أول الوافدين . قال الوافد :

ــ انى ابذل اقصى ما استطيع .

فقال آبو :

ــ أعلم ذلك ولكن يلزمك مضاعفة الجهد فقد آن لك ن تصعد !

ولما اختفى الوافد قال رءوف :

ــ انى أعرفه جيدا . اليس هو اخناتون ؟

ــ هو عينه ، انه سيىء الحظ فطال مقامه هنا آلاف السنين ..

ــ ولكنه أول من بشر بالله الأحد !

ــ هذا حق ولكنه فرض الهه على الناس بالقوة لا بالهداية والاقناع فتيسر لأعدائه من بعده أن ينتزعوه من القلوب بالقوة ، ولولا صفاء سريرته لقضى عليه بالاعدام ..

ــ ولم طال به المقام هذا الدهر ؟

ــ لم يوفق مع أحد ممن ندب لارشادهم مثل فرعون موسى والحاكم بأمر الله وعباس الأول ...

ــ ومن رجله اليوم ؟

ــ كميل شمعون !

وجاء الوافد الثانى ، قدم تقريره ، تلقى كلمات مشجعة ثم اختفى . عند ذاك قال رءوف :

ــ انه الرئيس ويلسون !

ــ أجل .

ــ حسبته من القلة السعيدة التى صعدت الى السماء الثانية ..

ــ انت تشير بلا شك الى مبادئه السامية ولكنه نسيت أنه لم يستغل قوة أمريكا فى تنفيذها ، بل انه اعترف بالحماية على مصر .

ــ ومن رجله ؟

ــ الأستاذ توفيق الحكيم !

ولما اختفى الوافد الثالث قال رءوف :
ـــ انه لينين بلا شك . .
ـــ نعم .
ـــ حسبت أن الاعدام كان نصيبه لالحاده ، ماذا قلت دفاعا عنـــه ؟

ـــ قلت انه من خلال ثرثرة فكرية غير الأسماء ولم يغيـــر الجوهر ، سمى الهه المادة الأزلية وأضفى عليها من صفات الله القدم والخلق والسيطرة على مصير الكون ، وسمى الرســـل بالعلماء ، والملائكة بالعمال والشياطين بالبرجوازيين ، ووعد أيضا بالجنة فى تحديد أكثر لزمانها ومكانها ، ونوهت بقوة ايمانه وبلائه فى خدمة الكادحين وروح تضحيته وتقشفه ، وقلت أيضا ان ما يهم الله سبحانه هو ما يصيب الناس من خير أو شر . أما هو ـــ جل جلاله ـــ فمستغن عن البشر ، لن يزيده ايمانهم ولن ينقص من شأنه كفرهم به . . هكذا خفف الحكم وعين مرشدا روحيا !

فتساءل رءوف مبهورا :
ـــ ومن رجله ؟
ـــ الأستاذ مصطفى محمود !
ـــ وهل ندب ستالين مرشدا أيضا ؟
ـــ كلا ، ستالين أعدم لقتله الملايين من الكادحين بدلا من أن يعلمهم ويدربهم !
ـــ لعله يعيش اليوم فى حارتنا ؟
ـــ كلا ، انه يعمل فى أحد مناجم الهند . .

بانتهاء استقبال لينين فرغ آبو من مقـــابلات الســـاعة ، استصحب رءوف لنزهة فى السماء الأولى . لدى تفكيرهما فى النزهة انطلقا مباشرة ، استجابة للرغبة الداخلية ، بلا حاجة الى استعمال القدمين ، كطائرين ، ثملين بنشوة باطنية انعكاسا لمفاتن الحركة المنسابة فى يسر وعذوبة . غاصا فى جو فضى ذى

أرضية خضراء مزركشة وسماء مضيئة بألق السحائب البيضاء . مرا بوجوه كثيرة تمثل شتى الأجناس والألوان ، منهمــكين فى الظهور والاختفاء ما بين السماء الأولى والأرض . كل مستغرق فى مهمته الرفيعة . يستهدفون للأرض وأهلها رقيا ونصرا ، يأملون من ورائها تكفيرا وتطهيرا لأنفسهم ليواصلوا صعودهم فى مراقى الرزح والابداع والقرب من الحقيقة العظمى . يعملون باصرار ، تدفعهم الأشواق الحارة اللانهائية الى الكمال والحق والخلود . قال رعوف :

ــ يخيل الى أن العناء هنا لا يقل عن نظيره فوق الأرض ؟

فأجاب آبو باسما :

ــ هما عناء واحد متصل ، غير أن الانسان يمارسه ها هنا بقلب أنقى وعقل أذكى وهدف أوضح ..

ــ زدنى وضوحا يا آبو .

ــ أنتم تحلمون فى الأرض باليوم الذى تتحقق فيه المدينة الفاضلة المؤسسة على حرية الفرد وعدالة المجتمع والتقدم العلمى والسيطرة الظافرة على قوى الطبيعة ، وفى سبيل ذلك تحاربون وتسالمون وتتحدون القوى المضادة المسماة فى اصــطلاحاتكم بالرجعية ، هذا جميل وطيب ولكنها ليس الهدف كما تتصورون ، ان هو الا الخطوة الأولى السديدة فى طريق طويل من الرقى الروحى يبدو حتى للذين يقيمون فى سمائنا الأولى بلا نهاية ..

فاستغرق رعوف فى التأمل حتى سأله آبو :

ــ فيم تفكر يا رعوف ؟

فقال بأسى :

ــ افكر فى مدى بشاعة الجريمة اليومية التى تواصل اقترافها القوة المضادة !

ــ وهى جريمة يشارك فيها الطيبون بالسلبية والقعود عن الجهاد خوفا من الموت وما الموت الا ما ترى .

ـ أي حياة ؟ !

ـ انها معركة بلا زيادة ولا نقصان !

وتفكر رءوف طويلا حتى أرهقه التفكير فعاد الى تشوفه السابق لمعرفة مصائر الشخوص الذين يهتم بهم فسأل آبو :

ـ أود أن أعرف مصائر زعماء وطنى ؟

ـ انتظر حتى نراهم أو سل ما بدا لك .

ـ ماذا عن السيد عمر مكرم ؟

ـ انه اليوم مرشد أنيس منصور .

ـ واحمد عرابى ؟

ـ انه مرشد لويس عوض .

ـ ومصطفى كامل ؟

ـ مرشد فتحى رضوان .

ـ ومحمد فريد ؟

ـ مرشد عثمان أحمد عثمان .

ـ وسعد زغلول ؟

ـ هو وحده الذى صعد الى السماء الثانية !

ـ بسبب تضحياته ؟

فابتسم آبو قائلا :

ـ بسبب انتصاره على ضعفه البشرى !

ـ زدنى ايضاحا يا آبو .

ـ لعلك تعلم بأنه عانى هفوات الطموح قبل الثورة ثم سما عقب الثورة الى رؤية رفيعة من الشجاعة والفداء فاستحق البراءة ..

ـ ومصطفى النحاس ؟

ـ كان مرشد أنور السادات وعقب ٦ أكتوبر وعودة الحرية صعد الى السماء الثانية ..

ـــ وجمال عبد الناصر ؟

ـــ انه اليوم مرشد القذافى ..

★★★

فى نهاية التدريب القصيرة قال آبو لرءوف :

ـــ كان مرشدا روحيا لقاتلك عانوس قدرى الجزار ..

فامتثل رءوف الأمر بحماس وعزيمة فقال آبو :

ـــ اعتمد فى الايحاء على فكرك وانه لقوة عظيمة اذا أحسنت استخدامها ، واستعن عند الضرورة بالأحلام ، والله معك .

## ـ ٤ ـ

ـــ هبط رءوف عبد ربه الى الحارة . يرى ويسمع على السرائر على حين لا يرى له طيف ولا يسمع له صوت . ينتقل من مكان الى مكان كالنسمة المنسابة ، فى حارته المحبوبة بصورتها المتكاملة الثابتة ، وأناسها المنهمكين فى شئون الحياة ، انه يملك كافة ذكرياته ، وضمنها آماله وآلامه السابقة ، ويتمتع بصفاء ذهن مثل الضياء الساطع . عشرات وعشرات من الكادحين والكادحات يعملون بأعين خابية وسواعد مفتولة . الضحكات تطفو فوق الشتائم كالزبد المتألق الممزوج بالحموضة . ها هو المعلم قدرى الجزار فى وكالته ، لاشبه بينه وبين هتلر فى ملامحه ، لكن جسمه ترهل من مص دماء البشر . ها هو لورد بلفور ، أو شاكر الدرزى شيخ الحارة ، الذى أهدر القانون تحت قدمى الجزار ، وها هو الولى الماكر عاشور الذى يستلهم الغيب لتأييد سيده ومولاه . لك الله يا حارتنا . كيف ومتى تمرقين من هذه الأغلال المحكمة ؟ . ويبدو

أن اختفاءه ـ رءوف ـ قد حرك ألسنة الحارة وقلوبها . النسوة يحطن بأمه الباكية :

ـ هذا ثالث يوم يمر على اختفائه ..

ـ بلغى القسم يا أم رءوف ..

ـ بلغت عم شاكر الدرزى شيخ الحارة ..

ويجيء صوت شيخ الحارة متهكما :

ـ ألاعيب شباب هذه الأيام !

فهتفت الأم الباكية :

ـ ابنى لم يغب ليلة واحدة بعيدا عن بيته ..

وها هى رشيدة راجعة من معهدها . جمال وجهها الأسمر مكتس بالكآبة . أمها تقول لها :

ـ اعتنى بنفسك فالصحة لا تعوض !

فتقول وهى تختنق بالبكاء :

ـ انى أعرف ، قلبى لا يكذبنى ..

رنا اليها رءوف باشفاق . صدقت يا رشيدة . قلب المحب جهاز استقبال دقيق . ولكننا سنلتقى ذات يوم . الحب خالد يا رشيدة وليس كما يتوهم البعض . وها هو القاتل يخطر راجعا من الجامعة . تمسك بيد كتابا وتقتل بالأخرى . انى لا أغيب عن ذهنك ولكنك لا تدرى بأننى انتدبت مرشدا لك . هل تطيعنى اليوم أو تمضى فى غيك ؟ . كل شيء يدعو للطمأنينة يا عانوس . أبوك يلقى ظله على الجميع . الحكومة والولاية ملك يمينه . تحت أمرك اى شهادة زور تحتاج اليها ، ولكن صورقى لا تبرح مخيلتك . لم لا ألسنا صديقين ضرب بمودتهما المثل ؟ ! . ثم انك ما زلت شاديا فى الاجرام . لم تتمرس به كوالدك ، ومن خلال ثقافتك تعلمت أو على الأقل سمعت عن أشياء جميلة . أتحلم بأنك ستظفر بقلب رشيدة نتيجة لتلك الجريمة ؟ . ما هذا الذى قتلته ودفنته فى الخلاء ؟ .

لا يعنينى أمره بأكثر مما يعنيك . انى رفيقك الابدى كما سترى .
اعترف يا عانوس ، اعترف بجريمتك ، اعترف والحق بى فسيكون
لك دور أفضل . ها هى أمى التعيسة تعترض سبيلك :
— يا سى عانوس .. أليس عندك خبر عن صديقك ؟
— أبدا والله ..
— قال وهو يودعنى انه ذاهب اليك ..
— تقابلنا دقائق ثم أخبرنى أنه ذاهب الى مشوار هام واننا
سنلتقى مساء اليوم فى القهوة ..
— ولكنه لم يرجع ..
— الم ازرك سائلا عنه ؟
— حصل يا ابنى ولكننى أكاد أجن ..
— وانى مثلك فى القلق ..
صدقت يا عانوس . انى أرى القلق فى روحك مثل النمس فى
الوجه . ولكنك قاسر وخبيث ، انك من القوى المضادة يا عانوس
ألا تدرك خطورة ذلك ؟ . اننا نشكو طول الطريق الأبيض فما بالك
وأنت تنحدر فى الطريق الأسود ؟ ! . انى ملازمك . اذا لم تتذوق
هذه الدجاجة المحمرة فالذنب ذنبك ، اذا لم تستطع أن تركز ذهنك
فى كتابك فالذنب أيضا ذنبك . لن اتخلى عنك فلا تبدد تعبى هباء ،
وأسهد طويلا فلن يدركك النوم قبل الفجر .
ولما صعد رءوف الى السماء الأولى وجد آبو متهمكا فى حديثه
مع اخناتون ، وكان اخناتون يقول :
— كلما قلت له يمنيك أخذ يساره !
فقال له آبو :
— استعمل قواك كما يجب :
— ينقصنا استغلال القوة المادية ..
فهتف آبو :

ـــ الا ترغب فى الصعود ؟ ، المسألة انك لم تعتد المناقشة والاقناع ولكنك الفت اصدار الأوامر ..

والتفت آبو الى رعوف وتساءل :

ــ كيف الحال عندك ؟

ــ بداية حسنة .

ــ عظيم !

ــ ولكنى اتساءل أليس لكل فرد من العامة مرشده ؟

ــ طبعا .

ــ اذن لماذا هم مستسلمون ؟ !

ــ يا لك من مخطىء ، انك أحد ابناء عصر الثورات !

فى تلك اللحظة هبط عصفور أخضر فى حجم تفاحة حتى حط على منكب آبو . قرب منقاره الوردى من اذن آبو فبدا هذا منصتا ، ثم طار مدوما فى الفضاء حتى توارى خلف السحائب البيض . ورأى آبو نظرة التشوف فى عينى رعوف فقال :

ــ انه رسول السماء الثانية جاءنى ببراءة الصعود للمدعو شعبان المنوفى .

ــ ومن شعبان المنوفى ؟

ــ جندى مصرى استشهد فى المورة على عهد محمد على ، وهو مرشد لمهرب نقود يدعى مروان الاحمدى فنجح اخيرا فى حمله على الانتحار ..

وجاء شعبان المنوفى مشمولا بثوبه السحابى ، فقال له آبو :

ــ ستصعد مجللا بالبركات الى السماء الثانية !

وهرع الينا جميع المرشدين كالحمام الأبيض حتى ازدحم بهم المكان الأخضر ، وقف شعبان بينهم متهلل الوجه . وعزفت موسيقى بلحن سماوى ، وقال آبو :

ــ اصعد يا وردة المدينة الخضراء وواصل جهادك القدسى ..

فقال شعبان المنوفى بصوت عذب :
ــ طوبى لمن يقدم خدمة لأرض الغناء ..
ومضى يصعد بخفة الشذا الرشيق والموسيقى تعــزف لحن الوداع البهيج .

ــ ٥ ــ

ها هو عانوس قدرى الجزار يقف أمام ضابط المباحث . الضابط يسأله :
ــ متى رأيت رءوف عبد ربه آخر مرة ؟
ــ عصر اليوم الذى اختفى فيه ، زارنى فى البيت ، سرعان ما غادرنى لمشوار هام واعدا بمقابلتى مساء فى القهوة ..
ــ هل أخبر شيئا عن مشواره ؟
ــ كلا ..
ــ ألم تسأله عنه ؟
ــ كلا ... حسبته أمر يتعلق بالأسرة ..
ــ رآكما البعض وأنتما تسيران معا فى الحارة عقب الزيارة ؟

★★★

لا تضطرب . الأفضل أن تعترف . فرصتك الذهبية لو تعلم !

★★★

ــ أوصلته حتى خارج البوابة ..
ــ اذن ذهب الى الخلاء ؟

★★★

هذه فلتة لسان يا عانوس . ما أكثر الفلتات . لن ينجيك الا الصدق .

★★★

— نعم .

— ماذا فعلت بعد ذلك ؟

— قصدت القهوة لأنتظره ..

— حتى متى بقيت فيها ؟

— حتى قبيل منتصف الليل ثم رجعت الى بيتى ؟

— نستطيع أن تثبت ذلك ؟

— كان يجلس بالقرب منى طوال الوقت عم شاكر الدرزى شيخ الحارة .. وفى الصباح الباكر ذهبت الى مسكنه وسألت والدته عنه فأخبرتنى بأنه لم يعد !

— ماذا فعلت ؟

— سألت عنه جميع الأصدقاء والمعارف فى الحارة ..

— ألك تصور خاص عن اختفائه الطويل ؟

— كلا ، انه شيء محير حقا ..

★★★

ها أنت تنصرف من القسم يا عانوس . انك تستعيد كل كلمة قيلت . تندم على ذكر البوابة . تتساءل عمن شهد مسيركما معا . كأنك تفكر فى مزيد من الشر . وتعيد على مسامع أبيك ما جرى من حوار . انه مطمئن جدا . فى جيبه تستقر النقود والقانون والشهود . جرم محترف . انصحك للمرة الثانية أن تواجه جريمتك بشجاعة وتصفى حسابك . ثم ما هذا ؟ . ألا تزال صورة رشيدة ترتسم فى مخيلتك ؟ . هذا هو الجنون عينه . ثم انك تدرك أن التحريات ستجرى عنك مثل الطوفان . شيخ الحارة يقرر ذلك أيضا . الغيب ينذر بمفاجآت مجهولة . انك تفكر فى ذلك كله وتفكر أيضا فى رشيدة يا أحمق ! . لذلك قال رعوف الأبو :

— الخوف من الموت أكبر لعنة سلطت على البشر .

فتساءل آبو باسما :

ــ ألم يكن ذلك خليقا بأن يمنعه من ارتكاب جريمته ؟

ولزم رعوف الصمت فقال آبو :

ــ لقد انتدبت مرشدا لا فيلسوفا فتذكر ذلك ..

## ــ ٦ ــ

انك تتساءل يا عانوس لم يستدعيك الضابط ثانية ، حسن ، الأمور لا تنتهى بالبساطة التى يتصورها أبوك . ها هو الضابط يسأل :

ــ ماذا تعرف عن حياة رعوف الشخصية ؟

ــ لا شىء فيها يستحق الذكر .

ــ حقا ؟ .. وماذا عن حبه لرشيدة الطالبة بمعهد الفنون الطرزية ؟

ــ كل شاب لا يخلو من علاقة كهذه !

ــ ألك أنت مثلا علاقة مثلها ؟

ــ هذه شئون خاصة ولا شأن لها بالتحقيق !

ــ أتظن ذلك ؟ .. حتى اذا كنت تحب الفتاة نفسها ؟

ــ المسألة تحتاج لايضاح ..

ــ طيب ! .. ما هو ؟

ــ كاشفته مرة بأنى أرغب فى خطبة رشيدة فصارحنى بأنهما متحابان وفى الحال اعتذرت واعتبرت الأمر منتهيا !

ــ ولكن الحب لا ينتهى بكلمة ..

ــ كانت مجرد عاطفة عابرة .. لا أدرى ماذا تقصد ؟

ـــ انى أجمع معلومات ، وأتساءل ترى ألم تتغير عواطفك نحو صديقك ولو قليلا . .

ـــ كلا . . عاطفتى لرشيدة كانت عابرة أما صداقتنا فكانت صداقة العمر !

ـــ تقول كانت ؟ . . هل انتهت ؟

فقال عانوس بضيق :

ـــ اقصد أنها صداقة العمر .



تتساءل ترى هل جرى تحقيق مع رشيدة ؟ . . وبم اعترفت ؟ حسن انى أقول لك ان التحقيق جرى ، وأنها اعترفت بمحاولاتك فى انتزاعها من قلب صديقك ، كما اعترفت بسطوة ابيك وخوفها على نفسها وعلى امها . أؤكد لك أن الأمور تمضى فى غير صالحك .



فضحك الضابط وقال :

ـــ تتكلم كما لو كنت يئست من رجوع صديقك !

ـــ انى واثق من رجوعه ، بهذا يحدثنى قلبى . .

ـــ قلب المؤمن دليله ، وانى لأرجو ذلك ايضا !



تخرج هذه المرة من القسم وانت أشد اضطرابا من المرة الاولى . اظنك شعرت تماما بأن الضابط الماكر يشك فيك يا عانوس . لا تتصور أن أباك قادر على كل شىء . هتلر نفسه ألم ينهزم وينتحر ؟ !! .

— ٧ —

الضابط يستدعيك للمرة الثالثة يا عانوس . أعصابك بدأت تتمزق . ابوك يرمق شاكر الدرزى بغضب ولكن ماذا بوسعه أن يفعل ؟ ! . قف أمام معذبك الضابط واسمع :

— يا عانوس ، تلقينا رسالة من مجهول يتهمك بقتل صديقك رءوف !

وهتف بغضب مفتعل :

— تهمة حقيرة .. ليكشف عن وجهه ..

— صبرك ، نحن نقدر الأمور بميزان دقيق ، أنت وصاحبك الم تكونا تذهبا كثيرا خارج البوابة للسهر ؟

— بلى ..

— أين كنتما تقضيان الوقت فى ذلك الخلاء ؟

— فى مقهى الشرفا فوق الهضبة ..

— هذا ما قدرته ، وقد قررت أن أجرى مواجهة بينك وبين رجال المقهى !

★★★

انتظر ولا تضطرب . انك عنيد ، هذه هى الحقيقة . لا تريد أن تستجيب لمناجاتى . ثق فى اننى اعمل لصالحك يا تعيس ..

★★★

وتمت المواجهة فشهد صاحب المقهى وصبيه أنهما لم يريا عانوس منذ أكثر من شهر . لم يتجل الاقتناع الكامل على وجه الضابط . ورمق عانوس بنظرة صارمة وتمتم :

— تفضل بالانصراف !



تغادر القسم وعلى شفتك ابتسامة النصر . لك الحق فى ذلك . أبوك أحكم خطوط الدفاع من حولك ولكن هل ينتهى الأمر عند هذا الحد ؟ . قلبك يتقبض وأنت تمر أمام مسكن ضحيتك . تساورك الهواجس مرة اخرى . من المجهول الذى ارسل الخطاب ؟ . وهل يكون آخر خطاب من نوعه ؟ . انك قاتل يا عاتوس وضميرك لا يريد أن يستيقظ . لأزورنك الليلة فى المنام . ما دمت لا تستجيب الى ندائى الخفى فستجد جثتى مطروحة الى جانبك فوق الفراش . ها هو شخيرك يعلو تحت وطأة الكابوس . وتستيقظ فزعا بقلب ثقيل . وتنزلق من الفراش لتبل ريقك بجرعة ماء . ولكنك ستجد الجثة حال استغراقك فى النوم ، ويتكرر الحلم ليلة بعد أخرى . تدعو أمك الشيخ عاشور لفحص حالك فيهبك حجابا لتضعه فوق قلبك ولكن الجثة لا تبرح منامك . وتسوء حالك فتذهب سرا الى الطبيب النفسى . تتردد عليه أسبوعا بعد أسبوع . يقول لك قولا عجبا . انك تتصور أن صديقك قد قتل ، وان جثته هى جثتك انت للارتباط العاطفى بينكما ، عاطفة واحدة ربطت بينكما فجثته هى البديل عن جثتك ، ولكن لماذا تتصور انك انت القتيل ؟ ، جثتك بدورها بديل عن جثة أخرى أو بديل عن شخص آخر تود أن تقتله فى اعماقك وهو أبوك ، وعليه فالحلم كله انعكاس لعقدة أوديب ! . ما معنى هذا ؟ . انا ما زرتك فى الحلم الا تذكرة لجريمتك بغية ايقاظ ضميرك ليكفر عن فعلك فما دخل عقدة أوديب ؟ . انك لا تعشق أمك ولا تود قتل أبيك ولكنك تعشق رشيدة وقتلتنى أنا لتزيحنى من طريقك ! .

وشكا رءوف أمره الى آبو فقال آبو :

ــ الشكوى من التشخيص العلمى الناقص كثيرة ، حساسية من الاحباط تشخص كمرض ناشىء عن تناول الشيكولاطة ، كآبة من فقدان الايمان يعالج بسببها العصب السمبتاوى ، امساك شديد

سبب الوضع السياسى توصف له الملينات وهلم جرا !

ـــ والعمل يا آبو ؟

ـــ هل ادركك اليأس ؟

فبادره رءوف :

ـــ كلا ..

ـــ استثمر ما لديك من قوة !

## - ٨ -

حفظت قضية رءوف عبد ربه لعـــدم الاهتداء الى أسباب اختفائه . تلاشى الحادث رويدا رويدا من الأذهان ، لم تعد تذكره الا أمه ورشيدة . ومضى عانوس يمارس حياته اليومية مستغرقا العمل واللهو . كان الماضى يطارده من حين الى حين سواء فى اليقظة أو فى المنام ولكنه الف مناوشاته وغالبها بالارادة والمخدر والمنوم . وأمن جانب القانون تماما فراح يفكر من جـــديد فى رشيدة والا فما معنى اقدامه على افظع فعل فى حياته ؟ ! . كان يتعمد رؤيتها وان يريها نفسه كل صـــباح وهما ذاهبـــان الى معهديهما . ما زال وجهها مكتسيا بكآبة الذكرى فهل لم تفقد الأمل بعد ؟ . والا تفكر يوما فى مستقبلها كفتاة تنشد الحياة والسعادة والانجاب ؟ ! وهل تطمح الى من هو أصلح لها منه فى الحارة كلها ؟ ! . لقد ضاعفت مغامرته الجنونية من تعلقه بها ورغبته الثابتة فى الاستحواذ عليها . ومرة تصادف مجلسه لصقها فى الترام فحياها ولكنها تجاهلته فقال :

ـــ كان يجب أن نتبادل المساعدة ..

فقطبت نافرة ولكنه واصل حديثه :

ـ فكلانا يعانى فقد عزيز مشترك !
عند ذاك خرجت عن صمتها قائلة :
ـ لم يفقد ولكنه قتل !
ـ ماذا ؟ !
ـ كثيرون يؤمنون بذلك ؟!
ـ ولكنه لم يكن له عدو واحد ؟ !
فرمته بنظرة ازدراء ولاذت بالصمت .

★★★

انها تتهمك يا عانوس بقتله . اكنت فى شك من ذلك ؟ . تستطيع أن تمحو الرجيمة من صفحتك ببعث نفسك والوقوف فى وجه أبيك . لقد فات أوان الحب .

★★★

غادرت الترام قبله فأتبعها نظرة مليئة بالحقد والرغبة . ودهمت مخيلته أحلام طائشة مفعمة بالعنف والشهوة ...

## ـ ٩ ـ

وقالت أم رشيدة لأم رءوف :
ـ الجميع يتكلمون عن ذلك الرجل العجيب الذى يحضر الأرواح فلم لا تجربينه علما بأنه لن يكلفك مليما واحدا ؟
فرنت اليه الثكلى حائرة ثم تمتمت :
ـ وتذهبين معى !
ـ لم لا ؟ .. سأتصل بالمرحوم أبى رشيدة !
وقالت رشيدة وهى تتابع الحديث باهتمام :
ـ أناس محترمون كثيرون يؤمنون بتحضير الأرواح ..

وتواعدن على يوم فى تكتم شديد ، وقال رعوف الأبو متهللا :

ــ هى فرصتى لكشف الستار عن المجرم ..

فقال آبو :

ــ أنت منتدب مرشدا له لا عليه !

ــ أنترك هذه الفرصة تفلت من أيدينا ؟

ــ لست مرشد شرطة يا رعوف ، انك مرشد روحى وهدفك أن ننقذ عانوس لا أن تسلمه للجلاد ..

ــ ولكنه مثل الصخر لا تؤثر فيه نسائم الحكمة ..

ــ انه اعتراف بالعجز ..

فهتف رعوف :

ــ كلا .. لم أقنط بعد .. ولكن ماذا على أن أفعل اذا استدعيت روحى ؟

ــ أنت حر فلا تقيد حريتك بالالحاح فى الاسترشاد ..

وانعقدت جلسة التحضير وشهدتها أم رعوف وأم رشيدة ورشيدة . واستدعت روح رعوف فحل فى ظلمة الحجرة وقال لأمه بصوت سمعه جميع الحاضرين :

ــ رعوف يحييك يا أمى ..

فشهقت المرأة لتوكدها من موت ابنها وتساءلت :

ــ ماذا حدث لك يا رعوف ؟ ..

فقال رعوف بلا تردد :

ــ لا تحزنى ، أنا سعيد ، لا يزعجنى الا حزنك ، تحياتى الى رشيدة ..

وسرعان ما غادر الحجرة ...

ورجعت أم رعوف وأم رشيدة ورشيدة وهن يتساءلن :

— لم لم يبح بسر مقتله ؟

فقالت أم رعوف وهى تجفف دمعها :

— ولكنه انعدم فى عز شبابه ..

فقالت رشيدة :

— لا تزعجيه بالحزن ..

وقالت أم رشيدة :

— من يدرى لعله مات فى حادث ..

— ولم لم يخبرنا بحقيقة موته ؟

— انه سره على اى حال !

واصبح شهود الجلسات هواية أم رعوف ، وسلواها الوحيدة فى الدنيا . وكانت تصحب أم رشيدة ورشيدة معها ، وعندما جاءت الأيام الأخيرة السابقة لامتحان رشيدة تخلفت عن الذهاب معهما ..

وفى ليلة من تلك الليالى وكانت بمفردها بالشقة وهى تذاكر اذ اقتحم الحجرة عليها عتريس قدرى الجزار . تسلل من المنور ثم اقتحم الحجرة . وهتف به رعوف أن ارجع ولا تتقدم خطوة واحدة ، ولكنه هجم على رشيدة وكتم الصوت فى فيها براحته وهو يقول :

— ستجرين بعد ذلك ورائى يا عنيدة ..

وشرع بوحشية فى اغتصابها وهى تقاوم بعنف يائس . وصرخ :

ـ سأغتصبكِ حية او ميتة ..

وصلت يدها الى المقص فوق الخوان وبقوة جنونية وهى مهتصرة تحت ثقله رشقته فى جانب رقبته . شد عليها بقسوة ووحشية ثم تراخت قوته فانطرح فوقها جسده بلا حراك وتدفق الدم الحارعلى وجهها وصدرها الممزق ..

دفعته عنها فاستلقى فوق الكليم المتهرىء وجرت مترنحة نحو النافذة وهى تصرخ بأعلى صوت ..

## – ١١ –

هرع الناس الى الشقة فوجدوها كالمجنونة مخضبة بالدماء . رأوا جثة عانوس فارتفع الصراخ . صاحت وهى تتكور على نفسها :

ـ اراد ان يغتصبنى ..

ولولا وصول الضابط وشيخ الحارة قبل أن يتناهى الخبر الى المعلم قدرى الجزار لفتك بها . وكان يزار :

ـ ابنى .. وحيدى .. ساحرق الدنيا ..

واحاطت القوة برشيدة وصاح الضابط :

ـ الجميع يخرجون فى الحال ..

وصاح قدرى موجها عاصفته الى رشيدة :

ـ سأشرب من دمك ..

وانتشرت نيران الخبر الدامى فى الحارة ..

## ـ ١٢ ـ

وقف عانوس يرنو الى جثته وهو فى حيرة غاشية . تقدم رعوف منه باسما فنظر اليه الآخر وتمتم :

ــ رعوف ! .. ماذا جاء بك ؟

فأجابه برقة :

ــ جاء بى الذى جاء بك ، هلم معى بعيدا عن هذه الحجرة ..

فأشار الى جثته وقال :

ــ واترك هذه ؟

ــ هى ثوبك القديم ولم يعد يصلح للاستعمال !

ــ هل .. هل .. ؟

ــ اجل .. لقد غادرت الدنيا يا عانوس ..

وصمت مليا ثم قال مشيرا الى رشيدة :

ــ ولكنها بريئة ..

ــ اعرف ذلك ، ولكنك لن نستطيع اسعافها .. هلم معى ..

فقال عانوس بعد تردد :

ــ آسف على ما اقترفته نبك !

ــ لا اهمية للأسف ..

ــ انى سعيد بلقائك ..

ــ وانى سعيد بلقائك ..

## - ١٣ -

وسرعان ما أعطاه فكرة سريعة عن دنياه الجديدة . ولما جاء آبو قال رعوف :

ــ آبو ، محاميك يا عانوس ..

فقال آبو مخاطبا عانوس :

ــ أهلا بك يا عانوس فى السماء الأولى ..

فتساءل عانوس بذهول :

ــ كتبت لى الجنة ؟ !

فابتسم آبو وقال :

ــ صبرك ، الطريق أطول مما تتصور ..

ومضى آبو يزوده بالمعلومات الضرورية عن عالمه الجديد ، والمحاكمة ، ونوعية الأحكام المتوقعة . وتمثلت لعانوس افعاله اشباحا قبيحة مفزعة فتجهم وجهه وتجرع القنوط حتى الثمالة ، غير ان آبو قال :

ــ على أى حال فان مهمتى هى الدفاع عنك ..

ــ وهل لديك فرصة لذلك ؟ .. هل يخفف من آثامى حرمانى من الحياة وأنا فى عز الشباب ؟

ــ لقد خسرتها بيد فتاة وهى تدفع عن شرفها اغتصابك ، ثم تركتها متهمة بقتلك ..

ــ هذا صحيح ، كم اتمنى أن أنتدب مرشدا روحيا لها !

ــ كانت ناجحة كما كان مرشدها ناجحا فليست هى فى حاجة اليك ..

ـ ايعنى هذا اننى هلكت ؟

ـ أبوك ولا شك يربض وراء فسادك ، هو الذى دللك ، هو الذى ملأك بالأنانية ، هو الذى جراك على كرامات العباد ، هو الذى يسر لك ارتكاب الجرائم كأنك تملك الدنيا بلا شريك ..

فقال عانوس منتعشا :

ـ نطقت بالحق !

ـ ولكنك تحاكم باعتبارك ذا عقل وقلب وارادة حرة !

ـ قوة أبى خدرت قواى جميعا !

ـ السماء تعدك مسئولا عن نفسك وعن العالم أجمع ..

ـ اليست مسئولية فوق طاقة البشر ؟

ـ ولكنك تحملتها مقابل ظفرك بالحياة .

ـ لقد ولدت بغير ارادة منى .

ـ بل اخذ عليك العهد وانت فى الرحم ..

ـ بالصدق والصراحة لا اذكر ذلك ..

ـ كان عليك أن تتذكره ..

ـ انها محاكمة لا دفاع ..

ـ علينا أن نكشف عن الحقيقة !

ـ لم أخل من خير فقد طلبت العلم كما أننى أحببت حبا صادقا .

ـ سعيت الى العلم كوسيلة الى مركز مرموق ، وكان حبك مجرد رغبة متعجرفة فى امتلاك فتاة صديقك الفقير ..

ـ لم تكن تفارق خيالى لحظة واحدة ..

ـ لم تكن الا كبرياء وشهوة ..

فقال عانوس متعلقا بأى خيط وهو يشير نحو رعوف :

ـ مارست الصداقة الصافية ..

ـ الم تقتلها بعد ذلك بوحشية ؟

ـ كان حزنى قاسيا ..

ـــ لا غبار على ذلك ..
ـــ وحبى للقطط وحنوى عليها ؟
ـــ هذا جميل أيضا .
وبعد صمت قليل عاد آبو يتساءل :
ـــ وماذا عن موقفك من جبروت ابيك .. ؟
ـــ كنت أبنا بارا !
ـــ البر لم يكن مطلوبا فى حالك ..
ـــ طالما استفظعت بعض فعاله ..
ـــ وطالما اعجبت بأفعال اخـــرى لا تقـــل عن الأولى فى بشاعتها ..
ـــ لو مد فى عمرى لتغير الأمر ..
ـــ انك تحاكم على ما كان ..
ـــ او أن أعطى فرصة أخرى .
فقال آبو بغموض :
ـــ ربما نهبأ لك ذلك ..
ـــ متى امثل امام المحكمة ؟
ـــ لقد تمت المحاكمة يا عانوس ويؤسفنى أن ابلغك بأنه قضى عليك بالاعدام ..
فى الحال تلاشى عانوس كنفحة الشابورة . تحت ضـــوء الشمس . ونظر رعوف الى آبو متسائلا :
ـــ هل استمر مرشدا له ؟
ـــ انه لن يولد من جديد فوق الأرض قبل عام على الأقل وقد ينظر اكثر من ذلك ..
ـــ وما عسى أن يكون عملى الجديد ؟
فقال آبو بأسى :
ـــ ستتقدم الى المحكمة من جديد !
فهتف رعوف :

ــ الم ابذل اقصى ما لدى من جهد ؟

ــ بلى ولكنك فشلت وقد اعدم رجلك كما رايت ..

ــ العبرة بالعمل لا بالنتيجة .

ــ العبرة بالعمل و النتيجة معا ، ثم انك اخطأت خطأ فاحشا ..

ــ ما هو يا آبو ؟

ــ لم يكن لك الا أن تحمله على الاعتراف بجريمة قتلك كأنها الجريمة الوحيدة فى الحارة او كأنها أكبر الجرائم !

ــ الم تكن مشكلته الاولى ؟

ــ كلا .

ــ فماذا كانت مشكلته ؟

ــ ابوه كان المشكلة ، لو حرضته على ابيه لاصبت اكبر الأهداف !

فلاذ رءوف بالصمت محزونا فواصل الآخر حديثه :

ــ لم تحسن اختيار الهدف ، غلبتك الانانية وانت لا تدرى ، ولم يكن يسيرا أن يعترف شاب أحمق مدلل ليضحى بحياته ، كان الأيسر ان يتمرد على وحشية أبيه ، ولو نجح فى مهمته لانفضح امر جرائم ابيه متضمنة جريمة قتلك ..

فقال رءوف مسلما :

ــ أعلنى بالحكم ..

فقال آبو :

ــ يؤسفنى يا رءوف ان ابلغك بأنه قضى عليك بالاعدام ..

وسرعان ما تلاشى رءوفة عبد ربة ..

## - ١٤ -

جرى تحقيق طويل مع رشيدة سليمان ، قدمت للمحاكمة ، اقتنعت المحكمة بأنها ارتكبت جريمتها دفاعا عن النفس فأصدرت حكمها بالبراءة . وجدت أمها أن من الخطر غير المأمون العواقب البقاء فى الحارة تحت رحمة المعلم قدرى الجزار فهربت مع ابنتها بليل ولم يستدل لهما على مكان .

ولما كان تيار الحياة المتدفق ابدا يجرف زبد الأحزان فقد تزوجت أم رءوف الوحيدة الفقيرة من شاكر الدرزى شيخ الحارة عقب وفاة زوجته بنصف عام ، وأنجبت له طفلا ذكرا أسمته رءوف تخليدا لذكرى فقيدها . ولم يكن رءوف الجديد الا روح عانوس بن عدرى الجزار قد لبست جسما جديدا . كذلك انجبت احدى زوجات قدرى الجزار طفلا ذكرا أسماه الرجل عانوس تحية لذكرى فقيده ولم يكن سوى روح رءوف تقمصت جسدا جديدا .

## - ١٥ -

نشأ رءوف ( عانوس ) فى بيت شاكر الدرزى الحافل بالاخوة والاخوات ، فى حياة ميسورة بفضل النقود التى يرشوه بها قدرى الجزار . ولكن شيخ الحارة لم يكن يعنى بتربية اولاده ، زوج البنات ، أما الصبيان فلم يجاوز احدهم مرحلة الكتاب فى تعليمه ، فعملوا فى شتى الحرف سواء فى الحارة او خارجها ، ولم يكن

حظ رعوف اسعد من اخوته . مى البدء أصرت امه على ان ينجح فى التعليم ، وأن يعيد سيرة أخيه الفقيد ، وبسبب من اصرارها تعرضت لزجر شديد من زوجها . وسرعان ما الحق ابنه عاملا صغيرا فى الطابونة ، وفرح رعوف بذلك اذ لم يجد من نفسه الميل الصادق او العزيمة المتوثبة لطلب العلم . وبتقدمه فى العمر مضى يدرك الوضع فى حارته : سطوة المعلم قدرى الجزار ، والدور الخسيس الذى يلعبه أبوه ، والحياة الفقيرة التى قضى عليه بها فى خدمة المعلم رشاد الدبش صاحب الطابونة . وقد زامل عانوس ( رعوف ) فى الكتاب ، ومال كل منهما الى صاحبه ؛ فاشتركا فى اللعب دهرا ، وتوطدت بينهما ألفة قوية ، غير أن الحياة فرقت بينهما رغم تجاورهما فى حارة واحدة . الحق عانوس بالابتدائية ، ثم الثانوية ، ثم دخل كلية الشرطة . ربما تلاقيا فى الطريق ، أو تقابلا فى بيت قدرى الجزار ورعوف يتلقى العجين أو يرجع بالارغفة ، عند ذاك يتبادلان ابتسامة عابرة ، أو تحية — من ناحية عانوس — فاترة . أدرك رعوف أن صداقة الطفولة ذابت وتبخرت ، وأن عالميهما متباعدان . وازداد شعوره حدة بتناقضات الحياة وتعاستها ، فحنق على عانوس ولكنه كره قدرى الجزار ورشاد الدبش ، واحتقر أباه . الحق لفحته نار الحياة ، ولكن ضرّمها ما يترامى الى أذنيه فى القهـوة من مناقشـات الشباب . حتى عانوس يجالس أولئك الشبان ويدلى برأيه فى حماس . وعند ذاك يبدو شابا غريبا ، متنافرا مع جو البيت الذى يعيش فيه ، ومتمردا على أبيه الجبار .

وجعل المعلم قدرى الجزار يراقب نمو ابنه بقلق . انه نبت جديد شرس ، غريب مثير للمخاوف ، أو كما قال عنه مرة « ابن حرام » .

ومرة سأله :

ـــ ماذا تقول فى القهوة للأوباش وماذا يقولون لك ؟

فأجاب عانوس بأدب :

ـــ نتبادل الهموم يا أبى ..

ـــ انهم أعداؤك ..

فقال باسما :

ـــ انهم أصدقائى ..

فهتف الأب بغضب :

ـــ اذا جاوزت حدك فستجدنى شخصا آخر لا يعرف الرحمة ..

وقال فدرى الجزار لنفسه ان ابنه سيصير عما قليل ضابطا ، سيعقل ويعرف موضع قدمه ، ثم يتزوج وتنتهى مشكلاته .

وتخرج عانوس ضابطا ، وعين فى قسم الحى بفضل ابيه وسعيه عند الكبراء .

## - ١٦ -

انه الزمن الذى جعل من رعوف وعانوس شخصين غير متوقعين . اكتسح الحارة تيار ، بل تيارات جديدة ، متمردة واحيانا ثائرة . لذلك مرقا من جو البيت الخانق واستعار كل منهما لنفسه شخصية جديدة . ولم يشعر احد بخطورة عانوس قبل ان يصبح ضابطا . أجل وقعت مشاغبات متباعدة بينه وبين ابيه ولكن الأب توقع ان يتغير كل شىء لصالحه حال اندماج ابنه فى حياته الرسمية ، أما رعوف فسرعان ما غضب عليه معلمه رشاد الدبش ، فلطمه على وجهه وصاح به :

ـــ احرص على رزقك ولا تحرض اقرانك على الفساد ..

ولولا منزلة ابيه ـــ شاكر الدرزى ـــ كشيخ حارة لفصله من

عمله ولكنه شكاه اليه فدهش الرجل لهذا العصيان الجديد فى نوعه وادبه بعلقة ساخنة . ولما آنس منه عنادا استعان بحضرة الضابط عليه ، قال له :

ــ يا فندم هدده بالقانون فهذا خير من أن نضطر الى القبض عليه غدا ..

هكذا مثل رءوف أمام صديقه القديم عانوس . تبادلا النظر طويلا . ثمة ذكريات مشتركة أفعمت « جوهما » بالدفء . ابتسم عانوس وسأله :

ــ كيف حالك يا رءوف ؟

فأجاب رءوف :

ــ قطران ، بعيد عنك ..

ــ كان عليك أن تستمر فى تعليمك ..

ــ انه ابى وما مضى قد مضى .. !

فشحن صوته بجدية وهو يقول :

ــ احرص على رزقك فالقانون لا يرحم ..

فقال رءوف بنبرة ذات معنى :

ــ معلمى شره ولا رحمة فى قلبه ..

فقال عانوس بصوت منخفض :

ــ احرص على رزقك ..

وعقب ذلك سعى عانوس لاتخاذ اجراء هز وجدان الحارة وزلزل اباه فقد نقل شاكر الدرزى الى حارة اخرى واحل محله شيخ حارة جديدا اهلا للثقة يدعى بدران خليفة . ثار الأب قدرى الجزار ثورة عنيفة فقد خسر اليد التى تحميه من القانون ، وسأل ابنه :

ــ كيف يحصل هذا وأنت ضابط القسم ؟

فقال له عانوس :

ـ فى ذلك حماية لك وللناس !

ـ انك ابنى وعدوى يا عانوس ..

ـ أعلم يا أبى بأنى ابنك البار ..

كان لكل لغته الخاصة به ، واستحال التفاهم بينهما ، واغبر وجه البيت بالتراب الاسود ..

## — ١٧ —

وجاءت امرأة لمقابلة عانوس فى القسم . عندما وقعت عيناه على صورة وجهها جاش صدره بنغمة جديدة وعذبة . بديعة هذه السمرة الرائقة وهاتان العينان اللوزيتـــان السوداوان . كأن الصورة قد رسمت على هواه من أجل هواه . لعلها فى الخامسة والثلاثين او تزيد ، فهى أكبر منه بحوالى عشرين عاما . فى عينيها رصانة تقارب الكآبة . قالت :

ـ انى اطلب حمايتك !

سألها عن هويتها فقالت :

ـ اسمى رشيدة سليمان ، مدرسة ، نقلت حديثا الى مدرسة العهد الجديد بالحى ..

هذا الاسم ، هل مر ذات يوم بشبكة ذاكرته .. سألها وعيناه تحدقان فى وجهها بشغف :

ـ مم تخافين ؟

ـ انه تاريخ قديم ، قد أتعرض بسببه لاعتداء على حياتى ..

ـ حقا ؟ ،ما التاريخ ؟ ، ومن المعتدى ؟

فقالت بعد تردد :

ـ قضية قديمة برئتمنها ، كانت فى حال دفاع عن النفس ، ولكن والد القتيل رجل مخيف وله أعوان مجرمون ..

اقتحمته الذكرى القديمة التى سمعها تتردد فى صباه كعاصفة ، شد على أعصابه ليملك نفسه المشتتة . انه أمام قاتلة أخيه عانوس الأول . ها هى تفتنه كما فتنت أخاه من قبل وواصلت رشيدة حديثها :

ـ هربنا الى امبابة ، عملت مدرسة فى الأقاليم ، واذا بى أنقل فجأة الى الحى القديم ..

صمت مطحونا بدوامة انفعالاته ، لم يسألها عن اسم الرجل المخيف ، ولكنها قالت :

ـ أما الرجل فمعروف عندكم ، انه المعلم قدرى الجزار ..

استرد نفسه بجهد شديد متسائلا :

ـ حضرتك متزوجة ؟

ـ لم أتزوج قط ..

ـ لم لم تشرحى ظروفك للمنطقةالتعليمية .. ؟

ـ لم يهتم بى أحد ..

ـ أين تسكنين ؟

ـ ١٥ شارع الدرى ، امبابة ..

فقال بهدوء :

ـ لطمئنى ، سأخاطب المنطقة بنفسى ، واذا تباطأت فسأعمل على حمايتك ..

تمتمت بحرارة :

ـ شكرا .. لا تنسنى من فضلك !

كلا . ليس من المستطاع نسيانها !

## — ١٨ —

لم يجد عانوس صعوبة فى الغاء النقل . وبنفسه ذهب الى البيت رقمَ ١٥ بالدرى بامبابة . الوقت أصيل ، والنيل شبه ساكن ، ومن فوق سطحه تتهادى لفحات باردة . استقبلته رشيدة بدهشة ممزوجة بسرور وأمل ثم قادته الى حجرة استقبال صغيرة وبسيطة ومهندمة . قال :

ــ معذرة عن الزيارة ، ولكنى اردت أن أسارع بطمأنينتك بالغاء النقل !

ــ الف شكر يا فندم ..

أمرت له بقهوة فتهيأ له البقاء فترة كما أمل .

ــ تعيشين مع والدتك .. ؟

ــ أمى ماتت منذ عشرة أعوام ، معى شغالة عجوز وطيبة .. يا للخسارة انها عانس ولكنها محتفظة بروائها ..

ــ هل يزعجك أن تعرفى أننى عانوس قدرى الجزار ابن الرجل المخيف ؟ !

ذهلت . تلون وجهها الاسمر فاكتسى بعمــق . لم تنبس بكلمة ..

ــ انى ألمس انزعاجك ..

فقالت بنبرة متهدجة :

ــ مجرد دهشة ..

ــ أرجو الا تكرهينى ..

فقالت بحياء :

ـ انك انسان ..

ومضى يحتسى القهوة وهو يختلس منها النظرات ، ثم قال ضاحكا :

ـ لست مخيفا كوالدى !

ـ انى واثقة من ذلك ..

ـ حقا ؟!

ـ الأمر واضح جدا ، والحق أنى بريئة !

فقال بهدوء :

ـ انى واثق من ذلك ..

ومواصلا بعد صمت :

ـ ولكنه ثمة شىء يحيرنى ؟

فرمقته بنظرة متسائلة فقال :

ـ لم لم تتزوجى ؟!

فنظرت بعيدا مليا ثم قالت :

ـ رفضته أكثر من مرة ..

ـ ولكن لماذا ؟

ـ لا أدرى ..

ـ بسبب حب الآخر ؟!

ـ ولكنه نسى ككل شىء !

ـ لابد من سبب !

ـ ليس الدم بالتجربة الهينة ، لعلى يئست من القدرة على اسعاد أحد ..

ـ أمر مؤسف ..

ـ لعل الخير فيما كان ..

فقال متعمدا :

ـ ما زلت شابة وجميلة !

فى طريق عودته سبح فى أجواء خيالية ، كره الضرورة التى تبعده عن البيت ١٥ وعن امبابة ، وقال لنفسه : « انى احب رشيدة » .

## — ١٩ —

وقف الجفاء سدا منيعا بينه وبين ابيه . حزنت لذلك امه حتى الموت . أصبح البيت كئيبا مثل جحر فئران . هل سعى الى النقل الى اقليم ؟ . وامبابة ؟ ! . ماذا يحدث لو عرف ابوه العاطفة المتأججة فى صدره ؟ . تراءت له فكرة طارئة وهى انه خلق عقابا لابيه . والا فما معنى ان يعلن عليه حربا سرية مذ وعى ما حوله ؟! . يا له من أب خليق بالرفض المطلق . انه لموقف مؤسف ومحزن . خاصة وان الرجل أحبه كل الحب . بقدر ما هو وحش فظ فى الخارج فهو اليف مستأنس بين جدران بيته . وهو لا يتصور شذوذ نفسه . يؤمن بأنه يمارس حقوقه الطبيعية ، حقوق الذكى القوى . نهمة للمال والسطوة غير محدود . اعتاد الاجرام كأنه تحية الصباح . حدوب على اعوانه وكريم حتى السفه . أما الكادحون ممن يبتز نقودهم ويحتكر اقواتهم فيحتقرهم وهو لا يرحم من يحتقر . وسيمقته يوما فيمحق أبوته . الأدهى من ذلك أنه دمغ امه بطابعه فهى تعبد قوته . وكلما ارتكب اثما استغرقتها العبادات ولكنها تعبده . انه — عانوس — يقيم فى عرين ، فى معبد للقوة والخطايا .

وتعقدت الأمور ، وقذفت من جوفها مواقف متحدية ، فقد ضبط اعوان لابيه وهم يبتزون نقودا من عمال الطابونة . سرعان

ما ألقى القبض عليهم لأول مرة فى تاريخ الحارة . انفجر ينبوع فرحة ضاحكة فى الحارة وثار بركان فى بيت قدرى الجزار . لم يعد البقاء ــ لعانوس ــ محتملا . قرر الذهاب . اهتز جذع امه وهى تبكى وتقول :

ــ لنه الشيطان ..

فلثم جبنها وذهب . واستأجر شقة صغيرة فى امبابة ! . وقال لنفسه ان القضاء على اعوان ابيه هو قضاء على طاقته الشريرة . سيعجز عن الايذاء وتفلت الحارة من قبضته الجهنمية . وكان يدعو الله الا بضبطه ــ اباه ــ متلبسا بجريمة مباشرة . والظاهر أن الرجل صمم على مقابلة التحدى بتحد مثله قبل أن ينهار جداره . ففى نفس الليلة نشبت معركة بين الأعوان ، وبين عمال الطابونة ، واصيب رءوف اصابة بالغة غير انه اغتال المعلم قدرى الجزار قبل أن يلفظ انفاسه .

أحداث متتابعة متفجرة ، زلزلت بها الحارة زلزالا ، فانغمست ى الدم ، ولكن تبددت الظلمات ..

## ــ ٢٠ ــ

وجد قدرى الجزار نفسه أمام آبو ، وسمعه وهو يقول له :

ــ اهلا بك يا قدرى فى السماء الأولى ..

ومضى يعرفه بنفسه وبالمكان . لاحظ ان قدرى شارد اللب ثقيل النظرة فقال له :

ــ كأنك لم تقطع أسبابك بالأرض بعد ؟

ــ شىء يثقل على صدرى ..

ـ انتبه .. انك تعرف الآن مصيرك ..
ـ اجل ، ولكنى ما تصورت أن يقتلنى ولد مثل رعوف ! .
ـ ذاكرتك الجديدة لم تنبعث فيها اليقظة بعد ..
تبدت الحيرة فى أسارير قدرى الجزار ، ومضى يفيق رويدا رويدا حتى ندت عنه آهة عميقة وابتسم آبو وتساءل :
ـ أعرفت من هو الولد رعوف .. ؟
فقال قدرى بأسى :
ـ قتلنى ابنى عاتوس !
ـ اجل ، وماذا كنت قبل ذلك ؟
ـ ادولف هتلر !
ـ وقبل ذلك ؟
ـ بردونى قطاع الطرق بأفغانستان !
ـ سجل اسود طويل ، لماذا تستعصى على الترقى وتهدر الفرص المتاحة ؟ .. ابنك افضل منك ، كثيرون أفضل منك ..
فقال بانكسار :
ـ لن يذهب هذا الدرس سدى !
ـ ولكنك حتى مثولك بين يدى لم تكن قطعت اسبابك بغرائز الارض .. !
ـ لم أكن قد افقت بعد .
ـ عذر اقبح من الذنب ، فيم تأمل ؟
ـ آمل ان انتدب مرشدا !
ـ هل لديك دفاع عن سلوكك فى الارض ؟
ـ نعم ، لقد بدأت تاجرا صالحا ، وما أطمعنى فى الناس الا ضعفهم وتهاونهم ونفاقهم ، فاستعذبت القوة والطغيان ولم أجد رادعا ..
ـ انهم سيعاقبون على ضعفهم وتهاونهم ونفاقهم كما ستعاقب على استغلالك لحالهم ..

ـ وقتلى بيد ابنى الحقيقى ألا يكفر عنى سيئاتى ؟ .
ـ لا قيمة لهذه العلاقات هنا ، وكم قتلت من أبناء واخوة وانت لا تدرى !
ـ على أى حال فأنا لم أخلق طبعى ولا غرائزى ..
ـ انك مالكها الحر ولم تحد حريتك فيها حدود ..
فقال بتوسل :
ـ احسن دفاعك عنى ولك ما تشاء !
فضحك آبو وقال :
ـ ما زلت لاصقا بالارض ، وهو الاثم الذى لا يغتفر !
ـ ماذا تقول عن المحاكمة ؟
ـ لقد انتهت المحاكمة يا قدرى ، وقضى عليك بالاعدام ..
وسرعان ما تلاشى قدرى الجزار !

## ـ ٢١ ـ

وتلقى آبو رءوف وهو متلفع بسحابته البيضاء ، وجرى تعارف قصير فتجلى التساؤل فى عينى رءوف . وقال له آبو :
ـ أهلا بك فى السماء الأولى ..
ومضى يزوده بالمعلومات الضرورية ، ثم سأله :
ـ كيف جئت الى هنا ؟
ـ قتلت فى معركة .
ـ ولكنك قتلت قاتلك أيضا ..
ـ هاجمته وأنا مطعون ، لا أدرى شيئا بعد ذلك .
ـ للمرة الثانية تجىء قاتلا ومقتولا ..
ـ حقا ؟

ـ انى أعلم ما أقول .
ـ ماذا كان جزائى فى المرة السابقة ؟
ـ الاعدام ..
فتساءل رءوف بقلق :
ـ هل يتكرر ذلك ؟
ـ ماذا تريد أنت ؟
ـ كنت أخوض معركة عادلة وقتلت شيطان حارتنا ..
ـ هذا حق ..
فتهلل وجه رءوف وتساءل :
ـ هل آمل فى البراءة ؟
ـ مما يؤخذ عليك كسلك عن طلب العلم !
ـ ما أقسى الظروف التى عانيتها ..
ـ هذا حق ولكننا نقيم الفرد من خلال صراعه مع ظروفه ..
فتجلى الأسى فى وجه رءوف فقال آبو :
ـ انك ولد طيب ولكن الصعود الى السماء الثانية مطلب عزيز ..
ـ الا يشفع لى ما فعلت ؟
ـ لقد سمع كل شىء ، وصدر الحكم بندبك مرشدا ..
فسلم رءوف بالحكم راضيا فقال آبو :
ـ بشرى أخرى ، ستندب لارشاد عانوس ..
ـ ضابط الشرطة ؟
ـ أجل ، وسلوكه يبشر بالخير مما يضمن لك عاقبة سعيدة ..
ـ هى السماء الثانية فيما أعتقد ؟
ـ أجل ..
ـ أهى الجنة الموعودة ؟
فابتسم آبو وقال :

— توجد سبع سماوات منذورة لخدمة أهل الارض فلم يئن الأوان للتفكير في الجنة !

— وكيف يتم الصعود من سماء الى سماء ؟

— من خلال المحاكمات المتتابعة ..

فتساءل رءوف في ذهول :

— وهل نعفى من الكفاح بعد السماء السابعة ؟

فابتسم آبو وقال :

— هذا ما يقال عادة على سبيل التشجيع والعزاء ولكن لا يوجد عليه دليل واحد !

ومضى به في انسياب عذب غنائى ، يغوصان في أمواج مقطرة بيضاء ، فوق خضرة متألقة لا حدود لها ..

# الحبُ فوق هضبة الهَرم

- ١ -

اريد امراة . اية امراة .

انها صرخة مدوية ، انبعثت اول ما انبعثت من جوانحى على هيئة همسات من الذهول . همسات من الأنين . همسات من الغضب . ثم انفجرت صرخة مدوية . ما هي بالأنانية . ما هي بالبهيمية . ما هي باللامبـــالاة . انى ازعم بأنى مواطن بدرجة مقبولة ، بل انى ايضا انسان بدرجة لا بأس بها . راسى شهد حوارا طويلا عن الفقر والتخلف والسلام والديمقراطية والتموين والمواصلات والطرق . به موضع ايضا لهمـــوم الأسرة الكبيرة كالصراع بين الشرق والغرب ، تلوث البيئة ، نضوب المواد الاولية ، العلاقة بين العالم المتطور والعالم الثالث ، احتمالات الحرب النووية ، اذن فالوعى آخى بينى وبين المواطن والانسان . غير اننى لم اعد افكر بشىء من ذلك . أو أن تفكيرى به فتر وتقهقر وذاب فى اللامبـــالاة . انجم ذلك عن خمـــود فى العاطفـــة أو الفكر أو التعلق بالحياة ؟ . كلا واقسم على ذلك . المسألة اننى ما ان ختمت حياتى المدرسية حتى التحقت بالوظيفة ومن ثم خبرت الفراغ والبطالة . عند ذلك تضخمت همـــومى الشخصـــية ، استأثرت بوعيى كله ، ركبتنى ، اجتاحتنى ، استعبدتنى ، أصابتنى بالهوس . باتت اى مشكلة سواها ترفا ، لهوا ، سخفا . الجنس أصبح محور حياتى وهدفها . انقلب وحشا ذا مخالب وانياب . قوة مطاردة مهددة . يطالب بالممكن ويطمح الى المستحيل . خلق منى كائنا جنسيا خالصا . ذا حواس جنسية ، وأخيلة جنسية ،

وآمال جنسية ، واحلام جنسية . على ذلك فانني أبعد ما يكون عن الاستهتار أو المجون ، رافض للاباحية وفلسفاتها . أروم الحياة الشرعية المستقرة . التمس اليها الوسيلة بلا شروط متهورة أو طموح كاذب أو طمع قبيح . أنشد حقا حيويا أوليا لا ادرى كيف أهتدى اليه .

ولكن من أنا ؟

## — ٢ —

على عبد الستار ، فى السادسة والعشرين من عمرى ، ليسانس حقوق ، موظف بالشركة ا. د. س . ولدت مع الثورة ، ناهزت الحلم عام ١٩٦٧ المشئوم ، نلت ليسانس الحقوق عام ١٩٧٤ ، الحقت بالشركة عام ١٩٧٥ ، كنت من حملة الثانوية علمى ، وكان أملى أن اتخصص فى الصيدلة أو الكيمياء . خانني المجموع ، حملنى تيار التنسيق الى كلية الحقوق بشهادتى العلمية . ما خطر لى ابدا أن أدرس القانون ، ولكننى نجحت بقوة الارادة ، اكراما لعناء أسرتى المكافحة ، خوفا من التشرد والجوع . ولما الحقت بشركة ا.د.س. عينت بادارة العلاقات العامة . غنى عن البيان أننى كنت زائدا عن الحاجة . خيل الى ان الزائدين اكثر من العاملين . وقال لى وكيل الادارة :

— احجز كرسيا .

ثم قال بنبرة ساخرة :

— قد يتعذر ذلك غدا .

— منظرك مقبول ، تصلح للعلاقات العامة ، ولكنك ستبقى بلا عمل حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا .

فقلت بهدوء :

ـــ عندى فكرة عن كل شىء .

ـــ عظيم . ستبقى ايضا بلا مكتب حتى نراجع المخازن ، اصبحنا فى حاجة الى حجرة اضافية ، لماذا لا يسمحون للموظفين الجدد بالبقاء فى بيوتهم مع الاحتفاظ لهم بحقوقهم فى العلاوات والترقيات ؟

فقلت بغيظ مكتوم :

ـــ اقتراح وجيه جدا !

ـــ ولكن لابد من التوقيع فى دفتر الحضور والانصراف .

هكذا التحقت بالخدمة وهكذا استقبلت عهدا من الفراغ المطلق لا خبرة لى به من قبل ، فيما مضى استأثرت الدراسة بحيويتى ، ولم تخل العطلات من الاطلاع وانشطة الشباب . الى ذلك فقد انتفعت بنشأة اسرية دافئة تعبق بعطر الدين والقيم . ولما انبثق الجنس استطعت أن أروضه بالخلق والعمل والأمل . اما فى عصر الفراغ فقد انفرد بى ، كما انفرد بى الزمن فى جريانه ، وتساءلت متى . . وكيف . جلست على الكرسى كمن ينتظر دوره فى تحقيق . اراقب اقرانى العاطلين ، وآخرين يذهبون بالأوراق ويجيئون ، وامرأتين كهلتين متزوجتين ، بين نوافذ مغلقة لتصد تيار الخريف البارد ، فى جو فاسد بأنفاس البشر والسجائر ، ومن زجاج النوافذ اتطلع الى شرفات العمارة المقابلة مترقبا ظهور أنثى . وطيلة الوقت اتخيل مناظر جنسية ومواقف ، واخوض مغامرات غاية فى البراعة والعذاب . وسمعت حوارا بين الوكيل وزميل له من معارفة :

ـــ كيف وجدت الفراغ ؟

ـــ لا يطاق .

ـــ على ايامنا كانت الوظيفة حلما عزيز المنال فاذكروا نعمة الله عليكم .

ــ وما قيمة النقود ؟

ــ هى خير من الشارع !

تبادلت مع الزميل ، عقب ذهاب الوكيل ، نظرة شاحبة مثل جو الحجرة وقلت له :

ــ هنيئا لنا فنحن محسودون ..

وتعلمت أن أتسلل الى شارع قصر النيل مع الضحى . تعلمت الصعلكة . انها مسلية ومفيدة ومنشطة فى الجو الآخذ فى البرودة . وهى مضحكة أيضا وهى تخوض فى بحر متلاطم الأمواج من البشر والسيارات والأصوات المزعجة . طابعه ــ الشارع ــ الضيق والعصبية والكبت . كل شىء يريد أن ينطلق ويعجز عن الانطلاق يستوى فى ذلك الانسان والسيارة . الكبت والقهر والتذمر . الطريق يعانى من أزمة جنسية مثل أزمتى . انه يفتقد الشرعية والحرية والاشباع . ومع ذلك فهو مغطى بالتراب كأنه يتهادى فى مدينة خيالية . ولكنى لم أعن الا برصد النساء . هن همى وشغلى وحياتى ومماتى . وجعلت أبل ريقى الجاف بمضغ اللبان . وتنتقل نظراتى المحمومة من السيقان الى الصدر الى الأعين . وكدت أفقد حياتى ذات مرة . كنت أهم بعبور الطريق حين اقتحمنى صدر ناهد فسحرنى واستولى على . قذف بى فى أعماق الهو . اندفعت الى العبور دون أن التفت يمنة كما ينبغى لى . واذا بسيارة تنقض على كالقذيفة . نظرت نحوها فأيقنت بالنهاية . لا وقت للرجوع ولا للتقدم . استسلمت استسلاما نهائيا وتقوس ظهرى لتلقى الضربة القاضية . تجلت لى حقيقة الموت لا كفكرة مجردة مسلم بها ولكن كشعور يملأ الوجدان بثقله وقوته واقناعه . صرخ بى أن هكذا أجىء عندما يتقرر ذلك وهكذا تنتهى الحياة فى غمضة عين . خيل الى أنى رأيت وجهه مجسدا فى اللحظة الخاطفة التى لا يكشف عن وجهه الا فيها . وحيال نظرته الواثقة مر بسرعة البرق شريط حياتى

من المهد الى اللحد . لا وجهه ادرى كيف اصفه ولا حياتى أدرى كيف رأيتها مجتمعة فى اقل من ثانية . وبلغ الخوف الدرجة التى يفقد فيها الشعور بذاته . لكنه اختفى بمعجزة . انحرف السائق بالسيارة ببديهة مذهلة فصعد الطوار مهددا حيوات وأوشك أن يصطدم بالجدران . ماذا حدث لى وماذا حدث للآخرين ؟ . سبحت فى ذهول اعفانى من متاعب جسيمة . مرت دقيقة على الأقل قبل ان ادرك أن الطريق كله يلهبنى بنظرات السخط والغضب . ثمة صياح وتعليقات شتى .. السائق لصق السيارة ويقذف بالسباب كالمطر . مضيت مترنحا افر بنفسى فرارا . كنت أعانى آلام الخروج الى الحياة من جديد . وأعانى من مرورى الخاطف فوق ثلاثة معابر متناقضة هى شهوة الجنس ومقابلة الموت ومفاجأة النجاة . وأحدثت برودة النجاة الملقاة على نيران الفزع أثرا عنيفا تعانق فيه السرور المتألق والحزن العميق . مضيت أسير حتى وقفت لأسترد أنفاسى بعيدا عن موقع الحادثة . حتى فى ذلك المكان لم افلت من عينى عامل من عمال الطرق فقال لى بسخط واضح :

ــ مسطول ؟ .. بسبب امثالك يتعرض السواقون المساكين الى متاعب المحققين ، لا تنس انك مدين بحياتك للسائق ..

تضاعف ضيقى وقلت كالمعتذر اتقاء لسخطه :

ــ انها الهموم .

فصاح محتجا :

ــ الهموم ! .. ماذا تعرفون عن الهموم ؟ !

ذهبت مبتعدا وقد نسيت أزمتى الجنسية وقتا غير قصير . ولكنه غير طويل ايضا . حذرت نفسى من سحر المناظر . وقلت لنفسى انها التعاسة حقا أن يفقد الانسان حياته لسبب كهذا . انها محنة . ولكن ما العمل ؟ . لا يغيب عنى ما يقال عن الزواج وتكاليفه . المهر والشقة وخلو الرجل . يلزمنى قرن من الزمان

لاقتصد نفقات زيجة عادية . انه طريق مسدود تماما . اجل ان الأيام تمضى والصبر يفقد ولذلك هان على ـــ رغم تقاليد تربيتى الراسخة ـــ ان أفكر فى « الحرام » كضرورة لا مفر منها دفاعا عن صحتى الجسدية والنفسية . شاورت فى ذلك صديقا قديما من اهل الخبرة فقال لى :

ـــ الفرص اكثر من أن تحصى .

ولما انس منى اقبالا شديدا سألنى :

ـــ هل عندك فكرة عن الأسعار ؟

ومضى يستعرض الفرص والأماكن والمراتب ويذكر الأسعار حتى قلت فى ذهول :

ـــ غير معقول !

فقال باسما :

ـــ العرب والتضخم والانفتاح ! .. هل ادلك على ارخص سبيل ؟

فسألته عنه بلهفة فقال :

ـــ لعله الزواج !

وقلت لنفسى انه الحزن ولا شىء الا الجنون ..

## ـ ٣ ـ

اسرتى ايضا مصدر هم لى لا ينقضى . فى متاعبها الظاهرة ما يكفى فيمنعنا الحياء من نبش متاعبها الخفية . أبى يقترب من سن المعاش فنحن فى سباق مع الزمن . أمى كيميائية ، لأنها درست الكيمياء فحظها من التعليم وقف بها عند الابتدائية ، ولكن للأعاجيب التى تصنعها لتوفر لنا الطعام اليومى . وهى تقلب

الملابس وتصبغها وترفوها وتجددها وتجعل بعضها ملكية مشاعة والبعض الآخر ملكية متوارثة وتصنع من البطاطين القديمة أروابا للأيام الباردة . والمساعدة التى جاءت نتيجة لالتحاقى بالعمل التهمها الغلاء المتصاعد . وانى انظر الى شقيقتى مها ( الآداب ) ونهى ( الثانوية العامة ) برثاء ، ويحزننى منظرهما البسيط المتقشف . انهما محرومتان من أشياء تعتبر فى سنهما ضرورية لا كمالية ، رممنوعتان ايضا من الشكوى ، التى تضيق بها أمى فيرتفع صوتها الحاد :

ـ حالتنا أفضل من غيرنا ألف مرة .

على ذلك فايجار شقتنا قديم دون الأربعة جنيهات بقروش ، ومهما قيل فى شارع شمردل بروض الفرج فهو مسقط رءوسنا جميعا . لذلك لا يكاد أبى ينعم بضحكة صافية . وداب على تذكيرنا بمصيره فيقول :

ـ لم يبق الا عامان ثم المعاش !

وينظر الى شقيقتى ويقول :

ـ النجاح .. النجاح ..

لقد نحل الرجل كأنما يجف رويدا رويدا ، وزاد من ضآلته قصر قامته ، ولم يكد يبقى أثر من وسامته الأصلية . الوسامة خاصية لأسرتنا مثل الفقر . وهو لا يدخن ، كما انقطع عن المقهى منذ اعوام . وكما يقال ، فهو من البيت الى وزارة المواصلات ومن وزارة المواصلات الى البيت . وتسليته الوحيدة يجدها فى تبادل الزيارة مع جار قديم ـ مدرس قديم ـ مدرس لغة عربية على المعاش ـ يسامره ويستفتيه أحيانا فى بعض الشئون الدينية . وكان يقول :

ـ منذ أعوام كان رجل مثلى ذو مرتب يجاوز الستين جنيها شهريا يعد من الموظفين المنعمين ولكن الدنيا جنت ..

وكان مما يحز فى نفسه أنه ضيع فرصة زواج لا بأس بها على مها . يومها قال بأسى :

ــ ما باليد حيلة ، لكن المهم هو العلم والعمل ، بعد ذلك تتحسن الظروف والأحوال ، نحن لا نملك بالكاد الا قوت يومنا .

فقلت له :

ــ الاسعار ترتفع ونحن ننخفض .

فقال باسما ابتسامة لا معنى لها :

ــ كنا طبقة وسطى فأصبحنا من الطبقة الدنيا ..

فقلت بحدة :

ــ نحن الفقراء الجدد فى مقابل الأغنياء الجدد .

فحدجنى بنظرة تصدنى عن الاسترسال وقال :

ــ لا تستسلم للسخط فهذا مما يزيد الحياة تعاسة ، وحذار ان تردد ذلك امام مها ونهى !

فقلت مصرا :

ــ الزواج حق مشروع ، ترى كيف يفكران يا أبى ؟

فتجهم وجهه وقال :

ــ لقد أحسنت تربيتهما ، امك صاحبة فضل أيضا ، نحن أسرة شريفة والحمد لله ، وغدا يتوظفان ويبتسم الحظ !

ــ لقد شهدت برنامجا فى تلفزيون المقهى يقطع بأن المتسولين خير حالا منا ..

ــ ولكنهم يتسولون ونحن نخدم الدولة !

لم تستطع الاحوال أن تقتلع بقية العزة من نفسه ، كما ان امى تعبر أحيانا عناد الحاضر متطلعة الى آمال غامضة وراء الأفق .

وقلت مواصلا حديثى :

ــ انى أتابع انباء الأفراح فى الفنادق بذهول .

فتساءل بحدة :

ـــ وأى فائدة تجنيها من وراء ذلك ؟ ، يوجد أغنياء منحرفون كما يوجد شرفاء ، ولا شيء يدوم فى هذه الدنيا .

ثم بنبرة أرق :

ـــ أتدرى ما هو حلمى ؟

ثم أجاب قبل ان أنبس :

ـــ أن تعملوا ذات يوم فى الخارج ، انه حلم وما هو بالحلم . .

— ٤ —

الهجرة ! . انهم يدعون أهل المهن والحرف وأنا لا من هؤلاء ولا من أولئك . وما فرصة الحتوتى ؟ . انها نادرة جدا . فضلا عن ذلك فانى أمقت القانون ، وها أنا أنساه فى بطالتى الرسمية دون أسف . وكنت أتسكع فى وسط البلد لا أدرى أين بلغت فى تسكعى عندما لمحت ــ فى مقهى الحرية ـــ الصحفى القديم عاطف هلال . كان منفردا بنفسه للراحة أو التفكير فمضيت نحوه بقرار مرتجل وبجراة لا تعوزنى . وقفت أمامه حتى أنتبه الى فراح ينظر نحوى بعينين مستطلعتين وقد تجلى الكبر فى صفحة وجهه أكثر مما يبدو فى الصور التى تنشرها الصحف له . قلت :

ـــ معذرة عن تطفلى ، أنا أحد قرائك . .

فتمتم بصوت محايد :

ـــ أهلا .

ـــ تسمح لى بدقيقتين من وقتك الغالى ؟

ـــ تفضل .

جلست ثم قلت :

ـــ حرصا على وقتك سأدخل فى الموضوع رأسا ، المسألة أنى واقع فى أزمة شديدة ..

غامت نظراته بغشاء خفيف من الفتور فخشيت ان الذى تبادر الى ذهنه انها أزمة مالية وأننى سأطالبه بمعونة فقلت بصراحة :

ـــ انها أزمة جنسية !

توارت الغشاوة وراء يقظة طارئة وتساءل :

ـــ جنسية ؟ !

ـــ جنسية بكل معنى الكلمة .

فما تمالك أن ابتسم قائلا :

ـــ لعلك اخطأت الرجل المناسب !

فقلت جادا :

ـــ الرجل المناسب لم يعد مناسبا لأمثالى لذلك قصدت الرجل المفكر !

فثبت نظارته ليدارى انفعاله وقال :

ـــ يبدو لى انك فريسة تجربة عاطفية مريرة ..

ـــ انى اتسول تجربة فلا اجدها .

ـــ شيء جديد تماما .

ـــ المسألة بكل بساطة ان الزواج مستحيل وسيادتك سيد العارفين ، والانحراف أصبح خيالى التكاليف بفضـــل اخواننا العرب .

فتجلى الاهتمام فى عينيه فتساءلت :

ـــ هل تصدق أننى بلغت السادسة والعشرين من عمرى ولما أمارس الجنس ولو مرة واحدة ؟ !

ـــ اصدقك ولو ان شكلك مقبول جدا .

ـــ ولكنى مرفوض موضوعا .

قبض على ذقنه فى حيرة وصمت فسألته :

ـــ ما الحل يا أستاذ ؟

فتمتم جادا :

ـــ انها مأساة ولست ضحينها الوحيد ..

ـــ وما العمل ؟

ـــ يا له من سؤال ! ..

ثم مواصلا حديثه :

ـــ لا يوجد جواب جاهز ، يمكن أن ننتقد تقاليد الزواج السخيفة وندعو الى الهجوم عليها ، يمكن أن نتحدث عن واجب وزارة الاسكان ، يمكن أن نتحدث عن مشكلة الاثاث ..

ـــ وهل أنتظر أنا حتى يتم هذا الاصلاح ؟

ـــ ماذا أقول ؟ ، كم من أجيال أجهضت فى تاريخ البشرية !.. وكما أن ملايين من الشباب سعدوا بمعاصرتهم لاكتشاف العالم الجديد فقد هلكت ملايين أخر فى خضم الحروب الطاحنة !

ـــ يعنى أنه ليس أمامى الا تجرع التعاسة فى صبر طويل ؟

ـــ قد يتغير الحظ بارادة الانسان ، انك مطالب بالتفكير والعمل ، انك واقع فى شبكة من الظروف المعقدة ، وعليك أن تسأل نفسك « ما أفضل سبيل للتصرف فى مثل هذه الظروف ؟ » وعليك أن تجيب بنفسك ..

فسألته بحنق خفى :

ـــ الا يوجد رأى عند جيل الأساتذة ؟

فابتسم قائلا :

ـــ دعك من هذا . انكم لا تؤمنون بأى جيل سابق . الم تجد ولو مثلا واحدا صالحا لأن تقتدى به ؟

ـــ تعنى ...

فقاطعته مواصلا حديثى :

ـــ أعرف أسرة حلت مشكلتها بالدعارة !!

ـــ ويقتنون الشقق والسيارات ولكنه حل مرفوض كما قلت .

ـــ عرفت زميلا احترف السطو على الشقق فى أثناء الصيف ..
ـــ وهو مرفوض ايضا وعاقبته معروفة .
ـــ سمعت عن آخر اغتصب امرأة ثم قتلها اخفاء لجريمته ..
ـــ لعلك تقصد الشاب الذى طالب شيخ الأزهر بشنقه علانية ؟
ـــ لا أدرى ، ولكن أما كان الأجدر بالشيخ الأكبر أن يقترح حلا اسلاميا للعاجزين عن الزواج ؟ !
ـــ التشدد فى العقوبة أسهل من ايجاد الحلول ..
ـــ فما الحل اذن ؟
ـــ ألم نفكر فى الهجرة ؟
ـــ لست من أصحاب المهن المطلوبة ولا من أهل الحرف .
صمت الأستاذ قليلا ثم قال :
ـــ ثمة رأى أفضله اذ أننى ما زلت أحتقر الحلول الفردية ..
فى فترة قديمة دأب على ترديد هذا الرأى ، وكان وقتها يكتب بقلم يسارى صريح ، وها هو يعود اليه فيما يشبه الهمس والاستحياء . وقلت له بهدوء لأخفى انفعالى :
ـــ جئتك عارضا أزمة ملحة تتطلب حلا عاجلا وها أنت تنصحنى بالانخراط فى عمل سياسى من أجل تغيير المجتمع ، وعلى ذلك فعلىَّ أن أنتظر حلا لمشكلتى يجىء مع القرن القادم ..
وغادرت مقهى الحرية بلا ذرة من عزاء . ولكن هل كنت قصدت عاطف هلال بدافع من ثقة ؟ ! . لقد انتزعت الثقة ثم ماتت ثم دفنت . أنهم كذابون .. كذابون .. كذابون . ويعلمون انهم كذابون . ويعلمون أننا نعلم انهم كذابون .. ومع ذلك فهم يكذبون بأعلى صوت ، ويتصدرون القافلة ..

ما هذه البهجة المنعشة ؟

نظرت وحلمت وثملت . اشتعلت النيران وارهفت الحواس : لبثت فوق متعدى مؤجلا الانطلاق الى رحلة التسكع اليومية .

ــ ضيفة ؟

ــ موظفة جديدة ، ليسانس آداب ، اسمها رجاء محمد .

سمرتها صافية ، ما أندر السمرة الصافية ، لا بالنحيلة ولا بالسمينة ، في العينين العسليتين جاذبية محسوسة ، عند الابتسام ترتسم غمازتان في وجنتيها ، بيني وبين أن أرفعها بين يدى وأمضى مشكلات تعيي العديد من وزارات الدولة . انفعلت بها كما أنفعل بأى أنثى بستوى في ذلك المراهقـات والكهلات ، البـلديات والمتفرنجات ، المحتشمات والمبتذلات ، انغمس خيالي في مصادر الاثارة . حتى تذكرى شقيقتى لم يهذب من طغيان الرغبة . غبت عن الادارة ساعة واحدة فصاحبتني نشوتها الزكية في الذهاب والاياب . وفي آخر النهار ثم تعرفنا في رزانة رسمية . ورجعت الى مسكني بروض الفرج وأنا اقرب ما يكون الى التعاسة والالم وهما ما يترسبان عادة في صدرى عقب الرؤية المؤثرة . في ذلك اليوم اختلست اكثر من نظرة من مها ونهى . جميلتان بلا ريب ولكنه جمال ملقى في سلة مهملات . بدتا لى متقشفتين صابرتين . تموت الشكوى وراء شفتيهما الممتلئتين . وسألت مها :

ــ هل تعرفين فتاة من كليتكَ اسمها رجاء محمد ؟

فتساءلت ساخرة :

ــ كيف اعرف ونحن اكثر من الجيش عددا ؟ !

ـ التحقت بادارتنا اليوم .

فتساءلت نهى بمكر :

ـ لم تسأل ؟

فقلت بتحد ساخر :

ـ كيف لا وقد توفر لدى المهر وخلو الرجل ؟

فقالت مها :

ـ ادع الله أن يكون أبوها من شارع الشواربى فلا يطالبك بمليم !

فقلت ضاحكا :

ـ الشواربيات للشواربيين !

قرأت فى دعابتها أحلاما خفية ، ونحن عادة نتحادث بحذر متأثرين بجو بيتنا المتشدد . أبى ، وأمى أشد منه . وأمى متفائلة جدا رغم عنائها الدائم . وهى سعيدة بأنها حصنتنا ضد استهتار الزمن . وفى تقديرى أنه سيسعى اليهما ذات يوم ـ خاصة بعد التحاقهما بالعمل ـ زوجان محترمان متقدمان فى السن والقدرة المالية فيهيئان لهما الحل الممكن . انه زمن الكهول والأوغاد .

## ـ ٦ ـ

ما هذه البهجة المنعشة ؟

لقد وهبتنى ابتسامة . مضيئة وبريئة كالوردة اليانعة . تبادلنا الكلمات عند كل مناسبة ثم جادت بالابتسامة . خلقت الابتسامة حياة جديدة . غلفت الانفعال البهيمى بعذوبة صادقة . نمت الشجرة وتفرعت وتعذر أن تنعت بصفة واحدة . وتساءلت

اهكذا تتحول الغريزة الى عاطفة ؟ . وكنت اخلق المجال تلو المجال للحديث . قلت لها :

ــ حذار من البطالة !

فقالت بحيرة :

ــ انهم لا يعهدون الينا بعمل .

ــ ستنسين ما تعلمته .

ــ العمل نفسه هنا مقطوع الصلة بما تعلمته .

ــ ماذا كان تخصصك ؟

ــ التاريخ .

ــ لولا ضوضاء المكان لاقترحت عليك القراءة .

ــ لا احب القراءة الا نادرا .

ــ جيل التلفزيون ؟

فضحكت بصوت غير مسموع وقالت :

ــ ليس تماما .

ــ وحذار من الملل .

ــ اليوم طويل حقا ، ماذا تفعل أنت ؟

ــ أتسكع وسط المدينة ..

ــ لا يناسبني ذلك .

ــ لا مفر من ان تجديه مناسبا ذات يوم .

ــ المهم الا نعتاد الكسل !

فقلت بأسف صادق :

ــ كنت طالبا مجتهدا ، حتى العطلة السنوية لم تخل من نشاط واطلاع اما اليوم فقد اصبح التسكع مذهبي .. كيف تمضين وقتك ؟

ــ لي اخوات وصديقات ، هناك التلفزيون دائما ، واحيانا السينما او المسرح .

لم يعد فى الدنيا ما يستأثر بوعيى اكثر منها . لها الغريزة والعقل أيضا . ومن عجب أن مظهرها انتبهت اليه مؤخرا نسبيا . تعاملت مع المضمون قبل الشكل . وعندما حدثتنى عن السينما والمسرح أدركت أنها تطل على من مستوى أرفع ، عند ذاك ركزت على البنطلون الرمادي والحذاء ذي الرقبة والبلوزة المزركشة والجاكتة الجلدية . انيقة وثمينة . ترى ما وراء ذلك ؟ . الزمن يطرح احتمالات شتى . وانى أحلم بالزواج ولكنى أرحب بالفرص . عاطف هلال ذو مال وبنين فهو يحتقر الحلول الفردية !. وهو لم يصل الى مركزه المرموق الا بحل فردى انتهازى . ووجدتنى أتذكر عهد الدراسة . أتذكر التيارات التى انتظمت الطلبة . أبناء الأغنياء الذين يعمون بالاستقرار ولا يهتمون كثيرا بالدراسة . فقراء يحلمون بالشهادة من أجل الوظيفة . متمردون يضطربون فى عوالم الأحلام ويرفضون كل شيء . كنت فى مكان وسط بين الصنف الثانى والثالث . أحلم بالوظيفة اكراما لعناد أسرتى وأكن للمتمردين الاعجاب والتأييد . كثيرا ما يتعرضون للتحقيق والمطاردة ، ومنهم من انتهى الى السجن . ترى الى أى طريق تنتهى رجاء ؟ . على أن الاحتمالات أوسع من ذلك . وانى اريدها من اى سبيل ممكن وان ظل الزواج حلمى المنشود . لذلك لم أدع فرصة تفلت لتوثيق مودتنا حتى نطق لسان حالى بما أحلم به . وتشجعت ذات مرة فدعوتها الى لقاء ضمن رحلة للتسكع ..

## - ٧ -

ما هذه البهجة المنعشة ؟ !

فاضت نفسى بهذا المعنى وأنا أراها مقبلة نحو موقفى أمام الامريكين . فى تلك اللحظة شعرت بأننى بت من كبار العاشقين فعاهدت الله الا أسىء اليها ما حييت قط . غصنا فوق أريكتين جلديتين يفصل بيننا خوان معدنى . وضعت حقيبتها السوداء على طرف الخوان وراحت تمشط بعض خصلاتها كما رحنا نتبادل النظر فى هدوء وحب استطلاع . طلبنا الشاى ليدفئنا فى الجو البارد وشملنا من بادىء الأمر تفاهم حميم . لا ظل من الغموض يطرح نفسه على الدعوة من جانبى والتلبية من ناحيتها . كلانا ناضج ويعرف ما يريد . وان تكن صداقة فهى واضحة الهدف . قد تعنى من جانبى ميلا وربما حبا وبحسبها أن تعنى من جانبها أننى موضوع صالح للتجربة . الا يعنى ذلك القبول من ناحية المبدأ ؟ ! . سألتنى :

ــ هذا مكان تسكعك ؟

فقلت وأنا أقدم لها وعاء السكر :

ــ التسكع فى الشوارع ولكنه لا يصلح للقاء .

ــ وكيف تطيق الزحام ؟

ــ انها القيامة ولكنها خير من القعود ست ساعات فوق مقعد خشبى ..

فابتسمت قائلة :

ــ انه نوع من العقاب ولكن الزحام لمثلى غير مأمون !

ــ ماذا تركبين فى الذهاب والاياب ؟

ـــ نحن نقيم فى شارع الشهيد عبد الملك فيما وراء دار القضاء العالى فلا حاجة بى الى الباص ..

ثم مواصلة حديثها بسرعة :

ـــ لولا ذلك ما قبلت الوظيفة !

فقلت بقلق :

ـــ اذن فأنت غنية !

ـــ أبدا ، أبى موظف ، موظف كبير اذا شئت ولكن ذلك لم يعد يعنى شيئا .

وجدت فى قولها متنفسا للراحة وقلت :

ـــ الحال من بعضه حتى وأن لم يكن متطابقا .

وانتهزت الفرصة فقدمت لها صورة أمينة لأسرتى متوخيا الصدق فى الأمور الجوهرية ودون تطرق الى التفاصيل الحرجة ثم سألتها :

ـــ لك أخوة ؟

ـــ ثلاث بنات كبراهن بكلية الطب .

ـــ الحق أن الحياة عبء ثقيل .

فأحنت رأسها الرشيق مؤمنة على قولى فقلت :

ـــ خاصة للشرفاء .

ـــ كان أبى ( محمد جاد ) محاميا مرموقا ، ثم تغير الحال عقب التأميمات فقبل وظيفة مدير الادارة القانونية بشركة أ.م.د .

قلت لنفسى ان مثله جدير بأن يملك مدخرات لا بأس بها فهو خير من الموظف العادى . ليس بالغنى ولكنه ليس بالفقير أيضا . ثمة أمل ولكنه ضعيف . وقلت ملقيا مزيدا من الضـــوء على موقفى :

ـــ أسرتى لن تعرف الراحة قبل أن تتوظف أختاى ، وأمل أبى متعلق بهجرة ثلاثتنا الى بلاد العرب .

ـــ على أختيك أن يختارا مهنة مطلوبة كالتعليم .

ــ انت لا تفكرين فى ذلك ؟
ــ انى أمقت هذه الفكرة وأرجو الا احتاج اليها أبدا ..
انقبض صدرى بعض الشىء ولكن ذلك دفعنى الى مزيد من الجراة فسألتها :
ــ كيف تتصورين المستقبل ؟
فتساءلت متغابية :
ــ ماذا تقصد ؟
ــ لا يمكن أن تعيشى بلا حلم ما ؟
فضحكت قائلة :
ــ انا لا احلم .
ــ كل انسان له حلمه .
ــ حقا ؟ .. فما حلمك أنت ؟
فقلت متماديا فى جرأتى :
ــ الحق انى احلم بشريكة لحياتى ..
فرمشت كالمرتبكة ولاذت بالصمت فقلت :
ــ هذا هو حلمى .
فتساءلت شاردة :
ــ ماذا يمنعك من تحقيقه ؟
فلم أدر ماذا أقول اعتقادا منى بأننى قلت كل شىء فسألتنى :
ــ لم لا تتكلم ؟
ــ قلت ما فيه الكفاية ، آن لك أن تتكلمى أنت ..
واذا بها تقول بجدية تامة :
ــ لقد تعرضت لتجربة غير سارة ..
فحدجتها بنظرة مستطلعة فقالت :
ــ تقدم لى موظف من مرءوسى والدى وفشلت التجربة أمام عقبات لا يمكن التغلب عليها ..
فتساءلت بأسى لم أستطع اخفاءه :

ـــ ما هى ؟
ـــ المهر .. والمسكن ..
فقلت متعلقا بآخر خيط :
ـــ ليس التغلب عليها بالمستحيل .
ـــ حقا ؟
ـــ لن يكن بوسع الأب الاستغناء عن المهر ، أو يكون من الممكن اخلاء حجرة فى البيت للعروسين !

فهزت رأسها بأسف مما يعنى النفى . فى الصمت الذى تلا اعترفت بالاخفاق . جاءت مدفوعة بحب الاستطلاع والأمل فتلاشى كل فى هيكل الحقيقة العارية . لعلها تتأسف الآن على ضياع الوقت سدى . ولعلها تفكر فى انتحال سبب لانتهاء اللقاء . وقلت بلا روح :
ـــ حسبنا صداقتنا الحميمة .

غمغمت شاكرة . ولم يبق الا أن نغادر المكان ليرجع كل منا الى الشركة من طريق .

## - ٨ -

قلت لنفسى انه لا مفر من النسيان . لا مفر من الوأد . الأمل والغريزة متعلقان بها ، يتسلطان على بكل قوة ، يستأثران بأحلام اليقظة ، يعذباننى ليل نهار ولكن لا مفر . ما زلت فى أول الطريق . وهى لا تبادلنى احساسا أو عاطفة . ما هى الا فتاة عاقلة تبحث عن زوج مناسب . انه حق مشروع ورغبة نبيلة . ويبدو انه لا يحركها طمع ولا آمال جامحة ، انها عاقلة تماما . لم تجرب الحب أيضا أو هذا ما اظن . داخلنى شعور قوى مؤثر بأننى لن أجد فرصتى فى « العقل » أبدا . ما فائدة العقل فى عالم

لا معقول . لا مفر . وعليه فلأتجنب مبادلتها الصداقة ما أمكن ذلك . ولأهجر الادارة مبكرا عن العادة . رجعت الى الفــراغ . الفراغ المحتدم بالعذاب والملل . انل يتجسد لعينى كما تجسد الموت فى مقدمة السيارة ، كائن محسوس ، غير محسوس ، يقطر كآبة ورفضا للحياة . قبضته الخانقة تفشى لى سر المدمنين . مدمنى الخمر والمخدرات والقمار . لكننى محصن بمثالية باهتة وبالفقر . لعل الأوفق لى أن أملأ الفراغ بالسياسة . ما زلت على صلة تعارف بالزملاء القدامى . يمكن أن أطوف بهم للمناقشة والاختيار . شعار عاطفة هلال صالح للتطبيق . انه يدعو كثيرين من ذوى الارادة ويصلح أيضا لليائسين . انها مجرد خواطر تعبر رأسى سادرة ولكن أخطر القرارات قد تبدأ من خواطر سادرة . يتسلل الى النفس كالمزاح ثم ينقلب جدا كل الجد . لكننى أقنع بمداعبة الأفكار . ومداراة الغريزة الطاغية . سيحدث شىء ما فى وقت ما . شىء قريب . أو بعيد . لن تمضى الحياة فى فراغ الى الأبد . الهجرة أو السياسة أو مغامرة لا تخطر بالبال . الأيام تمضى . الحركة بطيئة فى الشارع ولكن الأيام تسرع . رجاء تحرك أحلام اليقظة . ملكتها فى الخيال بقدر ما فقدتها فى الواقع .

## — ٩ —

تعرض بيتنا بشارع الشمردل لغزوة قوية . تقدم سباك فى الثلاثين من عمره يدعى أحمد عبد المقصود لطلب يد نهى . قال أبى ونحن مجتمعون فى الصالة :

— ما على الرسول الا البلاغ ، ابوه عامل بالحديد والصلب ، يحمل شهادة صناعية متوسطة ، عمل فى السعودية أعواما خمسة ، يملك شقة فى المعادى وسيارة نصر ..

شملتنا حيرة . وقالت أمى مقطبة :
— ليس من مقامنا !
فقال أبى بمرارة :
— عم تتحدثين ؟ .. انتهى مقامنا من زمان ..
فقالت أمى :
— انها لم تتم تعليمها بعد ولابد ان تتمه ..
فقال أبى :
— انه يريدها ست بيت .
فقالت أمى :
— لم نعدها لذلك ..
فقال ابى :
— انه أسهل من تعلم الطبيعة والكيمياء .
فقلت :
— العمل ضرورى لها حتى لا نتركها تحت رحمة المجهول .
وتحولت نحو مها متسائلا :
— ما رأيك يا مها ؟
فقالت بوضوح :
— لم نسمع صوت صاحبة الشأن ..
فقال ابى :
— الكلمة الفاصلة لها طبعا .
وتلاقت النظرات فوق وجهها حتى عطفت مها عليها فقالت :
— أمهلوها لتفكر ..
وقلت أنا :
— ثم انها لم تره .
فتساءلت أمى :
— يهمنى أن أعرف هل تقبله من حيث المبدأ ؟
فقلت باصرار :

ـ بل هو مقبول من ناحية المبدأ ، انه ينتمى اليوم الى طبقة أعلى ..

فهتفت أمى :

ـ انك تخلط الجد بالهزل !

وحدثت الزيارة التقليدية فوجدته مقبول الصورة ولا عيب فى مظهره الا مبالغة فى التأنق وحساسية بالذات ملفتة للنظر . ووضحت مواقفنا بين رفض من ناحية أمى وحياء شمل ثلاثتنا أبى ومها وأنا . وما أدرى الا ومها تقول لى ونحن ننتظـر الباص صباحا :

ـ نهى موافقة !

ـ من ناحية شكله لا بأس به .

ـ ومن ناحية الموضوع ايضا .

فسألتها بقلق :

ـ أهو قرار املاه اليأس ؟

فقالت بضيق :

ـ فسره كما تشاء ..

وفرضت الموافقة نفسها علينا جميعا غير ان أمى قالت بغضب مخاطبة أبى :

ـ المسألة انك وجدت زوجا لن يكلفك مليما واحدا .

فسألها بمرارة :

ـ هل لديك مال تخفينه عنا ؟

ودعوت لها من قلبى بالتوفيق ..

ــ ما هذه البهجة المنعشة ؟ !

وانا أغادر الشركة مبكرا للتسكع وجدت رجاء كالمنتظرة عند الباب . اقبلت نحوى هامسة فى عتاب حاد :

ــ أين انت ؟ ، كأنك هاجرت من البلد !

غزتنى فرحة راقصة سمت بى الى ارفع سماوات السعادة . طالما ظننت أنها نسيتنى تماما ، وأن عقلها الحكم قد حذفنى من جدول الاحتمالات . عتابها اقتحمنى كنغمة عذبة منغمة بالنداء . فيه العتاب والشكوى والرغبة والاعتراف . فيه ما يغير مذاق الدنيا فى ثوان مثلما تغيرها الفصول فى أشهر . فهل يفرق بين اليأس والأمل الا خيط الفجر ؟ .

حوالى العاشرة كنا نجلس بمجلسنا فى الأمريكين . قلت معبرا عن امتنانى :

ــ جزاك الله كل خير فقد اعدت خلقى من جديد . .

تخففت من ارتباكها ناقرة على سطح الخوان بظفر أحمر على هيئة لوزة مصفرة . قلت :

ــ توهمت أن لقاءنا الأول هو الأخير ، وعزمت على النسيان بأى ثمن ، ولكن الحب أقوى من كل شىء .

فهمست باسمة :

ــ ولكنك لا تكاد تعرفنى . .

ــ عرفت ما يكفى لخلق الحب فى اقوى احواله . .

ــ خيل الى أنك نسيتنى تماما . .

ـ تمنيت ذلك ، وتبدد هباء ما تمنيت ..

فقالت باسمة :

ـ وها نحن نلتقى لنتقاسم العذاب !

فقلت بحماس خلقته نشوة الظفر :

ـ مع الحب الحقيقى لا توجد مشكلات ..

ـ حماسك جميل ولكنه عاطفة وليس معجزة .

ـ هل هو فى الأصل معجزة ، علينا أن نعتبره كذلك ، فى أى شرع يجوز أن يفرق بين قلبين أشياء مثل شقة وأثاث ومهر ؟ !

فابتسمت فى أسى وتمتمت :

ـ انك تحلم بحياة كالطيور .

فقلت باصرار :

ـ لدينا الحب والارادة والحياة التى لا ترحم الاغبياء فلنتعاهد على الا يفرقنا شىء فى الوجود ..

فتورد وجهها حيرة وسعادة فقلت والنشوة ترقى بى فى مدارج السكر :

ـ فلنتعاهد !

فهمست :

ـ كما نشاء .. ولكن اما آن لنا أن نفكر ؟

فخفت أن أفيق من نشوتى فقلت :

ـ علينا أن نعلن خطبتنا فى الحال !

ـ ماذا ؟

ـ أن نعلن خطبتنا فى الحال ..

ـ لو اقتصر الأمر علينا لهان .

ـ علينا أن نقنع الأهل ..

ـ مهلا .. ماذا نقول لهم ؟

ـ اننا سنعلن خطبتنا ونحل مشاكلنا بنفسنا !

ـ ولكن ..

فقاطعتها :

ـ لكل منا عمله واستقلاله .

ـ الا نفكر قبل ان نقدم ؟

ـ بل نقدم أولا ..

ـ أخاف ان نجعل من انفسنا ..

قاطعتها :

ـ فلنعلن خطبتنا ، يجب ان نحقق نصرا ما . ولك على بعد ذلك ان أسطو على البنك الأهلى عند الضرورة !

غادرنا المكان وأنا اردد فى باطنى « ما هذه البهجة المنعشة ! »

## ـ ١١ ـ

يبدو ان رجاء اعتبرت ما دار بيننا دردشة غنائية فأصرت على لقاء ثالث لنناقش قرارنا بهدوء . قلت لها :

ـ رجاء ، اذا استرشدنا بالعقل فعلينا أن نسلم بالفراق الأبدى .

كانت تقدم رجلا وتؤخر رجلا . كانت تشاركنى الرغبة ولكنها تخاف العواقب . قلت :

ـ أنى مخلص ، يلزمنى عمر طويل لكى اقتصد المهر ، وثلاثة اعمار لأجمع خلو الرجل ، فاذا لم يكن من التعقل بد فلنفترق ..

فقالت بقلق :

ـ سيرون فى سلوكنا ما يقطع بجنوننا !

ـ يلزمنا قدر من الجنون نلقى به عالمنا المجنون ..

ـ يحزننى أننى سأغضب اعز الناس على ..

ـــ اما أن نغضبهم واما أن ننتحر ..

فتفكرت مليا ثم تساءلت :

ـــ هبنا فرضنا ارادتنا فماذا بعد ذلك ؟

ـــ لو أن لدى خطة جاهزة ما كتمتها عنك ، ولكن تحملنا للمسئولية سيدفعنا الى التفكير ، الى قهر المستحيل ..
ولو وجدنا الطريق مسدودا ؟

ـــ الطريق المسدود شعار العاجزين ، ثم الا يستحق حبنا المغامرة والتجربة ؟

وكانت فى صميمها عازمة على المغامرة ..

## ـ ١٢ ـ

خاض كلانا معركة عائلية على تفاوت فى العنف والحرج .
دهش أبى وتساءل :

ـــ تخطب ؟ !!

لكن مرارة الحياة روضته على الاستهانة بما يعده من الأمور الثانوية . وتساءل مرة أخرى :

ـــ أانت على استعداد ؟

فقلت ببساطة :

ـــ لا استعداد ولا خلافه .

فقالت أمى :

ـــ أنت تعلم انه ليس لدينا ..

فقاطعتها :

ـــ انى أعرف كل شىء ..

فتساءلت برجاء :
ــ لعل أهلها أغنياء ؟
ــ كلا . .
فتمتم أبى :
ــ قرار خاطىء ولا شك .
فقلت باصرار :
ــ لن أعدل عنه .
فرفع الرجل منكبيه قائلا .
ــ أنت حر ، وأتمنى لك التوفيق .
أما رجاء فقد خاضت معركة حقيقية . انهالت عليها الأسئلة وجاءت الاجابات كلها بالنفى . ثار الغضب كما ثار الكبرياء . رميت بالجنون . تدخل أقرباء وقريبات . أصرت رجاء على طلبها ، بل هددت باعلان خطبتها خارج نطاق الأسرة .

★★★

كانت تجربة عسيرة أن أمضى الى عمارة الشهيد عبد الملك وأنا على علم كامل بمشاعرهم نحوى ، وبأنهم يعتبروننى وباء أفلت من المراقبة الصحية . الحق أن مها صدقت عندما قالت :
ــ ان جرأتك تستحق الاعجاب . .
وقد أرهقنى ابتياع الدبلتين ؛ أما الشبكة فقد اشترتها رجاء ودستها الى لأهديها اليها فى الحفل الكئيب . ولم تعلق خارج المسكن أو داخله علامة من علامات الأفراح ، وندت الوجوه عن بصمات متكلفة أخفَ منها العبوس .
وقال لى الأستاذ محمد جاد :
ــ طبيعى أن أتمنى لكما التوفيق ، لا تسىء الظن بنا ، ستكون يوما ما أبا وتعرفَ . . .
أما حرمه ــ أم رجاء ــ فقالت لى :

ـــ نحن دائما متهمون ، لماذا ؟ ، ايوجد اثاث بلا مهر ؟ ، هل يعيش ابن آدم بلا مأوى ؟ ، أيوجد أب أو أم بلا قلب ؟ !

انه صوت العقل . هو ما يعترضني دائما بجدار صخرى . لم يبق الا أن نجرب الجنون . اذا صدكَ العقل عن السعادة فجرب الجنون أليس ذلكَ من العقل أيضا ؟ ! ، ما يستحقَ اللعنة حقا هو الاستسلام . ونحن نلقى الاهمال والضياع على حين تتغنى الحناجر بالوعود المعسولة . وتحديث الظلام .

## ـ ١٣ ـ

حققنا الرغبة واستقرت الدبلة فى البنصر . واثملنا احساس حميم بأننا بلغنا غاية ما وراءها غاية . وسرعان ما أدركت أننى لم اقطع الا الخطوة الأولى . اجلنا مناقشة المشكلة استبقاء للصفاء ولكنها استوت على الأفقَ مثل نذير النشرة الجوية . ولم يحرجنى احد من أسرتى فيسألنى مثلا « وماذا بعد ذلكَ ؟ » . مها وهى اقربهم الى همست لى يوما :

ـــ لعله عليكَ الآن أن تخصص لى جنيها شهريا من مرتبكَ شهريا ؟

فضحكت ضحكة عصبية وقلت :

ـــ اتظنين أن توفير نقطة ماء يجدى لملء بحيرة ؟

فقالت باهتمام :

ـــ اظن أنه فى وسع والدها ان يحل المشكلة .

فقلت بامتعاض :

ـــ انه حقا موظفَ كبير ولكنهم أصبحوا جميعا يتبعون كادر الشحاذين ، ومدخراته تفى بالكاد بأعبائه ، ولعله يستطيع ان يقوم بالواجب اذا قدم الطرفَ الآخر الشقة والمهر . .

ــ اذن فما هى خطتك للمستقبل ؟

فلقت ضاحكا :

ــ لا أملك الا ارادتى !

وغامت نظرتها بالتفكير ، ربما فى حالها أيضا ، حتى سألتها :

ــ فيم تفكرين ؟

فقالت وهى تتنهد :

ــ تمتعوا بشبابهم فى أيام يسر ورخاء ولم يخلفوا لنا الا الأطلال !

ودأبت على زيارة آل جاد بشارع الشهيد عبد الملك من حين لآخر . أملت أن أظفر بعلاقة صادقة مع المسئولين ، ولكن أم حبيبتى تصدت لى هناك كالصخرة ، وضنت على حتى بالابتسامة العابرة ، وما من زيارة الا وذكرتنى بالواجبات المقدسة ، الشقة والمهر ، وفى مجلس الأمريكين قلت لرجاء :

ــ الهجرة .. الأمل فى الهجرة ..

فسألتنى والحق أنها لم تطرق الموضوع حتى فتحته لها :

ــ ما هى فرصتك ؟

ــ عمل قانونى فى شركة ما ، انى أتابع الاعلانات فى الصحف ، انها فرصة نادرة ..

ــ لكنها محترمة .

ــ الحق انى ما أحببت القانون أبدا ، لقد اقتحمنى مثل حوادث الطريق ..

★★★

انى انتظر معجزة . انتظر عونا من الخارج . خارج ذواتنا ، لم اتعلم شيئا ينفعنى . احمد عبد المقصود يعيش عصره أكثر منى الف مرة . انى اتحدى وأحلم ولكنى لا أفعل شيئا . وضاعف من

حدة مسئوليتى أن عرف الزملاء فى الادارة بخطبتنا . انهالت علينا التهانى والأسئلة . هذا السؤال اللعين :

ــ وجدتم الشقة ؟

ــ دفعت الخلو ؟

ما هو الا مزيج من الاحــراج . تضخمت المســئولية التى احملها . الأيام تمر . الأسابيع والأشهر . ينظرون الى كطفيلى يقف عثرة فى سبيل شابة ممتازة . ولم تسكت عنى الأسئلة حتى فقدت أعصابى واختنقت بمشكلتى المستعصية .

★★★

وسألتنى أم رجاء ذات مرة :

ــ حتى متى ننتظر ؟

وافصحت عن مشروع لأول مرة ــ بعد موافقة رجاء سرا ــ فقلت :

ــ هنالك حل ممكن ، جهزونا ، واعتبروا نصيبى دينا يرد عند الميسرة .

فهتفت الأم محتدة :

ــ يا له من اقتراح لا أحب ان اصفه ، حسبى ان اخبرك انه مستحيل التنفيذ .

ــ لماذا ؟

فصاحت :

ــ انه غير لائق !

همست رجاء برجاء :

ــ ماما !

وقلت أنا منفعلا اشد الانفعال :

ــ لا حيلة لى ولكن لا داعى للاهانة ..

فقالت الأم بحدة :

ــ افسخ الخطبة ..

فقلت بالحدة نفسها :

ــ لا اقبل أمرا الا من رجاء .

فصاحت الأم :

ــ ان كنت تحبها فابعد عن طريقها !

ولم تكف الا حين أقحمت رجاء في البكاء .

## ــ ١٤ ــ

رجعت الكآبة بسمائها الشاحبة وهوائها اللافح المشبع بالتراب . زادها الصيف احتداما ففتر نشاطي الروحي وغطاه الرماد . رغم جراتي عانيت حساسية شديدة . تمخض الموقف الباهر لعيني عن أنانية تتجسد كالبلطجة . وقلت لبقايا الحلم الوردي « لا » . لعلها لاحظت كآبتي في اليوم التالي في الأمريكين فقالت لي :

ــ اني معك حتى النهاية

ومع انني تلقيت قولها مثل شربة مثلجة في يوم قائظ الا انني قلت :

ــ ليبعد الله عنك شر هذه النهاية .

فتساءلت بقلق :

ــ ماذا حل بروحك ؟

فقلت بوضوح :

ــ ليس الحب أن اضحي بك على مذبح جنوني .

ــ ما زلنا في أول الطريق وسوف نجد حلا ما .

ــ اين الحل ؟ .. المسألة افظع مما تصورنا وانت الخاسرة !

فقالت بعتاب :

ـ احسبتني قاصرة ؟ .. لا تعتبرني ضحية من فضلك .

ـ هذا هو سر جنوني الباهر ولكنه هو ايضا ما يملي علي ما ينبغي عمله ..

ـ ما ينبغي عمله ؟

ـ لا يجوز أن تبقى خطبتنا اكثر من ذلك بلا حل واضح ..

فقالت بانفعال :

ـ شخص آخر يتحدث ، انسيت ..

فقاطعتها :

ـ لم انس ، كنت مجنونا ، لقد اسأت اليك اساءة بالغة ، الجميع يدركون ذلك لا والدتك فقط ، الجميع حتى الزملاء ، لا شك انك تسمعين وتفهمين .

ـ لا اهمية لذلك ..

ـ نبل وشجاعة ولكنك تسيئين الى نفسك بلا امل ، رجولتي تأبى على ذلك ، حبي يؤنبني ويتهمني ، لا .. لا ..

فقالت بحدة :

ـ اني صاحبة الحق في القول الأخير .

ـ لي حق ايضا ، بل هو واجب ، على المجنون الا يجر الآخرين الى جنونه ..

ـ كنت في جنونك افضل منك الآن الف مرة ..

فقلت بتصميم :

ـ اني آسف ، ولست في حاجة الى أن أؤكد لك حبي ..

فهزني اليأس ، وكنت مصرا بقدر ما كنت يائسا ..

## — ١٥ —

ما فعلته بنفسى لا يصدق . استيقظت عقب ليلة مسهدة لأرى حقيقة بشعة ترصدنى لتقول لى بصوت فظ : « اختفت رجاء من حياتك » . ترامت الى أصوات الطريق كأنما هى نعى للوجود ، نعى لأى معنى . لم أحيا ؟ ! . كيف أعاشر هزيمتى الى الأبد ؟ ! . بودى أن أبصق على كل فكرة خطرت وكل فعل نفذ .

قال ابى لى بأسى :

— انى حزين يا على ، وددت لو كان بوسعى مساعدتك . .

واغتمت أمى حتى دمعت عيناها .

الحزن يتغلغل فى اعماقى كلها ولكنى لم اجد بدا من حمل حياتى والمضى بها . واستسلمت لرد فعل غضبى فقابلت وكيل الادارة وسألته أن أنقل الى ادارة اخرى مقدما أسباب ذلك . ونقلت الى ادارة المستخدمين عاطلا كما كنت . وصارعت اشواقى والأيام تمر مثقلة بأنفاس الصيف . رجوت أن يتلاشى الحب مع الزمن ، رجوت أن تحرر هى من كافة القيود لتسترد رونقها البهيج . فى تلك الأيام تابعت باعجاب مغامرات الارهابيين فى الصحف . انهم ينفجرون فى أركان البلد معلنين عن نبض جنين ينمو فى رحم الغيب . انبعثت من قلبى المحطم أخيلة مطلقة مرقت فى الفضاء وغاصت فى أعماق المحيطات . وجعلت أتآمر مع خلايا الأحياء وذرات الجمادات . ولم يخمد الحب ولم يبرد الشوق وتمادت الغريزة اشتعالا .



وقادتنى قدماى الى مقهى الحرية فلمحت الأستاذ عاطف هلال فى مجلسه أقبلت نحوه بتلقائية وتوتر مشحونا بالاحتقار . حييته قائلا :

ــ لعلك تذكرنى ..

فرمقنى بنظرة طويلة وشت بعجزه عن تذكرى فقلت :

ــ أنا صاحب المشكلة الجنسية ..

فالتمعت عيناه وقال ضاحكا :

ــ آه .. لا مؤاخذة .. السن والشواغل .. اجلس ..

جلست مراح يقول متسائلا :

ــ لعلك وجدت الحل ؟

فدفعنى العبث لأن أقول :

ــ الحل الكامل ..

ثم مستسلما أكثر للعبث :

ــ سأنضم قريبا الى أصحاب الملايين !

فارتفع حاجباه الأشيبان الهائشان وتساءل :

ــ حقا ؟

فقلت بثقة لا حد لها :

ــ بكل تأكيد .

ــ كيف ؟

ــ الأسرار لا تباح !

فهز رأسه هزة الخبرة وقال :

ــ انها مسجلة فى جدول محفوظ ..

فابتسمت فيما يشبه الطمأنينة فسألنى :

ــ أأنت سعيد ؟

ــ طبعا .

ــ لأنك ما زلت فى أول الطريق .

ـــ هذا حق .
ـــ اما سمعت عن الذين يربحون الدنيا ويخسرون أنفسهم ؟
فقلت كاتما سخريتى :
ـــ كيف لا وأنا أحدهم ؟ !
فقال بنبرة مأساوية :
ـــ خسارة النفس لا تعوض .
فقلت منفعلا :
ـــ كذب .
استاء ولا شك من لهجتى فصمت مقطبا فقلت بسخرية :
ـــ تحرر من الأكلشيهات لتعرف الدنيا على حقيقتها .
فقال متضايقا :
ـــ انى اعرفها خيرا منك .
فاندفعت أقول محتدا :
ـــ ماذا كنت ؟ .. وماذا اصبحت ؟ .. وثبت فى الوقت المناسب من السفينة وهى تغرق ..
تساءل فى انزعاج :
ـــ ما هذا ؟
فقلت مستزيدا فى التمادى :
ـــ انت أيضا من الذين ربحوا الدنيا وخسروا أنفسهم ..
فهتف غاضبا :
ـــ لقد جئت بقصد اهانتى ولن أسمح لك بالبقاء بعد ذلك ..
قمت . غادرته دون سلام ، وتحت الشمس المحرقة فى الخارج شعرت بانشراح فضحكت . ماذا قلت ؟ ، كيف تأتى لى قوله ؟ ، الحوار من جانبى مرتجل من الفه الى يائه . المقابلة تمت بغير خطة سابقة . انتشيت بمرح عارض وأنا أمضى فوق قاعدة راسخة من الألم . وفى صباح اليوم التالى بدأت بعاموده اليومى فى الصحيفة

فوجدته يتحدث عن الطوفان الجديد ، وانه لن ينجو من الغرق الا من يلوذ بسفينة المبادىء . الحق انه ليس اسوأ من غيره ، ومقالته تفهم على وجهها الصحيح اذا اعتبرت نوعا من النقد الذاتى الخفى ، واعرابا عن الاغتراب الذى تطوعوا لاعتناقه .

وفى مرحلة متأخرة من رحلة الآلام ـ وانا اتسكع على غير عدى ـ اقتحمنى الهام منعش . مجهول الأسباب مقطوع الصلة بالواقع ، على مقربة من الامريكين تألق الالهام وتوهج ، دفعنى الى دخول المكان بقوة واعدة بالمعجزة . .

## - ١٦ -

رأيت رجء فى مجلسنا كأنها تنتظر . تسمرت أمامها . تلاطمتنى أمواج انفعالات متضاربة . مضيت اخرج من ليلى الحالك الى نهار مشرق . انهمرت فوقى اعذب الحان الوجود ونشواته . مؤيدة بقوة تستطيع أن تفعل ما تشاء . ارتميت الى جانبها صامتا . تنفست بعمق لأسترد شيئا من الهدوء . تساءلت بصوت هامس :

ـ ماذا جاء بك ؟

فسألتها بدورى :

ـ ماذا جاء بك ؟

فقالت بعتاب :

ـ انك ماهر فى الاختفاء فلم أر بدا من الجرى وراءك . .

تذكرت آلامى بندم واسف فواصلت حديثها :

ـ كأنك كنت تهرب من هذا المكان أيضا . .

ـ هل ترددت عليه قبل هذه المرة ؟

فحنت رأسها بالايجاب فقلت :
ـ آسف جداً .
ـ ما فائدة الأسف ؟
ـ سعادتكِ هي ما كانت تهمني ..
ـ وفرت لي من الشقاء ما يشفق منه العدو .
ـ اما آلامي فلن احدثكِ عنها ..
فقالت بحرارة :
ـ ارجو الا تتصرفَ بغباء بعد الآن ..
فقلت بقوة وايمان :
ـ لن نفترق ابدا .
فابتسمت بعذوبة فقلت :
ـ لن نتراجع حيال عقبة .
ـ لم اكف عن التفكير لحظة واحدة .
فهتفت :
ـ هذا هو الخطأ !
ـ ماذا ؟
ـ التفكير في مثل حالنا هو خصمنا ..
فابتسمت قائلة :
ـ لقد جربنا الارتجال ؟ !
ـ ونجحنا ، ولم نفشل الا بالاذعان للتفكير ..
فقالت بقلق :
ـ أخشى أن نجعل من انفسنا أضحوكة للدنيا ..
فقلت بتصميم وهدوء :
ـ لنتزوج في الحال !
فرمقتني بذهول فكررت :
ـ في الحال .

ـ اتعنى ما تقول ؟
ـ بكل جدية ، ودون الرجوع الى احد .
فتساءلت بحيرة :
ـ ثم ماذا ؟
ـ أجلى هذا السؤال الى ما بعد الزواج وسوف يتبدى لنا فى صورة جديدة تماما ..
ـ ربما وجدت فى الزواج ما وجدت فى الخطبة من قبل ؟
ـ انى أعرف الآن معنى الفراق كما اعرف قيمة الجنون ..
فتفكرت فى قلق واضح ثم تمتمت :
ـ الناس .. الناس .. التعليقات .. اف ..
فقلت مترفقا بها :
ـ لنبدأ فى سرية مؤقتة .. ايريحك هذا ؟
فتساءلت فى حيرة :
ـ لم نكره التفكير ؟
فقلت بسخرية :
ـ اى تفكير ؟ .. ما هو الا ترديد لأصداء ماض علينا ان نحطمه ..

## ـ ١٧ ـ

سرنا معا متلاصقين بعد ان تقرر مصيرنا بأجرأ خطوة اقدمنا عليها فى حياتنا . كنا نشعر بدفء داخلى رغم برودة الخريف المودع كما شعرنا بطمأنينة ونحن نخوض دنيا لم تعترف بعد بنا . بيد كل منا وثيقة ملكية تشمل الروح والجسد . وبقلبى شعلة استأثرت بجوارحى فتناسيت الأمور المعلقة . سألتنى فى مرح :

ـــ كيفَ تشعر ؟
فقلت دون تردد :
ـــ بأنني انتزعت المسئولية من ايدى المغتصبين ..
ـــ اظن أن التفكير الآن لا يعتبر جريمة ..
ـــ يوجد الآن ما هو اهم ..
التفتت نحوى متسائلة :
ـــ ما هو ؟
ـــ أن نجد مكانا نرتاح فيه ولو ساعة من زمان ..
فقالت وهى تدارى ابتسامة :
ـــ المسألة أكبر من ذلك .
ـــ اجل ، ولكنى أسير هذه اللحظة ، الأخيلة المرحة تطاردنى .
فقالت بعتاب :
ـــ انى أسيرة أفكارى ايضا ..
ربت على يدها وقلت بعجلة :
ـــ لا مستحيل بعد اليوم ، ممكن أن تقنعى نفسك بالتعليم واقنع نفسى بالقانون ثم نهاجر ..
ـــ طالما كرهت ذلك ..
ـــ أنا مثلك ، فلنعمل ما نكره لنعيش ما نحب .. لكن يلزمنا مكان !
ـــ مكان .. مكان .. انت تضحكنى ..
فقلت وأنا اتصفح وجوه العمارات :
ـــ فندق .. بنسيون ..
فهتفت :
ـــ ماذا ؟ .. لا حقيبة معنا !
فقلت بجدية محمومة :
ـــ معنا تحقيق الشخصية والوثيقة الشرعية ..

ـ سلوكَ غريب . .

ـ لا تتعلقى بالأوهام الفارغة ، سترجعين الى بيتك فى الوقت المناسب !

فقالت وهى تدارى ابتسامة :

ـ انك تفكر مثل مراهق !

فقلت مدافعا عن نفسى ومتذكرا فى الوقت نفسه لتاريخى الأليم :

ـ ولكنى اتصرف كرجل . .

## - ١٨ -

لقاءات نهارية ، قصيرة العمر ، متباعدة على قدر ما تسمح به الميزانية . لأول مرة اشعر بأننى انضج كانسان وكعاشق . لم تشاركنى رجاء افراحى بنفس القوة . حثتنى ذلك على مواجهة الحقائق . قلت لها :

ـ الهجرة هى طريقنا الواضح .

فقالت بعصبية :

ـ لا ادرى كيف سأتحمل العمل الجديد .

فقلت رغم مشاركتى اياها فى موقفها :

ـ هو خير من البطالة ثم انه سيهيىء لنا عش الزوجية .

ـ العمل بلا حب نوع من السخرة .

فقلت برجاء :

ـ ثم يجىء الحب مع النجاح وهناء القلب . .

فتساءلت بقلق :

ـ ثم من ادرانا ان ذلكَ الهدف الثقيل ميسور فى النهاية ؟

فقلت بقوة اغطى بها قلقى :

ـ اعتقد أنه غير مستحيل ثم انه توجد تجارب اخرى ..

ادركت عند ذلك انى اسير بها نحو الفندق فشدتنى الى شارع ماسبيرو وهى تقول :

ـ كرهت التردد على الفندق ..

فرمقتها بعتاب فقالت كالمعتذرة :

ـ الجميع يدركون لماذا نجىء ، ما افظع نظرات الموظفين والخدم !

ـ الا تستطيعين أن تقلدينى فى عدم المبالاة بالآخرين ؟

ـ فعلت الكثير ولكننى اعجز عن مجاراتك !

انزعجت حقا وقلت وكأنما أحادث نفسى :

ـ لا أطيق العودة الى العذاب !

ـ وحتام تسدل على شرعيتنا ستار السرية ؟ !

ـ ما اخترتها الا تشجيعا لك وانى مستعد لاعلانها اليوم قبل الغد ، اعلنيها وقتما تشائين ودون الرجوع الى ..

وخشيت الا تمضى الأمور بالعذوبة التى مضت بها ..

## ـ ١٩ ـ

دعيت الى مقابلة مدير عام العلاقات العامة . اول دعوة من نوعها منذ التحقت بالخدمة . ولماذا يدعونى وانا رجل عاطل ؟ . طالعنى بوجه متجهم اثار اعصابى وبخاصة وانه من الجيل الذى اناصبه العداء .

ـ حضرتك على عبد الستار ؟

ـ نعم .

ـ ما عملك ؟

ـ لا عمل لى ..

ـ الا يكفى ان تستبقيك الشركة رغم انك زائد عن الحاجة حتى نكافئها بارتكاب الجرائم فى رابعة النهار ؟

فقلت بغضب وذهول معا :

ـ انى معين بحكم قانون عام فلا فضل لأحد على ، ثم اننى لست مجرما فلعلك أخطأت الشخص المطلوب .

فتساءل بهدوء الظافر بفريسته :

ـ من اذن الذى يصحب الزميلة رجاء محمد الى فندق « العش الجميل » ؟

انشق قلبى تحت ضربة ذهول داهم فتساءل ساخرا :

ـ أرأيت ؟

تمالكت نفسى بسرعة وقلت بتحد :

ـ سيادتك مخطىء ، ومبلغك مخطىء أيضا ، رجاء زوجتى الشرعية !

ـ ماذا ؟

ـ اليك الدليل ..

قرأ الرجل الوثيقة بدهشة ثم تفحصنى باهتمام وقد لانت ملامحه وتمتم :

ـ مدهش ، الم يعلم زملاؤك بذلك ؟

ـ كلا ، ثمة ظروف جعلتنا نفرض سرية مؤقتة على علاقتنا !

ـ ولماذا تترددان على الفندق بتلك الحال المريبة ؟

ـ المسألة بكل بساطة اننا لا نجد مكانا !

دارى الرجل ابتسامة خفيفة وقال :

ـ أنا مضطر الى اعلان زواجكما كتفسير ضرورى لعدم احالتكما الى ادارة التحقيقات !

فسألته بسخرية خفية :

ـــ هل يمكن أن تدلني مشكورا على شقة ؟

فأجابني ببرود :

ـــ لست سمسارا يا حضرة !!

## ـ ٢٠ ـ

أعلن الزواج ، لا مفر . في بيتنا احـــدث دهشة ولا شيء سواها . هتفت أمي :

ـــ غير معقول أن تفعل ذلك من وراء ظهورنا . .

أغرقت مها ونهى في الضحك أما أبي فقال :

ـــ أنتم جيل مجنون ، قدم لي سببا واحـــدا يبرر تصرفك المضحك . .

فقلت معتذرا :

ـــ كانت السرية اكراما لها !

ـــ أنت أحمق ، وهي أيضا حمقاء ، لولا ضيق شقتنا لدعوتك للاقامة معنا .

ـــ اني مدرك لذلك كله .

فتساءل ساخرا :

ـــ ماذا يغريكم بالزواج ؟ ، الا تتعظون بما حصل لنا ؟

فقلت عابثا :

ـــ سعادة بيتنا هي التي اغرتني بما فعلت . .

أما بيت زوجتي فقد اجتاحته حريق . استنتجت ذلك من كلمات رجاء الموجزة ومن امتعاضها الدائم . تخيلت الطعنة واثرها الدامي في قلبي الوالدين . قالت لي :

— انى أعيش فى بيت يرفضنى تماما .

فدفعنى قولها الى الا... لمام بمسئوليتى فقلت :

— تعالى الى بيتنا مؤقتا !

ولكنها لم تتبس فقلت :

— سأجد الاعلان الذى ابحث عنه فى الصحف ، لابد أن اعثر عنيه ذات يوم ..

فقالت بضيق :

— ومن ناحيتى فالتعليم أحب الى من هذه الدنيا .

فقلت باصرار :

— لو اقتضى الأمر ان أتعلم حرفة فسأتعلم حرفة ..

★★★

وكان رفضها لفكرة الفندق قد أرجعنى الى حيرة العذاب . ورغم أن الأمل فى الرسو على بر — بعد تقبلنا للهجرة — بات ممكنا الا ان عذابى لم يبرد . ومضيت بها ذات مساء لا يخلو من دفء الى هضبة الهرم . لم يبق الهلال الوليد فى السماء الا قليلا ثم انتشر ظلام مريح . عن يميننا ويسارنا مرقت الأشباح الى الخلاء وذابت فى الظلمة . طوقتها بذراعى بحنان وشوق ونحن نتعثر على مهل حتى توقفنا تماما . ملت نحو أذنها لأهمس لها بخواطرى المضطرمة ولكنها لكزتنى بكوعها قائلة فى تحذير :

— انظر .

رأيت شبحا قادما تبينته شرطيا عندما وقف أمامنا . اضطربت واتجه وعيى نحو الوثيقة فى جيبى . قال الشرطى :

— سلام عليكم .

فقلت وأنا أجهل ما وراء سلامه :

— وعليكم السلام .

وصمت فانتظرت الخطوة التالية ولكنه لم ينبس ولم يتحرك فقلت :

ـــ نحن نشم الهواء ، انا وزوجتى ..

فقال بنبرة واضحة :

ـــ متزوج أو غير متزوج ، لا يهم ..

فقلت بتحد :

ـــ لسنا وحدنا ، الخلاء ملىء بأمثالنا .

فقال ضاحكا :

ـــ افعل مثلهم ..

زايلنى الارتباك ففطنت الى مقصده . دسست يدى فى جيبى مستخرجا ورقة من ذات الخمسة والعشرين قرشا ومددتها اليه . تناولها ثم قراها على ضوء بطاربة ثم ردها قائلا :

ـــ مقامك جنبه على الاقل !

ولما ذهب قلت ضاحكا :

ـــ أرخص من الفندق بما لا يقاس ..

فهتفت :

ـــ يا للعار !

فضممتها الى بحرارة وانا اقول معتذرا :

ـــ انها ظروف استثنائية لعينة ، ولسوف نضحك عليها فى القريب ..

واطلت علينا القرون من فوق الهرم وهى تضرب كفا بكف ..

# سمارة الأمير

( الحب فوق هضبة الهرم )

– ١ –

تبدو ضئيلة جدا ، لا لضآلة فى تكوينها فهى بشهادة الجميع أنضج من سنها ، ولكنها لا تكاد ترى فى الحجرات الواسعة والأبهاء المترامية ، أما فى الحديقة الفواحة الشامخة فتلوح مثل عصفورة حائرة فى وثباتها المتتابعة فوق ممشى الفسيفساء . فى أوقات الفراغ ، العصارى المزخرفة بالظلال ، تقف مستندة الى ضلفة الباب الكبير ترنو بعين الى أشجار البلخ المظلة لشارع سبينالى ، وتلحظ بعين الأريكة يجلس عليها البواب وسـواق السيارة « على جلال » . يعجبها منظر على جلال ببدلته الرسمية ، وقامته الطويلة مثل جذع النخلة ولونه الغامق ونظرته الحادة . انه بلى فى التأثير الباشا الذى لا يضارعه شىء ، وهى يروعها كل شىء فى السراى وما حولها ، قلبها الغض يجود بالاعجاب لكل شىء ، وهى تحب كل شىء ، ولم تعد تذكر من الكوخ الذى آواها فى طفولتها برشيد الا طيفا ذائبا فى ماض مضى وانقضى . حتى والداها سرعان ما نسيتهما ولم يبق من صـورتيهما الا النمط الشائع . جاء أبوها بها الى سراى عصمت باشا خورشيد وهى ابنة ثمانية منذ سبعة أعوام ، وعقب عامين جاءت أمها حاملة نبأ وفاته ، ثم ابلغت بعد عامين آخرين نبأ وفاة أمها ، فلم يبق من الشجرة الا أقارب مجهولون لا يحفلون بها ولا تذكرهم . وعند كل نبأ أسود كانت تجهش فى البكاء ، وتحاط بعطف ما ، ثم يطيب الخادمات الثلاث اللاتى يشاركنها حجرة البدروم خاطرها ، ويحذرنها من الاسترسال فى الحزن . التصقت بالسرايا باعتبارها دنياها الوحيدة . انها قلعة شاهقة ذات أبراج الزينة وحديقة

مترامية ، تتوسط شارع سبينانى بلوران بالاسكندرية ، وربة الدار الهانم تأنس اليها لاشراق وجهها وطيبة قلبها فتخصها بالقرب وتختارها دون غيرها لتدليك قدميها وساقيها . تعطف عليها لطيبة قلبها وسذاجتها . ونقائها من المكر . فكانت الوحيدة فى السراى التى يتهيأ لها فرصة الوجود أحيانا فى اجتماع الباشا بحرمه . وتسمع أحيانا ما يدور بينهما من حديث ، بل وما يتبادلان أحيانا من نقار أو شجار . ويسألنها ــ الخادمات الثلاث ــ عما تسمع فتشعر بأهميتها وتمضى فى حكى الحكايات . وكان الباشا وحرمه عجوزين وحيدين . فكريمتهما متزوجة من قنصل يعمل فى الخارج ، وابنهما يعمل كذلك فى سفارة ، ولكن الرجل كان رائعا وقورا ، يمضى فى شيخوخته وأناقته كتمثال أو يجلس فى روبه آية فى الجاذبية ، وكانت حرمه جميلة رغم طعونها فى السن ، وكم أعجبت شلبية بلون بشرتها الأبيض وزرقة عينيها ، ويقول الباشا لحرمه فى غضبه « أنت ظالمة .. أنت عمياء » فتقول له « ما أنت الا ثور » ، « الا تقرأ ما يكتب عنك ؟ ! » . عندما تثور عاصفة تنكمش فى ذاتها ، تود أن تختفى ، تنكس راسها ، وقد تدمع عيناها . ومرة سألته الهانم بحدة : « لماذا افلتت منكَ الوزارة هذه المرة ؟ » فيقول لها « حتى السراى لا تخلو من عدو لى » فتقول له « بل أفعالك الشائنة هى عدوك الأول » فيتساءل : « افعالى الشائنة ؟ ! » فتصرخ « نعم .. ما زلت تحلم بمباذل الشباب يا عجوز ؟ » . « متى منعت الأفعال الشائنة من الوزارة » ، « انى أفكر فى الاقامة مع ابنى فى الخارج » .

ولا يحول ذلك دون خروجهما فى المساء نفسه لقضاء سهرة معا كزوجين سعيدين .

ألفت شلبية هذه الحياة الأنيقة ، كادت تخص بخدمة الهانم ، ولكنها كانت تخدم عن طيب خاطر النسوة الثلاث اللاتى يشاركنها فى البدروم ، تنظف الحجرة ، تغسل الملابس ، تبتاع لهن الدخان

واوراق البفرة ، وتتطوع بدافع خاص للف السجائر . وعن لسان الهانم أدركت انها أنضج من سنها ، وانها « شيخة » لطيبتها وسذاجتها ، أما فى الطريق وعند البدال فمضت تدرك انها جميلة فتسعد بهذا الامتياز وتتعامل فى تحفظ وبدلال مع المعجبين . وكانت اخلاقها فطرية لا تكاد بتجاوز الحياء . حدثتها أمها عن الجنة والنار ، وحذرتها الخادمات من الهفوات اللاتى تقضى على مستقبل البنت . مستقبل البنت ؟ . اذن فحياة السراى غير دائمة ، ما هى الا دار انتقال . المستقبل الحقيقى يقع فى الخارج . ربما فى كوخ كالذى جاءت منه . لكن ما كان يكفى هذا لتوفير تربية اخلاقية حقيقية . كانت طيبة ، سمحة القلب والعاطفة ، وهابة للاعجاب والحب . ذات قشرة رقيقة من الدين والخلق . الفت الحياة الأنيقة ، ومعاشرة علاقة زوجية حافلة بأسباب الهناء والصراع ، كما الفت جو الاسكندرية المتقلب باشراقه وعذوبته ونواته الضارية . وتجمعت انفاس المراهقة فى برعم قلبها فامتلأ برحيق الحياة الساخن ..

— ٢ —

من عالم الرجال ، العذب المخيف الغامض ، يطل وجه « على جلال » مثل المنارة . ليست بدلته الكحلية هى المثيرة وحدها ، ولكن قامته ايضا ، وبصفة خاصة نظرة عينيه الوهاجة ، فى العواصف التى تسجد لها الأشجار الشامخة يقف مستهترا ، مقطبا وباسما فى آن ، ولا يتراجع الى حجرة البواب حتى ينهمر المطر ويشرق اديم الارض السنجابى . له نظرة يودعها احيانا النسمة البارزة المضمخة بشذا البحر ، مثل قرصة ملاطفة لخد مورد ،

حادة وناعمة ، لغتها غامضة متحرشة ، تهيج الشعور بالأهمية ، تداعب السرور الخفى . تغطى القلق بغلالة من ايحاء وردى .

وذات أصيل كانت تطارد ضفدعا فى جدول محفوف بالشوك . كان الوقت خريفا والرذاذ يجىء قليلا ويغيب قليلا . شعرت بنداء يدعوها للنظر الى الوراء . رات « على جلال » يقف تحت شجرة ليمون رانيا اليها بنظرة ثملة ، بسمت بارتبـــاك ووثبت فوق الجدول . فى الجو سر خفى وكأن أوراق الأكاسيا تتهامس به . عكست عيناها السوداوان بهجة وحذرا . ترنحت فوق حافة مغامرة مجهولة بلا مقاومة تذكر . دنا منها صامتا مريد الوجه . تناول يدها ومضى بها الى الجراج فى نهاية ممشى مسفلت . لم تقاوم ولكنها تساءلت :

ـــ ماذا تريد ؟

ضمها الى صدره وغمرها بقبلات شرهة . وقفت مستسلمة لا تشارك ولا تقاوم . تمنت الا يجاوز ذلك الحد ولكنه لم يجترح خطوة الا كتمهيد لأخرى جديدة . وسألته :

ـــ الا تخاف النار ؟

ثم تساءلت ووجهها يتلقص بالألم :

ـــ ما هذا ؟ !

## ـ ٣ ـ

الواقع دون الحلم ولكن شخصه أهم من فعلة ، باتا شريكين فى حدث خطير ، وكاتمين لسر هام . استولى على قلبها وخيالها ، أحبته أكثر مما تصور ، تصورت العلاقة أقوى من صلب البوابة وأنقى من ماء المطر . هو فارس قلبها وقلبها مطيته الأمينة . ليست السراى بالمكان المأمون لهذه الأفعال ولكن حتام يبقى السر

سرا ؟ . ضايقها أن يتجاهلها بحكم الحذر ، طمحت الى معاملة ارق واطيب صراحة . وقال لها مرة :

— تجنبى النظر نحوى ، أنت مجنونة ؟

فسألته بحنق :

— لماذا تخافه ؟

— أنت مجنونة ؟

— أنت المجنون ، أنسيت فعلك ؟

— من الخير أن تتركى السراى ..

— حقا ؟ .. الى اين .. ؟

— أنت مستعدة ؟

— نعم .

فتفكر قليلا ثم قال :

— انتظرى مساء عند نافورة الميدان واحذرى أن ينتبه اليك أحد ..

## — ٤١ —

انتهى عهد السراى كما انتهى عهد الكوخ من قبل . فى حجرة على جلال الوحيدة بفراشها النسفرى وصوانها القديم المقشر وحصيرتها المتهرئة شعرت بأنها فى بيتها . لأول مرة تشعر بأنها تنتمى الى وطن ، وأنها ست بيت مثل حرم عصمت باشا خورشيد ، ومضت تعرف نفسها وتخبر الحياة والرجل والحب . وكان للعلاقة شهر عسل ايضا ولكنه فى الواقع اقل من شهر . تجلى على جلال عاشقا نحو أسبوع ثم خرج من جلده رجل جديد . اختفى المجامل الباسم العطوف وحل محله رجل فظ ضيق الصدر متوثب دائما للزجر والردع ، عجبت لتغيره ، فزعت من معاملته ، وكانت تزداد

به تعلقا وارتباطا . انها لا تطالبه بشيء ، تخدمه بولاء . تهبه ما تملك بلا مقابل . لم تكن تذوق اللحم الا مرة واحدة فى الاسبوع بلا تذمر . آيست من فكرة الزواج فتجنبتها وقنعت بحالها . ورغم حزنها شعرت بأنه ملكها وبأنه لا غنى له عنها . ومرة سألته :

ــ لماذا تعاملنى بخشونة ؟ .. هل بدر منى ما يسيئك ؟

فقال :

ــ انك تتوهمين ذلك لأنك دلوعة !

فقالت برجاء :

ــ أحسن معاملتى ، الا ترى انى يتيمة وحيدة مقطوعة من شجرة ولا أحد لى فى هذه الدنيا سواك ؟

فقال بسخرية :

ــ انى مثلك تماما ، وكنت مثلك دائما ، لم أعرف لى شجرة . وعلى حين نشأت أنت فى سراى باشا نشأت أنا فى اصلاحية ، ورغم ذلك اعتبرت الشكوى خنوثة !

ــ ولكنى اتألم ..

ــ الحياة خشنة وتطالبنا بالخشونة ..

ــ الا تزال تحبنى ؟

ــ اظن هذا واضح ..

فقالت بعذوبة وبراءة :

ــ انى لا اشكو الا معاملتك !

ــ هكذا خلقت ! ، ماذا ينقصك ؟ !

أحقا لا يدرك كم تتحمل من شظف العيش حرصا عليه ؟ ! . وتنهدت قائلة :

ــ ربنا موجود ..

فسألها بحدة :

ــ ماذا تعرفين عنه ؟

فقالت باستسلام :
ــ انه موجود ، الا يكفى هذا ؟ !
ولكنها كانت تغوص فى صميم الحياة ، وتزدهر رغم حرمانها من طيبات الحياة التى الفتها فى السراى ، ويتألق جمالها وشبابها فى الجلباب الشعبى ، وتنعم بالحب ..

— ٥ —

وكان يقول لها أحيانا وهو يدخن ويحلم :
ــ لا دوام لحال ..
فترمقه بسؤال حائر فى عينيها الجميلتين فيقول :
ــ ولما كنت فى الحضيض فسيصير الحال الى الاحسن !
ــ حقا ؟ ! .. ولكنى لا اصلح لشىء ..
ويبتسم ، ويبرم طرفى شاربه ، ويصمت فتقول :
ــ بوسعى أن أخدم فى أى بيت ولكنى سأنقطع عن بيتى !
فيضحك ويقول :
ــ هروبك أثار فى السراى زوبعة ..
فقطبت ولم تجد ما تقوله .. فيواصل :
ــ ظنوا فى بادىء الأمر انك سرقت شيئا ثمينا ، ولما وجدوا كل شىء فى محله ادركوا الحقيقة !
ــ الحقيقة !
ــ قالوا انها هربت من رجل غواها ، اليست هذه هى الحقيقة ؟
ــ ولكنهم لم يعرفوا الرجل ؟
ــ طبعا ..
ثم يقول بثقة :
ــ لا دوام لحال .

وذات مساء جاء معه برجل قصير بدين قمحى اللون صامت الملامح . جلس الى جانب علىّ على الكنبة على حين وقفت هى مستندة الى السرير غائصة فى ارتباكها . ولما طال الصمت والنظر قالت متهربة :

— أصنع لكما الشاى ..

فقال الغريب بصوت غليظ :

— شكرا .. لا اريد شيئا ..

وقال على جلال :

— انها لائقة والا فاننى لا اعرف شيئا ..

فابتسم الرجل ولم يعلق وواصل النظر فقال على :

— انها لائقة ..

فسأله الرجل ببرود :

— ماذا تعنى ؟

— من ناحية الشكل ..

فتساءلت بحدة :

— عما تتكلمان ؟

فأشار لها على اشارة آمرة بالصمت على حين قال الرجل :

— وما اهمية الشكل ؟

— انه الأساس ..

— اعندك فكرة عما تحتاجه من تعليم ؟

— انه اليسير اذا توفر الشكل ..

— ما اسمها ؟

فقال على مستقبلا وثبة من الأمل :
ـ شلبية الأمير ..
فابتسم الرجل متمتما :
ـ الأمير دفعة واحدة ! .. ولكن أعوذ بالله من شلبية !
فهتف على بتحد :
ـ انك موافق ولا داعى للمناورة ..
قام الرجل ، حنى راسه تحية لشلبية ، ذهب وعلى فى أثره يودعه .

## ـ ٧ ـ

رجع على بعد دقائق ممتلئا حيوية واستبشارا . سألته :
ـ من الرجل ؟
ـ مأمون الفرمانى صاحب ملهى الفلير دامور بالشاطبى .
ـ لماذا جئت به ؟ .. وما معنى حديثكما ؟
ـ الصبر مفتاح الفرج ..
وقف ينظر اليها باهتمام ثم قال :
ـ غنى .. غنى أى أغنية ..
فذهلت ولاذت بالصمت فعاد يتساءل :
ـ الم تغنى من قبل ؟ .. فى الحقل ؟ .. فى الحمام ؟
ـ ابدا لم يشجعنى صوتى قط ..
ـ يا للأسف .. ولكن جسمك صالح للرقص ..
فهتفت :
ـ الرقص !
ـ ليس عندك الا الشكوى والصراخ ، انى أعرض عليك خاتم سليمان ..

— أنا أرقص ؟ !

— بعد تهذيب وتعليم ثم تتفتح لك ابواب الرزق ..

— أمام الناس ؟ !

— طبعا ..

— اخص .. يا للعيب ..

فابتسم برقة مصطنعة وقال :

— انه مهنة شريفة ، شرفك من شرفى ، افهمينى جيدا ، لست انا الذى ادفع بك الى السقوط !

— انا مستعدة أعمل اى شىء آخر ..

— الا تريدين غذاء أوفر وكساء أجمل وحياة أفضل ؟ .. سنغير حياتنا بالعمل والشرف .. جربى ولا تخافى ، سيربط الرقص بيننا برباط متين اما الحياة كما هى الآن فلن تحس أكثر من ذلك !

انقبض قلبها ، رمقته بتوسل ، اغرورقت عيناها ..

— ٨ —

كان صباح داكن ، تجيش سماؤه بسحب ملبدة ، والريح تزار مطلقة الأمواج المزبدة الى اديم الكورنيش . جلست الى جانبه فى شيفروليه عصمت باشا خورشيد واندفع بها نحو الشاطبى وهو يقول :

— من يدرى ؟ قد تمتلكين يوما سيارة كهذه .

استقبلهما مأمون الفرماتى فى شقته فوق الملهى مباشرة بعمارة مكونة من عشرة ادوار مطلة على البحر الثائر ، تجاهل احمرار عينيها من أثر البكاء وقال :

— أهلا بالتلميذة .. ستضحكين غدا ..

وقدم لها الشاى والكعك ومضى يقول :

ــ انسى شلبية ، اخترت لك اسم « سمارة » ، سمارة الأمير ، تركت لك الأمير فهو مناسب جداً ، هل نتوقع ازعاجا من أهلك ؟

فأجاب على عنها قائلا :

ــ كلا .

ــ عظيم ، نحن فى أوائل الشتاء ، الشتاء فصل ميت ، ولكن يجب أن تعدى كما يجب قبل الصيف ، مم تخافين ؟

ــ انها بنت شريفة كما تعلم ..

ــ ونحن أيضا شرفاء ، لن يضطرك أحد الى شىء تأبينه . ولا تصدقى غير ذلك ..

ثم بعد فترة صمت وتأمل :

ــ ولكن التعليم لا مزاح فيه ، ستتعهدك امرأة خبيرة ، ولكن كل شىء يتوقف على ارادتك ..

## ــ ٩ ــ

وسرعان ما بدأ التدريب ، ووفر لها الرجل أيضا كساء مناسبا وغذاء صحيا . وكان التديب يشمل آداب المائدة واللبس والزينة . وكلما وجد مأمون الفرمانى اهمالا او تكاسلا استعان بعلى جلال حتى اضطر الرجل مرة الى توجيه لطمة اليها . يومها رجعا الى حجرتهما وهى صامتة غارقة فى حزن أبدى . وغير هناك من لهجته المألوفة فقال لها بنبرة المعتذر :

ــ ما من رجل الا وضرب محبوبته عند الضرورة .

اصرت على الصمت والعبوس فداعب بابهامه خدها وقال :

ــ العمل عمل ، لا مزاح فيه ، وهو لمصلحتك ..

فقالت بحنق :
ـ بل لمصلحتك انت !
ـ لمصلحتنا المشتركة اذا شئت ، ما نحن الا شخص واحد ..
فصاحت به :
ـ لقد سلمتنى الى رجل غريب !
ـ انه رجل اعمال ، وليس له فى النسوان ..
ـ لو كنت تحبنى حقا ما فعلت ذلك .
ـ ما فعلت ذلك الا لانى احبك ..
فقالت بتحد :
ـ انت ! ، لم اسمع منك كلمة حب واحدة !
ـ ولكنى افعل ذلك !
ـ أريد حياة معقولة ، هل فى ذلك من بأس ؟ !
وساد صمت ثقيل حتى قطعه قائلا :
ـ كنت ذات يوم تلميذا ، انقطعت عن التعليم بسبب الفقر واليتم ، تركت شبه أمى وانطحنت فى الاصلاحية .. ، ها أنا اهيىء لك سبيلا اجمل . ماذا فى ذلك من عيب ؟ ! .. انظرى الى الراقصات وحظهن فى الحياة ..
لقد احتملت الحياة حرصا عليه ، ولأنها شعرت فى اعماقها الحية الملهمة انه يحبها .

الفلير دامور ملهى صغير وأنيق . لا تفتح نوافذه الأمامية شتاء ، تسفعه العواصف وهو صامد بجدرانه الأرجوانية ، مربع الشكل ، مسرحه صغير يعلو عنى الأرض بمتر واحد ، فى جوانبه مقاصير من خشب الزان ، وصفوفه موائد ، يغالب نعاسه طيلة الشتاء والخريف ، قلة تختلف اليه كحانة نظيفة تمتاز بمزتها الغنية ، وفرقة موسيقية تعزف الحانا شرقية وغربية ، ومغنى درجة ثالثة يترنم بأغان كلاسيكية ، به أيضا مهرج يقدم نمرا فردية هزلية وساحر ، وبطانة المطرب مكونة من فتيات أربع يدعون أحيانا لمشاربة الزبائن ملتزمات بأدب يناسب رواده الممتازين من المصريين والأجانب .

دفعت سمارا للرقص فوق مسرحه فى أول الربيع ، كانت فرصة فريدة للممارسة والتدريب العملى أمام رواد معدودين غير مبالين . كانت كمن يلقى بنفسه فى الماء وهو جاهز لفن السباحة ، رقصت على أى حال ونالت تصفيقا من أيد محدودة . عطفا من ناحية وانجذابا الى جمالها من ناحية أخرى . الرقص يقدم لأول مرة فى الفلير دامور ، وسمارة وجه ممتاز وجسد ممتاز أيضا .

فى الحجرة الخلفية وجدت مأمون الفرماوى وعلى جلال فى انتظارها . قال الفرماوى :

— التصفيق للمرأة لا للراقصة . .

فقال على جلال :

— فى المرة القادمة سيكون للراقصة والمرأة معا . .

فقالت بحرارة :
ـــ اذا كنت لا أصلح فلأنصرف بسلام ..
فتساءل القرماوى ببرود :
ـــ عندك فكرة عما كلفنى تدريبك وكساؤك وتغذيتك ؟
فعبست وصمتت . وكان المتفق عليه أن تعمل حتى نهاية الصيف بلا مقابل نظير التكاليف ، على أن تكافأ فى الصيف بعد ذلك بجنيه فى الليلة ، وثلاثين قرشا بقية العام . وتساءل على جلال بمكر :
ـــ الا تعطى شيئا على الحساب ؟
فقال الرجل بحزم :
ـــ لم أعتد أن أغير حرفا فى اتفاق ..
ثم مستدركا :
ـــ لا تنس تحيات الزبائن !

ـ ١١ ـ

سألت على جلال وهما عائدان مشيا على الأقدام الى الابراهيمية :
ـــ ماذا يعنى بتحيات الزبائن ؟
ـــ سيدعوك بعض الأكابر حتما للمجالسة والمشاربة ، فى تلك الحال يحسب الكأس بضعف ثمنه وتأخذين نسبة محترمة ..
فهالها الأمر وقالت بحدة :
ـــ ليس هذا ما تم الاتفاق عليه بيننا ..
ـــ لا خوف من ذلك وهو رزق شريف ..
ـــ لكننى لا اشرب ..
ـــ يملأ كأسك عادة بالشاى ، هذا تقليد معترف به ..

فقالت بلسى محدثة نفسها :

ـ اجالس رجالا ؟ !

ـ قد يدعوك بعضهم للذهاب معه ولك أن ترفضى ..

ـ يا له من موقف .. !

ـ بسيط ، لا تعقدى الأمور ..

ـ ربما تدخل مأمون الفرماوى ؟ !

ـ انه يعرف سلفا أني أدق عنقه لو فعل ..

شدت على ذراعه بامتنان وهما يخوضان النسائم العذبة تحت بصيص النجوم فقال :

ـ لا أريد لك الابتذال الرخيص ..

## ـ ١٢ ـ

اعتادت الرقص ومضت خطوات فى طريق اتقانه ، اعتادت كذلك المجالسة والمشاربة والاعتذار عند اللزوم . اكتسبت مكانة سامية بفضل انوثتها ، وانقضى الربيع والصيف وهى تتألق كنجمة فى الملهى الصغير . لم تأنس الى احد كما انست الى سعداوى بياع الفستق ، فهو فلاح مثلها صبوح الوجه ، يرمقها باحترام وعطف . يرمقها بأكثر من ذلك حتى قالت لنفسها انها لو كانت حرة بلا رجل لما تردد فى طلب يدها . وقد مالت اليه ميلا صافيا ، لأنها كانت سليبة القلب ، مكبلة بحب على جلال .

وذات ليلة ، عقب انتهاء الموسم ، وحلول الخريف ، جاءها سعداوى وقال لها :

ـ المقصورة رقم واحد ..

مضت الى المقصورة فوجدت فى استقبالها شابا أنيقا وجيها

ذا جاذبية واضحة ، صافحته بسمة كالعادة فقال بصوت أضخم كثيرا من عوده النحيل :

ـــ اهلا .. مروان امين المعجب بفنك وجمالك ..

فتمتمت وهى تجلس قبالته تحت أغصان الياسمين المعشق فى أعواد الزان :

ـــ تشرفنا .

وجاء الجرسون كظلها فقال مروان أمين بنبرة مترفعة :

ـــ اثنين ويسكى ..

عيناه نجلاوان ، وسيم القسمات ، مبروم الشارب ، عذبه الابتسامة . تأملها باعجاب وقال :

ـــ يخيل الى انك ولدت لتكونى راقصة ، ومجيئك الى الفلير دامور اضفى عليه حيوية لم ينعم بها من قبل ..

ـــ اشكرك جدا ..

وشرب نخبها ثم قال :

ـــ اطلبى ما تشائين ، لا تتقيدى بى فانى لا اشرب عادة اكثر من كاسين ..

فحنت راسها ممتنة وسالته :

ـــ حضرتك من الاسكندرية ؟

ـــ نعم ، انا واجدادى ، انها مدينة عالمية كما ترين ..

ـــ نصف زبائننا من الخواجات ..

لزم ادبه طيلة الوقت . لم تبدر منه كلمة نابية ، ولا ملاحظة ماكرة ، ولا حركة مستهجنة . واتسم بوقار لا يناسب سنه حتى تساءلت فى نفسها عما جاء به ، وجعل يحثها على الشرب حتى شربت ست كاسات من الشاى المثلج .

وعند منتصف الليل نهض وهو يقول :

ـــ ليلة سعيدة أرجو أن تتكرر كثيرا ...

## — ١٣ —

رجعت تلك الليلة بصحبة على جلال وفى جيبها مائة وخمسون قرشا ، ولما دستها فى يده تهلل وجهه الندى بنسائم الخريف المشعشعة بأضواء النجوم وقال :

ـــ الحظ يبتسم ، ما رأيك فى مروان أمين ؟

فقالت بحماس برىء :

ـــ مهذب للغاية ، فوق ما تتصور ..

ـــ الفلير دامور مكان محترم !

ـــ هل سمعت عنه ؟ .. مروان أمين ؟

ـــ يقول عنه مأمون الفرماوى انه صاحب جريدة « الصوت » ، اذكر انه جالس مرة عصمت باشا خورشيد فى بدرو ..

ولكنه اقلقها بحماسه الزائد وهو يتساءل :

ـــ متى يتاح لنا ان نؤجر شقة صغيرة وجميلة ؟!

## — ١٤ —

واظب مروان أمين على الذهاب الى الفلير دامور مساء كل أحد . وجعل يطلبها الى مجلسه فى كل زيارة . نشأت بينهما مودة حميمة والفتة بأريحية وعذوبة . ومرة قال لها :

ـــ جمالك فريد ، وهو مصرى صميم ..

فقالت ضاحكة :

ــ ولكنك لست مصريا صميما !

فرفع حاجبيه الكثيفين وهتف :

ــ كيف ؟ !

ــ عيناك !

ــ هذه الزرقة ؟ .. اوه .. كانت جدتي جركسية ولكنني مصري مائة في المائة .. ، المصري من يحب مصر ..

ــ ولكن مستر فاولز يؤكد حبه لمصر !

فضحك ضحكة عالية وقال :

ــ رجل البورصة الانجليزي ؟ ! .. ذاك حب مغرض ، الحب انواع كما ترين ..

فتساءلت باهتمام :

ــ حب مغرض ؟

ــ كما نحب البقرة لنستغلها ..

فوجمت وكان وجهها مرآة صافية صادقة فسألها :

ــ مالك ؟

ــ لا شيء .

ــ لا يجوز ان تتكدري هذه الليلة بالذات ..

ــ لماذا هذه الليلة بالذات ؟

ــ نويت أن أدعوك للعشاء في بيتي !

وبلا تردد أعادت الأسطوانة المعتادة أمام هـذا النوع من الدعوات .

ــ معذرة .. انا لا افعل ذلك ..

فدهش ، صمت قليلا ، ثم قال مرتبكا لأول مرة !

ــ انه لأمر مؤسف لي جدا ، ولكنك رائعة !

وجاء مأمون الغرماوي عند انتهاء السـهرة ليودعه فقال الشاب :

ــ كل شىء طيب ولكن ..

وضحك ضحكة عالية يدارى بها ارتباكه ثم واصل :

ــ ولكن من المؤسف ان سمارة الحلوة لا تلبى طلبات المنازل !

## ــ ١٥ ــ

سار على جلال طوال الطريق صامتا فتوقعت شرا . وفى الحجرة نفخ وهو يخلع بدلته وقال :

ــ غير معقول أن ترفضى النعمة ..

فهتفت بحدة :

ــ نعمة ! ..

ــ طبعا ..

ــ انه الابتذال الرخيص كما سميته ..

ــ بل هو ثمين وغال !

ــ أنت تدفعنى الى ذلك يا على ؟

ــ لصالحك ، لصالحنا ..

ــ أانت تحبنى حقا ؟

ــ طبعا .

ــ انه حب مغرض !

فدهش على وقال :

ــ يا لها من كلمة .. !

ــ كما نحب البقرة لنستغلها .

فما تمالك أن ضحك ، ثم قال :

ــ حديث السكارى ! . عليك أن تفهمى الحياة خيرا من ذلك ،

الحب فى القلب ، لا أهمية للجسد ، الأغنياء يرون فى الحب أنواعا أما الفقراء فلا وقت لديهم لذلك ، انهم يحاربون العناء بكل وسيلة .

فقالت وعيناها تغرورقان :

ـ انى أرفض .

فقال باصرار :

ـ كلا يا سمارة . شلبية ترفض نعم . وتحفظ قلبها لى ، أما سمارة فنخوض الى جانبى معركة واحدة .

## - ١٦ -

انسابت بهما الفورد فى الطريق المحفوف بالمزارع ، فى السماء غيم كثير والريح تنقض بعنف ولكن الطقس معتدل لطيف . دخلا بيتا خلويا صغيرا فى « أبو قير » . بدا مروان أمين طيلة الوقت نشيطا سعيدا . مضى بها الى فراندا وهو يقول :

ـ لو كانت ليلة مقمرة لسبحنا معا ..

ـ الحمد لله على أنها غير مقمرة .

ـ تخافين البحر ؟ .. ألست سكندرية .

ـ كلا ، من رشيد ..

ـ بلدة ذات تاريخ مجيد ، انى سعيد بوجودك .

ـ وأنا سعيدة ..

فرمقها بشىء من الريبة ثم تساءل :

ـ لكن الظاهر اننى لم احظ باعجابك ؟

ـ ابدا ، المسألة اننى افعل ذلك لأول مرة ..

فقال بصدق :

ـ انى اصدقك ، البراءة لا تكذب ، ولكن هل ساءك ذلك ؟

فقالت وهى تغض بصرها :

ــ انى سعيدة ..

## ـ ١٧ ـ

فى رحاب مروان أمين ظفرت بحنان واحترام ومعاملة رفيعة ونقود وفيرة . انه أفضل من عنى جلال بما لا يقاس فلماذا يتعلق قلبها بعلى وحده ؟ . لا سببا معقولا واحدا يدعوها الى حبه ولكنها اسيرة هواه ، وفى سبيله تضحى بكل غال . وهو أيضا يحبها ما فى ذلك من شك ، على طريقته اى نعم ، ويشاركها الوحدة والعناء . ولن تنسى قوله ساعة رجوعها من عند مروان أمين أول مره « أنا لا أستغلك ولكن كلينا يسلم للاستغلال » . وهو أيضا الوحيد الذى يناديها باسمها « شلبية » فتشعر بين يديه بأنها هى هى وليست شخصا آخر . أما مروان أمين فقد احتل من نفسها مكانة سامية واحتراما ومودة ، وهو بلا شك يعشق جمالها ويهيم بمفاتنها ، ويغدق عليها بسخاء ، ويحترمها بطريقة جعلتها تشعر بانسانيتها لأول مرة . وقال لها مرة :

ــ انك طيبة أكثر من اللازم يا سمارة ..

فقالت ببساطة :

ــ الله مع الطيبين ..

فجفل قليلا وتمتم :

ــ الدنيا متوحشة وقد خلقنا لنقاتل !

فقالت بدهشة :

ــ كيف أقاتل وأنا امرأة ولا أهل لى ؟

فتجهم وجهه ، وفتر حماسة ، ثم سألها :

ـــ ماذا جاء بك الى الفلير دامور ؟

فأعادت أسطوانة حفظتها عن ظهر قلب :

ـــ سرت من يتم الى زواج فاشل الى طـــلاق ، ثم دعانى الفرمانى ..

فقال لها وهو يتنهد :

ـــ ادخرى كل مليم ، فلا سبيل الى النجاة فى هذه الغابة الا بالنقود ! . أما الايمان فلا ينقصك ..

## — ١٨ —

وتوثب على جلال للتجديد بلا توان ، اكترى شقة صغيرة فى كامب شيزار بعمارة جديدة ، وتبدى فى مظهر أنيق فلم يبق من ابتذاله القديم الا نظرة عينيه البراقة المتحدية . وقال لها :

ـــ تركت خدمة الباشا !

فسألته باهتمام :

ـــ الم تتسرع ؟

ـــ كلا ، انى أفكر فى مشاركة الفرمانى ..

ـــ دفعة واحدة ؟

ـــ كل شىء يتوقف على اجتهادك !

فسألته بأسى :

ـــ وتستمر الحياة هكذا ؟

ـــ سنبدأ يوما حياة جديدة ..

ـــ متى ؟

ـــ عندما نطمئن على مستقبلنا ..

وابتسم اليها واستطرد :

ـ ثم نتزوج !

وثبت متهللة فتعلقت بعنقه وهتفت :

ـ آه .. متى يحدث ذلك ؟!

## ـ ١٩ ـ

منذ حديثها الاخير مع مروان امين لم يواصل الشاب ممارسة غرامه معها . قنع بالمجالسة والمؤانسة وتبادل الاحترام والعواطف الرقيقة ، ولكنه لم يضن عليها بجوده وهداياه . ورغم كل شيء لاحظت عليه تغيرا غير يسير وفتورا حتى قالت له :

ـ لست كسابق عهدك .

فقال وهو يبتسم :

ـ انى مريض ..

ـ كفى الله الشر ..

ـ احتاج الى جراحة ، ساجريها فى الخارج ..

ـ يا لسوء الحظ .

ـ اننى لم اعرف الراحة فى حياتى ..

ـ ولكنك غنى والحمد لله ..

ـ ليست مشكلة المال ..

ـ عملك شاق ؟

ـ جدا ..

ـ سادعو لك دائما بالسلامة ..

ـ دعاء مبارك من قلب طاهر .

ثم اخرج من علبة سوارا ذهبيا مطعما بفصوص ماسية ، اهداه اليها قائلا :

ــ هدية لك لمناسبة السفر .

فقالت بتأثر شديد :

ــ أنت شاب نبيل ، لو كان الناس مثلك ما عرف احد الشقاء أبدا ! ..

## ــ ٢٠ ــ

وقال لها على جلال وهو يتفحص السوار باهتمام :

ــ لقد انهى العلاقة بينكما بلباقة وبلا كسر خاطر ! .

فقالت معترضة :

ــ لا تسيء به الظن فانه لا يكذب ..

فقال على بازدراء :

ــ الصدق محرج ومهلك .

أما سمارة فقد حزنت لفراقه ، وتمنت لو دام لها ليجنبها على الاقل التورط فى علاقة جديدة مجهولة . ادركت ان على ــ وقد جنى من العلاقة القديمة ما جنى ــ سيلقى بها بلا رحمة بين يدى ذراعين واعدتين . ومضتِ تكون لها شخصية فنية مؤثرة وتتوكد شهرتها وسحرها . وهلّ الصيف برطوبته ورواده وضجيجه . وازدحم الفلير دامور بالزبائن الجدد . وتكررت المجالسات كل ليلة . والاعتذارات عما عدا ذلك . وطبعا كان على يوافق على ذلك مترفعا عن العشاق « المفلسين » عشاق الليلة الواحدة ! . واقترح على أن يدخل شريكا فى الملهى ولكن الفرمانى رفض . وفى الوقت نفسه استرضاه فعينه مديرا للملهى بجنيه يومية فى الصيف ، ونصف جنيه فى سائر العام . وفى أواخر الصيف الثرى جاءت أنباء حزينة من وراء البحار تنعى الصحفى الشاب مروان

أمين . واهتز قلب سمارا ، وغشيها حزن صادق ، فتوارت في حجرتها وبكت طويلا . وفي أوائل الخريف رجع مستر فاولز الى الفلير دامور ، واذا به يدعو سمارا للعشاء في بيته ! ، وكالعادة اعتذرت . وسعد بذلك سعداوي بياع الفستق وهمس في أذنها :

ـ انهم أنجاس !

غير أن مأمون الفرماوي احتد بشدة وقال :

ـ كيف ترفضين انجليزيا ؟ !

وسأله علي :

ـ أظنه مقتصدا كسائر تجار البورصة !

ـ انه يقدم هدايا أثمن من النقود ..

فقال علي مخاطبا سمارا :

ـ انه على أي حال عجوز ولن يضايقك !

## ـ ٢١ ـ

مستر فاولز يقترب من الستين ، ربعة ضخم الرأس والوجه غليظ اليدين متين البنيان . يشرب كثيرا ونادرا ما يسكر ، يعرف كلمات معدودات من العربية يستعين بها على توضيح اشاراته وقت السمر أو يمضي الوقت صامتا . كانت تؤانسه ليالي كثيرة في الفلير دامور ولكنه لا يدعوها الى بيته الا مرة أو مرتين في الشهر . وكان يقيم في الدور الأول من بيت أنيق يقوم على هضبة فيكتوريا . أرمل وحيد ، أولاده في استراليا ، يخدمه نوبي ومساعده ، وقد ولع بسمارة ، ولانقطاع التفاهم بينهما ظل حيالها رمزا مجهولا . وجدت معاملة لطيفة واهداها قرطا ثمينا ولكنها تشعرت نحوه بشبه نفور وخوف ولم تأنس من وجهه الضخم الحاد

شعاع جاذبية واحدا . أعجبت فقط بعمق زرقة عينيه ، وتذكرت بلونهما مروان أمين وأيامه الحلوة . فى الصباح ترى البقعة خالية ومترامية ، رقعة منها صحراوية ، ورقعة يتناثر فيها النخيل وتغطيها الحشائش ، ويقوم انبيت الأنيق وحيدا فوق الهضبة يصعد اليه بدرجات منحوتة فى الصخر . وهو مكون من دورين ، يقيم فاولز فى الأرضى المغروس وسط حديقة أما الثانى فلا يجىء منه صوت ، ومرة رأت فى شرفته عجوزا مهيبا فأسرعت فى مشيتها كأنما تفر . البيت جمين تحت هامات السحب ولكن كأنه ملجأ للعجائز أما النخيل الفارع المثقل بالبلح الأحمر فذكرها برشيد فنسمت على قلبها ذكرى مبهمة مبتلة بالدمع .

## — ٢٢ —

وذات ليلة وجدت فى مقصورة مستر فاولز آخر يجالسه ، قدمه لها بنبرته الانجليزية قائلا :

— جارى مهدى باشا جلال !

آه ، انه العجوز الذى لمحته فى الشرفة ، حياها بابتسامة جذابة ، انه طويل ضخم الهيكل رغم رقة لحمه ، فضى الشعر والشارب ، مشع العينين ذو انف غليظ ، وله وقار نفاذ . من أول نظرة أنست اليه وشغفت بأبوته الكامنة . يبدو أكبر من فاولز ولكنه ممتلىء حيوية وابتساما . شرب بكثرة مثل فاولز وتتابعت ضحكاته ، حادث فاولز بلسانه ، وحادثها — طبعا — بلسانها . صوته عذب أيضا . قال لها :

— رقصك جميل مثل وجهك ..

وفى آخر السهرة تقدمها بسيارته حتى البيت الوحيد ، ثم مضى الى شقته العليا ، فتمنت أن يجىء كل ليلة .

## — ٢٣ —

قالت لعلى جلال وهى تحدثه عن الباشا :

ــ لقبة جلال مثلك !

فقال باسما :

ــ انه أكبر محام فى الاسكندرية ، محترم بين أولاد العرب والخواجات ، على علاقة وثيقة بعصمت باشا خورشيد ، كما كان صديقا للمرحوم مروان أمين رغم فارق السن ، غنى لدرجة كبيرة ، رمل وبلا ذرية ..

ــ انه جار مستر فاولز ويعيش وحيدا مثله ..

وصمتت قليلا ثم قالت بدعابة :

ــ لقد وقعت فى هواه !

فقال لها باهتمام :

ــ المهم ان يقع هو فى هواك !

## — ٢٤ —

فى الليلة التالية مباشرة شرف مهدى باشا جلال ولم تكن من الليالى التى يسهر فيها فاولز . ودعا سمارة الى مقصورته فجاءت ممتنة وسعيدة . رشف من كأسه ولما رفعت كأسها أوقف يدها برقة وهو يقول مازحا :

ــ الشاى منهك للأعصاب !

فضحكت ، وادركت من توها أنه دائر وابن سوق ، فقال :
ــ اطلبى ما تشائين ولكن لا تشربى الا القدر المناسب ..
فقالت بصراحة وبراءة :
ــ انى سعيدة بالجلوس معك ..
ــ مثلك واكثر ، ولكن ما رايك فى فاولز ؟
ــ شخص غريب ..
ــ شيطان ..
ــ حسبته صديقك ؟
ــ صديق عمل ليس الا .. ماذا لو علم بانك سعيدة بالجلوس معى ؟
ــ لا ادرى .
ــ على اى حال فانت حرة . اليس كذلك ؟
فقالت ضاحكة :
ــ لم يشترنى بعد .
ــ عظيم . ما جوابك لو دعوتك الى بيتى ؟
ــ انه نفس البيت ..
ــ لم لا ؟ ..
وبسرور ، وقبل مشاورة على هذه المرة ، قالت بجراة جديدة :
ــ انى اقبل ..

## ــ ٢٥ ــ

احبت المسكن ، وادهشتها فخامته ، قهقه الباشا وهو يقول مشيرا الى اسفل :
ــ لا يتصور الحيوان انك هنا ..
وشرب كعادته ، ونشطت شهيتها فاكلت بلذة . ولما ثمل سالها :

ــ هل تغنين ؟
ــ كلا للأسف ..
فوضع فى الحاكى اسطوانة وهو يقول :
ــ اذن نسمع « يوم الهنا » ..
وراح يعرقع بأصابعه مزيحا وقاره جانبا ويقول :
ــ كل ما يخفق القلب له عبادة !
ــ هل تغنى انت ؟
ــ أحيانا .
ــ اذن فأسمعنى صوتك .
ــ كلا .. اود أن أعطيك خير ما عندى ..
فضحكت وقالت :
ــ انت رجل ظريف .
ــ انت ساحرة يا سمارة .
فتساءلت وقلبها يمتلىء بحب برىء صاف :
ــ متى ماتت زوجتك ؟
ــ انك تتحرين عنى ، حسن ، حسن ، منذ عشرين عاما ..
ــ ولم لم تتزوج ؟
ــ حزنا عليها ، وعلى نفسى لأن الله لم يكتب لى الانجاب !
ــ كنت تود ان يكون لك ولد ؟
ــ انى أسلم بمشيئة الله ..
فبعد تردد قالت :
ــ تتحدث عن الله وانت ..
فضحك عاليا ، وسلط عليها شعاع عينيه مليا ، ثم قال :
ــ ارجو ان تجىء هدايتى على يديك ..
فوضعت راحتها على يده وقالت :
ــ انا أغضبتك !
ــ محال يا سمارة ، الا ترين انى احبك ؟ !

## - ٢٦ -

كان سخيا فوق الوصف . وأعلن حبه بطريقة صارخة ودون مبالاة فكان يأخذها فى سيارته الى بدرو وأثنيوس وحديقة أنطونيادس . واذا بمستر فاولز يقتحم عليهما الشقة ذات ليلة . أما هى فركبها الخوف ، وأما مهدى باشا فقد ضحك وهتف به :

ـ هاللو فاولز !

ولكن الآخر وقف متجهم الوجه غيورا حانقا . رطنا بما لا تفهمه ولكنها توقعت شرا . بدأ الحوار بدرجة منخفضة ومضى يعلو ويشتد . تصلبا متواجهين فى تحد . عجوزان يتطاحنان على امرأة . واذا بفاولز يوجه لطمة الى صدغ الباشا ، واذا بالباشا ينهال عليه باللطمات . وصرخت سمارا . وتراجع فاولز فثبت الباشا فى موضعه . ذهب الرجل وجعل مهدى جلال يلهث فأخذته سمارا من ذراعه الى ديوان وأجهشت فى البكاء . .

## - ٢٧ -

صارت له وحده فى حياتها الأخرى . تمنت أن يبقى الى جانبها حتى آخر العمر . ذلك الأب الذى جادت به عليها السماء . وسألها مرة ـ كما فعل مروان أمين من قبل :

ـ ماذا جاء بك الى الفلير دامور ؟

فقصت عليه القصة المحفوظة فقال بحنان :

ـ لا داعى للخيال !

ـــ الا تصدقنى ؟
ـــ لعن الله من لقنك الكذب .
فغلبها الحياء وسكتت فقال :
ـــ عرفت حكاية سراى عصمت خورشيد ، وعلى جلال !
ازدادت صمتا وحياء فاستطرد :
ـــ انه يستغلك بدناءة !
ـــ كلا .. انه يحبنى ..
ـــ وانت ، اتحبينه ؟
فلاذت بالصمت فقال :
ـــ انه لا يستحق حبك .
ـــ الحب وحده لا يكفى .
ـــ انت مشكلة يا شلبية .
ـــ انك تعرف كل شىء ..
ـــ انى محام عجوز ..
ـــ انى احبك ايضا !
ـــ وكانت امى اسمها شلبية !
ـــ انت فلاح ؟
ـــ طبعا ، ليس كل باشا بعصمت خورشيد ..
ـــ انى وحيدة .
ـــ انت ! ؟ . كلا ، انك اقوى منى ، واقوى من فاولز ، اقوى من اى عاشق ، العاشق ضعيف أما المعشوق فقوى ، ولكن ما جدوى الحب اذا لم أرد اليك كرامتك يا زينة النساء ؟ !

— ٢٨ —

وذات ليلة وهو ثمل لثم عنقها وتساءل :

— هل توافقين على الزواج منى ؟

ذهلت . سحرتها الكلمة المقدسة . طرب قلبها حتى السحر . ثم سرعان ما ورث الأسى كافة مشاعرها .

راقبها صامتا ، ثم تساءل :

— على جلال ؟ !

فلم تنبس ، فرنا اليها واجما ، حتى تمتمت :

— انك اجمل ما فى حياتى ..

— انى شيخ فان وهو رجل شاب ، ولكن لا تسلمى باستغلاله لك كأنه قضاء وقدر ..

— انى اتمنى السعادة ولا يهمنى المال !

— لا ادرى كيف اكافئك على ما وهبتنى من سعادة ، والحق اننى ما أردت الزواج منك الا لترثى تركتى التى لا وريث لها ..

فقالت باخلاص :

— حياتك عندى اغلى من التركة ..

فقال بأسى :

— انى احترم الحب واقدس الاخلاص فلا باس عليك ولعلى اجد طريقة اخرى لمكافاتك يا شلبية ..

## — ٢٩ —

أسعد أيام حياتها . تمتعت بالاحترام والحب ما شاء لها التمتع ، وضاعفت العلاقة — مقرونة بما نشب حولها من عراك بين الباشا وفاولز — من شهرتها الفنية وأضفت عليها احتراما لم تعرفه من قبل . وكان على جلال يستحثها دوما على انتهاز الفرصة والافادة من العلاقة ما وسعتها الحيلة ولكنها كانت تأبى ذلك ، وفي الوقت نفسه لم يقصر الرجل في اغداقه . وكثيرا ما قال لها على :

— الا تدركين انه يترنح على حافة القبر ؟

فكانت تغضب وتحتد وتدعو له بطول العمر ، وتقول :

— ما عرفت أبا قبله !

ولكن الحب مهما بلغ من قوته وصفائه لا يستطيع أن يدفع الحتم . فقد مضت صحة الباشا في التدهور حتى اضطر الى اتخاذ قرار نهائي بتصفية عمله والاقامة في الريف . وكان وداع مؤثر ، أهداها هدية ثمينة عقدا من الذهب ذا فصوص ماسية ، وقال بتسليم :

— اليوم أو غدا ، لا مفر من النهاية ، وسيكون لك في وصيتي ما استطيع أن أوصي به ، وعليك أن تحتفظي بها لنفسك حتى تملكي استقلالك ، وتضمني حياة حرة كريمة ..

ودعته وهي لا تراه من فيض الدمع الصادق ..

واصر على جلال على مشاركة مأمون الفرماوى ، وخشى الرجل ان ينفذ على تهديده بفسخ عقد سمارة فقبله شريكا بثمن العقد ، وفى الحال تجدد الملهى ، فدعم بمطبخ شرقى وغربى وكافيتيريا ، وطلى من جديد ، كما تجدد أثاثه . سجل عقد المشاركة باسم على جلال ، وظلت هى لا تملك شيئا الا الحب ، أو لا تملك الا ما اتقنته من هز البطن والصدر والرقبة .

وسألت على جلال :

ــ أما آن لنا أن نتزوج ؟

فداعب خدها برشاقة وقال :

ــ ما زلنا فى أول الطريق ، الملهى لا يعمل بكامل قوته الا ثلاثة أشهر ، أما بقية العام فهو مثل سفينة فى مهب العواصف والأمطار لا يأوى اليها الا طلاب الدفء والستر ..

ــ وما ضرر الزواج ؟

ــ انك سانجة ، لو حازك وجيه وانت على ذمتى لأمكن أن أتعرض لتهمة خطيرة تزج بى الى السجن ..

ــ لم نعد فى حاجة الى هذه العلاقة ..

ــ ما زلنا فى أول الطريق ، هل شيدت عمارة مثل أمينة الفنجرى ؟ !

ــ يا خبر ! .. انه طريق بلا نهاية ..

ــ بل له نهاية ، وهى قريبــة ، ولكنها تطالبنــا بالصــبر والعمل ..

## - ٣١ -

وتجلت فى سماء الفلير دامور سحابة سوداء . فذات يوم غزا الملهى عمرو عبد القوى مفتش الضرائب . شاب فى الثلاثين جاد المظهر قوى الجسم ، يهز منظره المتهربين من أعماقهم . راح يفحص المستندات ويقيد ملاحظاته ثم ذهب . غاص قلب على جلال فى صدره ولكن مأمون الفرماوى قال له :

ــ لا تخف ، كل انسان وله ثمن !

وتحرى عن المفتش الجديد عند بعض رجال الأعمال فى الحى ، رجع عصرا وهو يقول :

ــ الولد نزيه ، سنلقى متاعب لا شك فيها ...

فقال على جلال :

ــ لاحظت أنه نظر الى سمارة باعجاب !

فقال الفرماتى :

ــ هذا هو الأمل الأخير !

## - ٣٢ -

وجاء عمرو عبد القوى ليتلقى الاقرار . جلس فى مقصورة لبطالعه ، وباشارة من على جلال جلست سمارة على مقربة من المسرح بحيث يراها المفتش . ولما كرر النظر نحوها ابتسمت فى حياء ، ثم مضت اليه وهى تقول :

ــ أتريد شيئا فى أثناء عملك ؟

فابتسم عن فم عريض متمتما :

ــ خطوة عزيزة ....

فجلست قائلة :

ــ نحن أصحاب المكان وعلينا اكرام الضيوف ..

ــ مفتش الضرائب ليس بضيف !

ــ نحن نحب للناس كما ترى ..

ــ ولو كانوا من رجال الضرائب ؟ !

ــ ولو كانوا ! ..

فواصل مطالعته وهو يتمتم :

ــ عذرت الآن فقط مهدى باشا جلال !

فقالت محتجة ولكن بعذوبة :

ــ عفا الله عن الناس ، كان لى أبا ولكن الناس لا يرحمون ..

فارتسمت فى عينيه اللوزيتين ابتسامة ماكرة وتساءل :

ــ أب ؟ !

ــ صدقنى !

ــ لقد عرف كيف يختار ابنة فريدة !

فقالت بتواضع :

ــ لست الا فلاحة من رشيد !

فتجلى الاهتمام فى عينيه ، وهتف :

ــ رشيد ؟ ! ، انا ايضا من رشيد ! ، أسرة من ؟

ــ لا .. لا .. على باب الله ..

فقال مقهقها :

ــ انا من نفس الأسرة ..

ثم انهمك فى عمله ، واستدعى مأمون الغرماوى وقال :

ــ المغالطات كثيرة ولكن لا مفر ..

عند ذاك قالت سمارة :

ـــ أى معاملة بين أفراد الأسرة الواحدة ؟ !
فحدجها بنظرة قوية وقال :
ـــ العمل مقدس مثل الصلاة !

## - ٣٣ -

تمت المحاسبة فى جو شديد التوتر ، عمل الفرمانى المستحيل ليتملص من قبضته ولكنه لم يفلح . قال له عمرو بحزم :
ـــ عندك محكمة الضرائب اذا شئت ..

ومنى الملهى بخسارة فادحة على حد قول على جلال . وبكل جراة جاء عمرو ليسهر سهرة شتوية هادئة . كانت ليلة معتدلة صافية جاءت فى أعقاب نوة عاصفة أغرقت المدينـــة وأغلقت البوغاز . وكلما آنس من الوجوه تجهما مرح ودندن واندمج فى المشاهدة . ثم بلغ القمة عندما طلب سمارة للمجالسة . وقال لها سعداوى المحب الابدى :
ـــ اذهبى ، انه واجبك ..
وذهبت متحدية ، جلست وهى تقول :
ـــ تقتل القتيل وتمشى فى جنازته ..
فقال بسرور :
ـــ انى معجب بك يا رشيدية !
ـــ انك مرعب ..
ـــ على المتهربين ..
ـــ تأخذون أموال الناس ! .. بأى حق ؟!
فتجاهل نقاشها وقال بحرارة :
ـــ لا احب الطرق الملتوية ، فلنقصد الهدف رأسا ، انى أدعوك

للعشاء فى شقتى المتواضعة بكامب شيزار ..

ــ أنت فى كامب شيزار أيضا ؟ !

ــ مسكنك هناك ؟ ! . عظيم ، من رشيد الى كامب شيزار ، أصبحت الموافقة حتمية !

ــ ولكنى لا أقبل الدعوات الخاصة ، الم تسمع عنى ؟

ــ سمعت عن مروان أمين وفاولز ومهدى جلال ..!

ــ أنت مخبر ؟ !

ــ انك ترفضين الموظفين الصغار وبخاصة ان كانوا نزيهين ..

فقال برجاء :

ــ لك جانب دمث وآخر خشن ، وقد جئت لمجالسة الدمث !

## ــ ٣٤ ــ

وتفكر على جلال وقال :

ــ انه لا يساوى شيئا ، انى أعرف مدعى الشرف اكثر مما يعرفون أنفسهم !

وجاء عمرو فى نهاية الأسبوع . كانت الليلة صامتة ولكنها شديدة البرودة . ارتاحت لمجيئه ارتياحا أدفأ أعماقها . أدركت أنها تهبه شعورا جديدا . لم تشعر به نحو مروان أمين النبيل المتباعد المترفع ، ولا نحو مهدى جلال لطعونه فى السن ، انه شعور جديد ، وهو أول منافس حقيقى لعلى جلال . عجبت لذلك فماج قلبها خوفا مبطنا بسرور خفى . عمرو قريب جدا وأليف جدا ، ينبض فى جذورها الرشيدية . وهو يصر على المجىء ، متحديا الجفاء المحيط ، من أجلها هى ، وهو مثير للاعجاب بقوته وتحديه . وهمس على جلال فى أذنها :

ـــ لا تلبى اذا طلب .

هل استشعر باطنة خوفا ؟ ! . ماذا عليها ان تفعل هى التى لم تخالف له امرا ؟ ! انها تضمر العصيان لأول مرة فى حياتها . وتذكرت كلمات مهدى باشا عن الاستقلال والكرامة . ماذا يزيد على منها اكثر مما اخذ ؟ . ها هى لأول رة ايضا تحاسبه . وحلت اللحظة الحرجة فجاء الجرسون يبلغها الدعوة ، لاحظت أن سعداوى يراقبها بقلق ، ذلك المحب القديم الصامت . دنا منها وهمس :

ـــ لا تذهبى !

فتساءلت :

ـــ لماذا ؟ .. الم تقل انه واجبى ؟

ـــ ولكن سيقع شر لا مفر منه ..

وذهبت بلا تردد . وجلست وهى تشعر بأنها تستقبل حياة جديدة . واذا بعلى جلال يقتحم المقصورة ويأمرها قائلا بفظاظة :

ـــ اذهبى !

حدجه عمر بنظرة قاسية وقال :

ـــ عليك أنت أن تذهب ..

فلم يباله وكرر أمره لسمارة :

ـــ اذهبى .

ولما لم تتحرك هوى بكفه على وجهها .

وثب عمرو فوجه اليه لكمة صادقة ، سرعان ما اشتبكا فى صراع مخيف كنمرين . وجاء مأمون الفرماوى وسعداوى والجرسونات . لم يفلح أحد فى الفصل بين المتعاركين . حتى تهاوى على جلال على الارض فعند ذاك رفع سعداوى كرسيا ليضرب به الشاب غير ان سمارة صاحت به :

ـــ ارم الكرسى من يدك يا سعداوى ..

وقف سعداوى ينظر الى عمرو ولا يقول شيئا وقد اصفر وجهه من شدة الغضب .

وقبض عمرو على يدها وهو يلهث ثم قال :

ـ لا يجوز أن تبقى هنا بعد الآن ..

- ٣٥ -

كانت غاضبة وحزينة فمضت معه . كأنها فى حلم .. تترك الفلير دامور وتهجر الرقص ؟ ! . هل يمكن أن تتغير الحياة فى غمضة عين ؟ . لم تحب حياتها الماضية ولكنها لم تبغضها ايضا لما أملتها فى تحيقق الحياة المستقرة التى تهيم بها . خرجت منها كما دخلتها فقــيرة لا تملك مليما . استقرت فى شقة صــغيرة متواضعة على مبعدة دقائق من شقتها الأولى . ولأول مرة تحكى قصتها بلا اكاذيب . وقال عمرو أول ما قال :

ـ لم تخسرى بمجيئك شيئا فقد كنت طيلة الوقت منهوبة ..

فقالت بصدق :

ـ ما أهتممت أبدا بالنقود . وما تطلعت الا للحب والاحترام ..

فقال ضاحكا :

ـ عندى منهما الكثير ولكن لا مال لى الا مرتبى المحدود ..

ـ لا اهمية لذلك عندى ..

فقال بحرارة :

ـ وبالصدق والأمانة أصارحك بأنى أحبك ..

ومضت الحياة عذبة غير أن على جلال قابل رئيس المصلحة وادعى أن عمرو طالب برشوة ، ولما رفض سعية افتعل مشاجرة ثم خطف راقصة الملهى ..

## - ٣٦ -

لم يسفر التحقيق عن شيء ولكنه أساء الى سمعة عمرو عبد القوى حتى اضطر الى ان يعلن رئيسه بأنه أخذ الراقصة حقا ولكن ليتزوج منها . وبالفعل عرض الاقتراح على سمارة وتم عقد القران . وبرغم ذلك صدر قرار بنقله الى الصعيد فثار عناده وقدم استقالته . أنها لخطوة جنونية ولكنه وجد عملا فى مكتب محاسبة حتى يمكنه الاستقلال بالعمل . سمارة كانت السعيدة الفائزة . لقد تحقق حلمها الابدى فى الزواج . وسعدت سعادة لا مثيل لها ، غير أنها سألته :

ـ هل تورطت يا عمرو فى الزواج منى ؟

فقال بقوة :

ـ أبدا .. الظروف سبقت ، هذا كل ما هنالك ، ولكن نيتى كانت صادقة ..

وازدهرت سمارة كالوردة المتفتحة ..

## - ٣٧ -

وتتابعت الأيام متألقة بالبهجة ، ومع أنه كان شتاء قاسيا كثير العواصف والمطر الا انها سعدت به وهى تشاهده لأول مرة من وراء الزجاج دون اضطرار الى الخروج اليومى والسهر . أصبحت بمأمن من عواصف الحياة وأمطارها . واستوت العاصفة

والأمطار فى وعيها رمزا للجود والبهاء . وفى ذلك الشتاء انتقل ممدى باشا جلال الى جوار ربه ، وقد أوصى لها بمبلغ عشرة آلاف من الجنيهات . هبطت الثروة من السماء وقد بكت الراحل طويلا ولكنها تمالكت نفسها لدى عودة عمرو ، وقالت له :

ــ صرنا أغنياء يا عمرو !

ولكنه عبس وقال :

ــ كيف فعل ذلك لامرأة متزوجة ؟ ! .

ــ من أين له ان يعلم بزواجى ؟

فقال بازدراء :

ــ ولو !

قالت بصدق وحرارة :

ــ كان أبى يا عمرو ، صدقنى ..

ــ كانت سمعته الخاصة سيئة !

ــ رعانى وهو فى السبعين ..

ــ ولو ... كان رجلا سيىء السمعة !

فاغرورقت عيناها وقالت :

ــ لو عرفته بنفسك لكان لك فيه راى آخر ..

فقال بحدة :

ــ انى اكره هذه الدموع ..

ــ أتريد أن أرفض النعمة ؟ ! .. انك فقير ، وفى بطنى جنين !

فغادر الحجرة وهو يدمدم . لكنه لم يدل برأى حاسم . لو اراد الرفض لجهر بذلك وهو لا ينقصه الصراحة . هكذا احتفظت بالمال الموهوب ..

## — ٣٨ —

سعدت سمارا بزوج يحبها حقا . زوج مفعم بالرجولة والفحولة والشهامة والعطف . ولم يكدر صفوها شيء من العادات البالية اذ كان بلا أهل مثلها . ولا شك أنه كان نشيطا فى عمله ، فما لبث أن فاق دخله مرتبه السابق . غير أن الأيام كشفت لها عن عيب أو عيبين جوهريين فيه . انه شديد الغضب ، وغير متسامح ، واذا غضب أفصح عن غضبته بالكلمة والفعل . فى مرة ، عند خروجهما من سينما رويال لمح شابا يغازل فتاة بقحة ، فما كان منه الا ان لطمه ، ثم فعل به ما سبق أن فعل بعلى جلال . ارتعبت وقتها وقالت له :

ــ بالغت فى العنف وكان القليل يكفى . .

فقال لها بانفعال :

ــ انها اللغة الوحيدة المجدية !

ــ لقد كنت على حق ورغم ذلك فقدت عطف الناس .

ــ لا يهمنى الناس !

ولكن ثمة عيب آخر بدا خطيرا فتاكا ، ذلك ولعه بالقمار . ما أن انقضى شهر العسل حتى كشف سره . كان يقامر فى شقة بالابراهيمية ، يسهر حتى منتصف الليل ، ويمتد السهر أحيانا للفجر . قالت له برجاء :

ــ صحتك ومالك !

فقال بأسى :

ــ لكل انسان عيبه . .

ـــ ولكن هذا العيب قد يخرب بيتنا ..

فقبلها وهو يقول :

ـــ لا تبالغى ، ثم انى محظوظ ..

ولكنه كان يخسر أيضا ، ومرة رجع مدينا بمبلغ جسيم أخل بميزانه ، فقالت له :

ـــ عليك أن تسدد الدين مهما كلفنا ذلك ..

واعطته من هبة مهدى باشا جلال فتقبلها بوجه واجم ونفس منكسرة حتى أثار عطفها .

وواصل اللعب ، وانقلب عليه الحظ حتى أتى على التركة كلها ، واسود وجه الحياة .

وولد أحمد فى ذلك الجو المتجهم ..

## ـ ٣٩ ـ

وقال لها ليلة عقب عودته من الابراهيمية :

ـــ مصادفة سيئة جدا ..

ـــ ليحفظنا الله ..

ـــ انضم الى مائدتنا على جلال !

فانقبض قلبها وتساءلت بقلق :

ـــ مصادفة ؟ !

ـــ طبعا ...

ـــ وهل ذهب الى هناك كل ليلة ؟

ـــ يبدو ذلك .

ـــ قلبى غير مطمئن ..

ـ المائدة تجمع بين خير الناس وأسافلهم ..

ـ انه سبب كاف لكى تتقلع عن هذا الداء الوبيل ..

فلاذت بالصمت . وتوكد لديها أن ما تتمناه حلم بعيد المنال ، فتنهدت قائلة :

ـ طالما حسبت نفسى أسعد امرأة فى الوجود .

فقهقه قائلا :

ـ وانك لكذلك يا جاحدة !

فقالت بنبرة باكية :

ـ انى تعيسة يا عمرو !

## ـ ٤٠ ـ

ومضت الأيام فى قلق وتوتر حتى صدقت مخاوف قلبها . بل جاءت الأحداث أسرع مما قدرت . ففى ليلة احتدم التناحر ما بين عمرو وعلى مانتهى الى غايته المحتومة وهى الشجار . وتراجع على جلال أمام ضربات لا قبل له بها فاستل مطواة طعن بها قلب خصمه فتهاوى فاقد الحياة !

هكذا احتفى الرجلان اللذان أحبتهما فى ليلة واحدة ، ذهب أحدهما الى القبر والآخر الى الليمان .

وجنت المرأة من الحزن . وجدت نفسها وابنها فى دنيا خالية . فقدت الحب والأمان . ناءت تحت عبء مسئوليتها الكاملة عن وليدها ونفسها . وخاصة وليدها ، ابن الرجل الذى أحبته ؛ الذى قرصته حشرة فقوضت بنيانه .

وانشقت الظلمات ــ ذات يوم عن وجه سعداوى بياع الفستق . اثار فى قلبها مكامن ذكريات جميلة واخرى محزنة ، ولكنها وجدت نحوه امتنانا لا شك فيه . وتلقت مواساته الصادقة بمودة واسى . ثم وضح أنه جاء من أجل هدف أدل على صدق عواطفه من المواساة وحدها . قال :

ــ مأمون الغرماوى على أتم استعداد لاستقبالك ..

ولكنها قالت بوضوح :

ــ لن أرجع الى تلك الحياة يا سعداوى .

فقال الرجل بحماس :

ــ وعد عليه حق ، الا يطالبك بما لا ترتضبنه !

فقالت باصرار :

ــ أصبحت اليوم اما ، وعلى أن أصون سمعة ابنى من الآن فصاعدا ، ومن حسن الحظ أننى أخفيت هدية ثمينة أهدانيها المرحوم مهدى باشا جلال ، وبها يمكن أن ابدأ بداية جديدة تمكننى من تربية ابنى كما أريد ..

ارتسم الترحيب فى وجه سعداوى وتمتم :

ــ ليكن . انه أفضل على اى حال ، وستجديننى فى خدمتك على الدوام .

جلس الرجل يرنو اليها ولا يزيد ، ولكن نظرة عينيه باحت بأكثر مما قال . كأنما تبتهل اليها ان تؤمن بأنها ستجد دائما من يتذكرها عند الشدة ، ومن يحبها حبا صادقا ..

# صاحب الصورة

اختفى شيخون محرم .

كان اختفاؤه حدثا هز المجتمع هزة عنيفة . كان رجلا مرموقا ، ذا نشاط مالى عريض ، وله فى السياسة وجود راسخ وأثر ، وفى دنيا الاحسان والخير أياد بيضاء ، الى سمعة طيبة ذات رائحة زكية .

غادر سراياه فى أصيل يوم قاصدا النادى ، ثم اكتشفت أسرته ــ المكونة من حرمه سريرة هانم ووحيده عيسى ــ أنه لم يعد . انزعجت الأسرة أيما انزعاج ، اذ لم يسبق أن شذ الرجل عن جدول مواعيده بلا اخطار . اتصلت الهانم برفقائه فى النادى فأجمعوا على أنه لبث بينهم ساعة واحدة ، ثم انصرف ليزور ــ على حد قوله ــ شقيقه محمود محرم فى سراياه بالزمالك ، وفى الحال اتصلت الهانم بمحمود محرم ، ولكن زوجته أجابتها بأن زوجها فى رحلة فى البحر الأحمر يرجع منها مساء اليوم وأن شيخون لم يزرهم منذ أكثر من أسبوع . وشهد سائق السيارة بأن الرجل غادر النادى ، أمره بالانتظار فى موقفه ، ثم مضى مشيا على الأقدام ، وأنه لزم موقفه حتى شقشق الصبح ..

وبدأ بحث شاق ملهوف على شيخون فى جميع مظانه . عند جميع الأصدقاء والزملاء ، فى الاسكندرية وفى العزبة ، فارتطم دائما بخيبة مرة ، فاشتعلت الأفئدة بالقلق والوجل ، وتجمعت سحب الظنون .

ووفد على سراياه الأهل وفى مقدمتهم شقيقه محمود محرم ، والأصدقاء والمعارف ، وتداولوا الأفكار والحلول ، وقالت سريرة هانم :

ـــ لو كان بخير لاتصل بنا !

واستقر الرأى على ابلاغ الجهات الرسمية . عند ذاك اتخذ البحث مجرى جديدا فشمل الأقسام والمستشفيات ، وازداد اللغز انبهاما ، والتشاؤم استفحالا ، وكأن الرجل رائحة وتلاشت فى الكون ..

وتلاحقت الأيام .. فتجسد الاختفاء صخرة سوداء لا تتزحزح ، يتحطم عليها الأمل . لقد اختفى شيخون محرم كأنه لم يكن .

وجاء دور التحقيق والتحريات ، ولكنه لم يسفر عن جديد أيضا ، فلا عداوة ولا سرقة ولا شبهة سبب مما قد يفضى الى جريمة .

وخلت سريرة هانم الى ابنها عيسى وهى فى غاية من اليأس ، وقالت له :

ـــ لم أدل بكل ما عندى فى التحقيق !

فرنا اليها الشاب ذاهلا وتساءل :

ـــ أعندك مزيد ؟

ـــ قلت انى لا أعرف لأبيك عدوا ..

ـــ هذا حقيقى ..

ـــ كلا ..

ثم مواصلة حديثها بعناد :

ـــ عمك ..

ـــ لا .. لا .. المسألة انك دائما تسيئين به الظن .. ليس لديك دليل واحد .

ـــ لدى قلبى !

ـــ لا يكفى . انك تكرهينه ..

ـــ لا لشئ الا لأنه كره أباك .

ـــ لا أرافقك على ذلك ، كانت العلاقة بينهما دائما مثالية .

ـــ فى الظاهر فقط ، وعمك مجرم ، ألم تسمع بما يقال عن ضحاياه فى الريف ؟

ـــ ذاك أمر آخر ..

ـــ انه مطبوع على الاجرام ..

ـــ كان يحب ابى وابى يحبه ..

ـــ قلبى لا يكذبنى . كنت اقرأ فى عينيه أحيانا ما يخيفنى ، انه ينفس على أبيك نجاحه وثراءه ..

ـــ عمى ليس بالفقير ..

ـــ هنالك سر لا تعرفه ، لقد واجهت عمك خسارة أوشك أن يبيع بسببها أرضه لولا أن أسعفه ابوك . أسعفه بلا عقد ، انت تعرف شهامة أبيك ، ولكن الدين ثقيل ولا حجة عليه ..

فتأفف الشاب وقال :

ـــ المسألة انك سيئة الظن بعمى ..

ـــ المسألة انك مصر على حسن الظن به ..

ـــ هذا هو الأصل ..

ـــ آخر ما سمعنا عن ابيك انه ذهب للقاء عمك !

ـــ ثم ثبت أن عمى كان فى رحلة مع صحبة ..

ـــ طالما قتل عمك الأبرياء وهو بعيد عن موقع الجريمة ..

ـــ أساطير لا دليل عليها .. لماذا تكرهينه ؟

ـــ قلبى ، الا تؤمن بحديث القلب ؟

ـــ كلا ، لا اومن الا بالمحسوس ..

ـــ هذا يعنى انك لا تؤمن بشىء ! .

ـــ هل فاتحت أبى بظنونك ؟

ـــ لم يصدق لصفاء سريرته .

ـــ ارايت ؟

ـــ ولكنه اعترف لى بخلاف نشب بينهما قديما !

ـــ هذا حال الناس جميعا .

وكانت الأم أصلب مما تصور ابنها ، فأفضت بظنونها الى المحقق . وكان خطب وفضيحة . وجرى تحقيق دقيق مع محمود محرم ، ولكنه لم يسفر عن شيء . تزعزع الأساس الذى يستند اليه فرعا الأسرة الواحدة . وطالبت سريرة بالقرض الذى اقترضه من زوجها ، فكان جواب العم أنه سدده ، وأنه لم يكن بينه وبين شقيقه تعامل رسمى ! وزاد ذلك من سوء ظن المرأة . ولكن العجيب أن محمود محرم بقي على ولائه لذكرى شقيقه ، بل انه استدعى عيسى الى مقابلة خاصة فى النادى وقال له :

ـــ أسباب الغضب متوافرة لدى ، ولكنى مصر على الابقاء على أواصر القربى ، فتذكر دائما أننى عمك ، كما أتذكر دائما أنك ابن أخى ..

وتواصلت الأيام ، ولحقت بها الأشهر ، ثم الأعوام ، انتهى شيخون محرم ! غير أنه عاش ذكرى حية فى ضمير سريرة هانم ، ذكرى حية لا تموت . لم تتعز أبدا ، لم يفتر حبها له . لم تيأس من أن يستقيم عود العدالة المعوج ذات يوم . وكثيرا ما كانت تقول لابنها :

ـــ أبوك يطالبنا بالعدل ونحن عنه لاهون ..

وكان عيسى قد حل محل أبيه فى الادارة ، فشغله العمل عن كل شيء ، وشغلته الحياة ايضا بمسراتها اليومية ، فكان يتجنب مناقشاتها ما وسعه ذلك . ويثيرها بروده فتهتف :

ـــ الا ترى أنى لم اذرف حتى الآن دمعة واحدة ؟ !

فيقول برقة ما أمكنه ذلك :

ـــ ما هكذا يلقى العقلاء النوائب ..

ـــ أترانى مجنونة ؟

ـــ أمى !

فتقول بأسى :
ــ لم نرث الا أملاكه !
وحلت الكارثة الكبرى عندما قال لها يوما :
ــ أمى افنحى لى صدرك ..
فرمقته متوجسة ، فقال :
ــ قررت أن أتزوج من سميحة !
بهتت المرأة . اصفر وجهها . ارتعشت أطرافها . قال بضيق شديد :
ــ الأمر بسيط جدا لولا ظنون لا أساس لها ..
فقالت بفزع :
ــ طالما توقعت ذلك ، طالما توقعته كأنه الموت المحتوم ..
فابتسم فى امتعاض شديد دون أن ينبس ، فتمتمت بمرارة :
ــ ابنة قاتل أبيك ؟ !
فقال برقة :
ــ ابنة عمى ..
تقوست المرأة فى جلستها من شدة الألم ، ثم قالت بحدة صارمة :
ــ انه الفراق الأبدى بينى وبينك !
وهاجرت من المدينة الى القرية ، عاشت فى السراى الصغيرة فى وحدة عميقة . وتركزت طيلة الوقت فى هواجسها . وكان صوتها يسمع وهى تحاور نفسها بلا انقطاع . غرقت فى الضياع الذى ذاب فيه زوجها المحبوب .
وتزوج عيسى من سميحة . أصر عمه على أن يذهبوا جميعا الى القرية ليقدموا فروض الود ، ويستوهبوا الرضا ، ولكنها أبت أن تلقى أحدا منهم ، ومضت تردد :
ــ ها هو ذا القاتل يحقق هدفه ويصب ثروة ضحيته فى ذريته !
واستفحل العذاب بالأم حتى مزق وحدتها . وفى محنتها

الطاغية أخذت ترى المأساة خلال ابعاد جديدة وافدة من المجهول . تألق فى باطنها الهام متوثب بأن الاشياء تخلق من جديد . وطرق أذنيها همس مضىء دعاها الى تلبية نداء خفى . تلاشى ايمانها بالجريمة فتبخر اليأس وزال . واذا بها تخرج من عذابها الى الناس . تمضى فى وقار ظاهرى وبيدها صورة شيخون . وكلما صادفها شخص عرضتها عليه متسائلة وهى تنتظر أن يجيئها الجواب الشافى فى يوم من الأيام . لم تسأم من تكرار السؤال . ولم يثبط همتها النفى ، وترامت أخبارها الى عيسى ففكر فى اتخاذ اجراء حاسم ، ولكنه اكتفى بعد تدبر ومراجعة بتكليف أحد اتباعه فى القرية بحراستها من بعيد . وتتابعت خطوات الزمان وهى مصرة على بحثها العقيم ، وتقدم بها العمر فلم تهمد ولم تخمد .

★★★

وبعد دهر فريد .

كان عيسى يجلس فى السلاملك ذات أصيل عندما رأى عجوزا يتسلل الى لسراى متوكئا على عصاه ، رنا اليه مقطبا بادىء الأمر ، ثم اجتاحه الارتياع والذهول فوثب نحوه وهو يهتف :

— أبى !

حمل ما بقى منه بين يديه ومضى به الى فراش ، وسرعان ما أستدعى الطبيب . لم يكن بة مرض ولكن نهكته الشـــيخوخة والضعف . وما ان استلقى موق الفراش حتى تخلت عنه قوى المقاومة فتبدل شخصا آخر ، ولما استيقظ من نوم عميق ظن عيسى انه استرد عافيته فسأله بشغف :

— أين كنت يا أبى ؟ .. ماذا غيبك ذلك الدهر الطويل ؟

ولكنه لم يجب . بل كأنه لم يسمع ، وهوم فى آفاق بعيدة . ورجع عيسى يسأل من جديد ، ولكن الأب لم يباله ، وتمتم كأنما يخاطب نفسه :

— الجبال الخضراء ..

فسأله باهتمام :
ـ اكنت فى الخارج ؟
فمضى العجوز فى حديثه الباطنى :
ـ والبحيرات الزرقاء ..
ـ اين يا ابى ؟
فهمس متنهدا :
ـ وعش الحب والغناء ؟
فهتف عيسى فى اسى :
ـ لقد فقدت أمى عقلها .
فعاود الهمس متمتما :
ـ عش الحب والغناء !

★★★

ويئس عيسى من الاتصال به ، ولكنه قرر أن يجمع بين أبيه وامه ، وأمل من وراء ذلك فى الشفاء .

وجىء بالأم رغم ارادتها حتى بكت ، ولما أجلسوها أمام الراقد فوق الفراش كفت عن البكاء . خفق قلب عيسى بالترقب .. ولكن لم يحدث شىء ذو بال . لم يتبادل الزوجان نظرة عتاب أو فرح أو حزن . ترامقا كأنهما ينظران فى فراغ . غاص كل منهما فى دنيا لا علاقة لها بدنيا الآخر ، كأنه لم يعرفها وكأنها لم تعرفه ، تفشى فى الجو توجس وأسى عميق . شعر عيسى بأنه مجهول الأبوين .

وقامت الأم كأنما ضاقت بالجلوس . اقتربت من الفراش حتى لامسته ، ثم بسطت الصورة أمام عينى العجوز ، وطرحت سؤالها الخالد :

ـ هل تستطيع ان تدلنى على صاحب هذه الصورة ؟ !

# الرجُل والآخر

من دكان الفاكهة خرج الرجل حاملا قرطاسا مثل قمع السكر . ابتلعه تيار بطيء متلاطم فى سوق الخضار . ولقامته الطويلة برز وجهه الباسم المتورد فلمحه الآخر من موقفه عند كشك السجائر وقال لنفسه « أخيرا .. لن يفلت منى » . وجعل يتابعه بانتباه حتى تملص من الزحام فمرق الى الميدان . من المهم جدا الا يثير ريبته حتى تحين الفرصة المواتية . الرجل يجيل بصره فى الميدان حتى يستقر على محل الحلوى فى الجهة المقابلة ويمضى اليه فوق نصف دائرة الميدان الأيمن فيمضى الآخر نحو الهدف فوق نصف دائرة الميدان الايسر . دخل الرجل المحل فوقف الآخر تحت عمود النور العالى . جو الخريف عذب . ضوء الأصيل هادىء يهبط من السماء بعد أن توارى قرص الشمس وراء العمارة العالية . الرجل ينتظر ان يفرغ البائع له . عيناه تثبان بنهم بين صفوف الحلوى الشرقية والغربية . والآخر يراقبه بصبر . ثمة امرأة تنتظر أيضا . مليحة ومتبرجة ومرحبة بالمجهول . الرجل يرمقها بنظرة مستطلعة . تعرض عنه ولكن شبه باسمة . يتزحزح خطوة فيقتحم مجالها الحيوى . ها هو يهمس بجراة . ها هما يتهامسان ، قال الآخر ان ذلك ينذر بتعقيد الأمور . اضافة جديدة لمتاعبه وتحد غير متوقع لخطته . ويجىء دورها لابتياع ما تريد ثم يجىء دوره . يخرجان ووجهه يتهلل ويطفح بالرغبة والظفر ، يتبادلان كلمات ضاحكة مثل فقاعات الشهد . ثم تمضى هى الى شارع الملاهى ، يتابعها بعينيه لحظة ثم يسير على مهل حاملا القرطاس واللفة . لا شك أنهما تواعدا على لقاء ، والآخر يأمل

الا يؤجل ذلك تنفيذ خطته . يرجو الا يهدر تعبه الطويل وتدبيره الحاذق . قد يكون اللقاء قريبا فتتعقد الأمور وقد يكون لغد لن يجيء أبدا . الرجل يسير . لا يرهقه المشى . ولا يدرى أحد متى يفتر نهمة وأشواقه . تجذبه معارض المحال التجارية كأنه ربة بيت . الساعات والنظارات والأدوات المنزليـــة والملابس وآلات الغيار والأجهزة الالكترونية ، حتى اللوازم الطبية وواجهات الصيدليات تجذبه . يتشمم رائحة الكباب . والطعمية ، يقرأ عناوين الكتب والمكتبات . وكلما جمعه موقف مع امرأة أو فتاة دخل مجالها الحيوى ، ولكن لم يحصل تلاحم جديد . ولون المغيب يتشرب بالسمرة وتنفث النسائم برودة منعشة . دخل محل اقمشة ، يخرج بكيس نايلون مشحون ودس لفة الحلوى فى الكيس مع القماش المشترى ، ابتاع ايضا كتابا . . ترى أى كتاب ؟. متى يعتقد أنه سيقرؤه ؟ ود لو يعرف اهتماماته الدفينة . انه لا يكاد يعرف عنه شيئا ذا بال سوى الاسم والهوية والتاريخ البغيض الغامض . وعطف الرجل الى دكان مسح أحذية . اتخذ مجلسه فوق الكرسى الدوار واضعا حمله فوق كرسى خيزران قديم . ينظر الى المرآة أمامه مغازلا وجهه باعجاب وارتياح . يراجه الصورة تارة ويثنى رقبته يمنى ويسرى تارة أخرى . والآخر يراقبه من زاوية فوق الطوار . التقت عيناهما لحظة فوق سطح المرآة . تضايق وتحرك خطوة نحو الأمام . غاب الرجل عن منظوره . لا يرى الآن الا الاسكافى العجوز وصاحبة المحل البدينة . خشى الآخر أن تلتصق صورته بعين الرجل خاصة أن وجهه سهل الانطباع . وجهه غامق وعيناه حادتان وشعره أسود كثيف . ولكن الرجل مستغرق فى ذاته ولم يره من قبل . اضاءت مصابيح الشارع وتخايل ظل المساء . ها هو يغادر الدكان وقد ازداد — بتلميع الحذاء — رضاء عن نفسه ، وارتطم به مار مسرع فارتد

بخطوة ملهوجة وهو يشدد قبضته على حمله ويصيح غاضبا :
ــ هوه !
توقف المسرع مبهوتا وصمت فصاح به مرة أخرى :
ــ على الاقل اعتذر !
فسأله بضيق :
ــ اليست لديك لهجة أفضل ؟
ــ كلا !
ــ اذن فليس لدى اعتذار !
ــ حيوان ! ..
فبصق المسرع على الأرض محتجا . عند ذاك وضع الرجل حمولته فوق الرصيف ثم انقض عليه فتبادلا ضربات شديدة . ادرك المسرع أنه ليس ندا لخصمه فتراجع قائلا :
ــ غاوى خناق .. اشهدوا على المعتدى ..
وتجمع خلق ، وجاء الشرطى . والآخر يراقب بانفعال وضيق ، وعندما قال الشرطى القسم موجود والصلح خير .. بدا أن المتخاصمين تجنبا الذهاب الى القسم ، فتناول الرجل حمولته وذهب . تنفس الآخر بارتياح وتنعم . نسى الرجل انفعالاته تماما أمام محل للعب الأطفال . له أبناء فى سن الطفولة ؟ ! ودخل . ما أعظم الحاجة وصبره . وخرج بلا اضافة . لعله لم يشتر شيئا ، أو لعله اشترى لعبة كبيرة سيرسلها المحل الى مسكنه ، فى تلك اللحظة قابله كهل يتأبط حقيبة تصافحا بحرارة . تبادلا كلمات سريعة ، ثم مضى الكهل وهو يقول :
ــ لا تنس المحكمة يوم عشرة القادم .
انت ايضا من ارباب المحاكم ؟ ! . متى تسمع الحكم ؟ . ترى أين تذهب بعد ذلكَ ؟ عصير فواكه .. ليكن ، اتعبتنى الله يتعبك . للمرة الثانية تتلاقى عيناهما فوق سطح المرآة . انقبض

صدره . هل يتذكره ؟ . كلا .. انه مأخوذ بمذاق الشراب وعيناه تدمعان . ينظر ولا يرى ويتملى صورته باعجاب وبراءة .

ها هو يغادر الدكان ، يعبر الطريق ، يغيب فى محل ترزى يعد كسوة الشتاء ، غاب ربع ساعة ثم عاد الى الظهور ، عرج الى مقهى الحرية ثم دخل . المقهى على ناصية ، وله أكثر من مدخل فلم ير الآخر بدا من الدخول . جعل يراقبه من مجلس غير بعيد والرجل يحتسى فنجانا من القهوة ويكتب خطابا . أعطى الخطاب الجرسون وقام الى التليفون . ها هو يقف قريبا جدا منه :

ــ آلو .. حسن ؟ .. الدكتور موجود ؟

ــ ....

ــ احجز لى فى أقرب موعد .

ــ ....

ــ عظيم .. الساعة السادسة مساء .. شكرا ..

وما كاد يرجع الى مجلسه حتى لحق به صديق ، جالسه وهو يتساءل :

ــ حضرت المأتم ؟

ــ نعم .. علمت مصادفة ..

ــ كلنا لها . هل أطلب النرد ؟

ــ لا وقت !

ــ عشرة واحدة بجنيه ، لى أو لك ..

نظر فى الساعة ، قبل التحدى ، لعبا من فورهما . يعلق بسخرية على كل رمية زهر ، ماهر فى الحرب النفسية ، واثق من انتصاره ، فى أقل من عشر دقائق قام وهو يدس الجنيه فى جيبه ، نمضى ضاحكا والآخر يقول له ..

ــ يا لص ، ربنا يرزقك بنشال !

قال الآخر لنفسه انها دعوة مستجابة غالبا ، يمضى الآن نحو

عمارته وسط المدينة . هذه هذه الفرصة . ليست مضمونة تماما ، اذا فشلت فعليه أن يرسم خطة أخرى . كلما فشلت خطة تعرضت التالية لمصاعب جديدة . ها هو يغيب فى مدخل العمارة . لحق به ثم دخل المصعد وراءه . انهما منفردان . الرجل يسأل بكرم دون أن يلتفت اليه :

ـــ الدور ؟

ـــ الأخير .

ـــ وانا كذلك .

ولكن امرأة ادركت المصعد قبل ان يتحرك . جن جنون الآخر . غير أن المرأة غادرت المصعد فى الدور الثانى. فاستعاد الآخر حيويته ونشاطه . هذه هى الفرصة . الاحتمالات كثيرة ، ولكن العواقب لا تهمه البتة . ليس فى خطته للسلامة الا واحد فى المائة . وبحذر شديد قبض على المطواة المستكنة فى جيبه ..

غادر المصعد . لم يصادف أحدا . الظروف تخدمه فوق ما قدر . ترك باب المصعد مفتوحا عن زيق . ثم هبط مسرعا . مضى الى حنة ايديال . شرب كثيرا ولم يتناول من الطعام الا الخس . ونعس وحلم حلما طويلا فى وقت قصير جدا . وغادر الحانة فعبر أمام العمارة فوق الطوار الآخر ، فرأى الشرطة وجمعا لا حصر له . واصل سيره الى فندقه بالعتبة دخل حجرته وهو يتنهد وقد نسى الحلم تماما .. أغلق الباب ، أضاء المصباح . التفت الى الوراء ، رأى الرجل جالسا فوق الفوتيل يرمقه بهدوء ثقيل كالموت ! .. ندت عنه آهة دامية ، تراجع حتى التصق ظهره بالحائط ، تعلق بالفرار ولكنه لم يتحرك ، وتسمر فى مكانه وبال على نفسه ، انه حقيقة ما يرى ، هو هو الرجل . القرطاس بيد والكيس بالأخرى .. الموت يطل من صورة حية .. يحدق فيه بعينين جامدتين عالمتين بكل شىء . شعر بغثيان ويأس وقال انه

الشعر أو الجنون . وأمره بالاستسلام دون أن يتفوه بكلمة ، يخاطبه بلغة جديدة وواضحة ونافذة وغير مسموعة . كيف ومتى جاء بهذه السرعة . وما معنى تجمهر الشرطة والناس أمام مدخل العمارة ؟ كم عاما مضت منذ ارتكب جريمته ؟ كم عاما لبث بالحانة ؟ وكلما مر وقت تأكد له وجود الرجل بثقله وسطوته غير المحدودة . وشيء حثه على أن يدس يده فى جيبه ، فعثر على المطواة التى تركها منغرزة فى قلب الرجل فأدرك أن هذا العالم يخضع لقوانين كثيرة لا لقانون واحد .

دقت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل . تلقى أوامر سرية فتهيأ فى خنوع لتنفيذها بدقة وطاعة عمياء . قام الرجل ببطء . سار بجلال نحو الباب . فتح هو الباب ومشى بين يديه صامتا مذعنا . أراد أن يصرخ ، ولكن الصوت تلاشى فى حنجرته . هبط السلم والرجل يتبعه التقى فى طريقه بفراشَ ، بمدير الفندق ، بموظف الاستقبال ، ولكن أحدا لم يعره التفاتا ، لم تسترع المعجزة انتباه أحد ، لم تثر دهشة ولا اهتماما ! .

أمام الفندق وقف حنطور بلا حصان . اتجه الرجل نحو المقعد وجلس عليه بهدوء . أما هو فاحتـــل مكان الحصـــان وتأبط العريشين ، لم ينظر أحد من المارة لما يحدث لم يتجمهر أحد . كل فرد منشغل بشيء محسوس أو بشيء لا يرى . أكثر من ذلك ترنم أحد السابلة شاديا :

أهل الهوى يا ليل

وفرقع السوط فراح يجر الحنطور . مضى فى رشاقة وهدوء واستسلام . رأى جانبى الطريق ، ولكنه لم ير ما يمتد أمامه . فغاص فى مجهول . فى خط مستقيم يتقدم أو ينعطف منلقيا توجيهاته من جذبات اللجام . الى أين يسوقه ؟ ماذا يضمره له ؟ ،

لا يدرى . ولا يبالى . يمضى بلا توقف . يبول ويتغوط بلا توقف . يصهل أحيانا ويرفع رأسه ، يلمس لجامه بلسانه الجاف ، تتتابع ايقاعات حافره فوق الأسفلت . ايقاع رتيب ينذر بمسيرة لا نهاية لهـــا .

# الحوادث المثيرة

( الحب فوق هضبة الهرم )

سأذكر ما حييت حوادث حى الخليفة المثيرة المفزعة ، الحق انها لم تكن كلها مفزعة ، فمنها حكايات تناقلها الناس عن هبات مجهولة من النقود تتسلل بليل الى بيوت الفقراء ، ولكن منها أيضا حالات التسمم بالجملة ، والحرائق ، وأكثر من ذلك تكرارها على وتيرة واحدة مما أشار الى فاعل واحد . وبثثنا العيون والحراس ، وقمنا بدوريات ليلية منتظمة . وقلت لرئيسى :

ـ المجرم مجنون ولا شك .

فقال لى بحدة :

ـ المهم أن نقبض عليه .

وتقضت أيام البحث وأنا فى غاية من التعاسة ، فلا نتيجة ولا اثر ولا توقف للحوادث ، حتى جاءنا خطاب غفل من الامضاء ، به سطر واحد :

« مجرم حوادث الخليفة هو مكرم عبد القيوم المقيم بالشقة ٣ بعمارة الفردوس » .

فقررنا بلا تردد مراقبته ، ولكن سرعان ما انكشف لنا أنه أخلى شقته منذ يومين ، وبادرت الى التحرى عنه فى العمارة ، فقابلت مالكها وهو ساكن بها أيضا ، وقلت له :

ـ أريد ما عندك من معلومات عن مكرم عبد القيوم الذى كان يسكن الشقة رقم ٣ :

فأجاب الرجل :

ـ لقد أخلاها منذ يومين .

ــ أعرف ذلك ولكن الى أين إنتقل ؟

ــ لا علم لى بذلك .

ــ لعلك تعرف محل نقل الأثاث الذى حمل أثاثه ؟

ــ انها شقة مفروشة وقد حمل حقائبه فى تاكسى ومضى ..

ــ أتعرف التاكسى أو سائقه ؟

ــ كلا .

ــ ما عمره ؟

ــ يصعب تحديده لقوته وصحته ، محتمل أن يكون فى الثلاثين أو فى الأربعين ..

ــ وما عمله ؟

ــ من الأعيان ، ولكنه كان موفور النشاط . يغادر العمارة فى الصباح الباكر ، ويرجع فى أول الليل ، ولكنى لم أتابع خط سيره الا كلما اتفق لى ذلك ..

ــ وأسرته ؟

ــ انه وحيد ، لم يزره أحد فيما أعلم ..

ــ معاملته ؟

ــ من وجهة نظرى فى غاية الكمال ، يؤدى الأجرة ــ مائتى جنيه ــ فى أول يوم للشهر ، ولم أجد منه متاعب على الاطلاق .

ــ وسلوكه الشخصى ؟

ــ لا غبار عليه فيما أعلم ، انه يحترم نفسه بكل معانى الكلمة ..

ــ ألم تعرفه عن قرب ؟

ــ كلا ، مرة عند تحرير العقد ، ومرة عند فسخه .

ــ عندك فكرة عن حالته المالية ؟

ــ كلا ، ولكنه وجيه المنظر ، ثم انه يدفع ايجارا لسكنه فقط مائتى جنيه ..

— الم يترك فى نفسك انطباعا بالشذوذ او الاجرام ؟
— انه ابعد ما يكون عن ذلك ..
— اعطنى فكرة عن منظره ؟
— طوله فارع ، ضخم ، قوى ، قمحى اللون ، ذو قسمات واضحة وقوية وبارزة ، انيق جدا ..
— له علامة مميزة ؟
— رغم سمرته فهو ذهبى الشعر والشارب .
— كيف أجر الشقة ؟
— بوساطة السمسار عزوز بأول شارعنا .

— ٢ —

لم أجد فى اقوال صاحب العمارة اية اشارة ضوئية ، فقررت أن التقى بالبواب . وكان كالمألوف نوبيا ولكنه كان طاعنا فى السن . قلت :
— أود أن اتحدث عن مكرم عبد القيوم ..
فقال بحرارة :
— ربنا يحفظه !
— انك تحبه فيما يبدو ؟
— كيف لا ، انه أطيب خلق الله .
وسألته أول ما سألته عن التاكسى الذى حمل حقائبه فأجاب :
— وجه السائق غير غريب عنى .
فدونت ذلك فى مذكرة خاصة ، ثم تساءلت :
— قلت انه أطيب خلق الله ؟
— اجل . ما كلفنى مرة بعمل الا نفحنى مكافأة ، غير المواسم

والأعياد ، دائما بسام ، يحييني في الذهاب وفي الاياب ، يسال عن حالي ، لا انسى مساعدته لي عندما كنت اقوم بتجهيز ابنتي ، انه حلم المحروم ، ودواء الجريح ..

ـ اعتقد انه اخبرك عن المكان الذى انتقل اليه ؟

ـ كلا .. ولكنه وكد لى انه سيمر بى كثيرا ..

ـ يعنى زيارة خاصة لك ؟

ـ ربما عند زيارته للحى لدى سبب من الأسباب ..

ـ ترى لماذا غير مسكنه ؟

ـ عندما سألته عن ذلك اجاب بأنه يحب التنقل ..

ـ ماذا تعرف عن صفاته ؟

ـ انه قوى ومهيب وجميل ، وهو ايضا رقيق العواطف لدرجة لا تتناسب مع قوة مظهره ، سمع مرة صراخا على ميت فى عمارتنا فاغرورقت عيناه بالدموع ، وكان يهبنى نقودا لأبتاع خبزا للقطط الضالة التى تحوم حول العمارة ، وبلغت به الرقة أنه كان يرمى بحبات من الفول السودانى عند بئر السلم غذاء لفأر كان يلمحه كثيرا ..

ـ جميل هذا كله ، ولكنك لا شك تعرف أشياء لا يعرفها احد عن سلوكه الشخصى ، فرجل وحيد لا يستأجر شقة مفروشة لوجه الله ..

ـ لم يدخل شقته احد قط ، هذا الجانب لا يمكن أن يفوتنى ..

ـ ولا اصحاب ولا اقارب ؟

ـ ولا اصحاب ولا اقارب ..

ـ وكان يغيب طيلة النهار فى الخارج ؟

ـ فى بعض الأحيان كان يتغدى فى شقته ، فيطلب غداءه من احد المطاعم ..

ـ الم يلفت نظرك شيء داخل شقته ؟

ـــ لم ادخلها قط .

ـــ ماذا تعرف عن مواعيد رجوعه ليلا ؟

ـــ كان يرجع عادة حوالى العاشرة ، وقد يتأخر به السهر الى منتصف الليل او حتى الى مطلع الفجر ..

ـــ كيف ترى لو ثبت لك يوما أن ذلك الرجل سمم ابرياء واشعل حرائق ؟

فأخذ الرجل وقال :

ـــ يكون نذيرا بقيام القيامة !

## ـ ٣ ـ

جمعنا سائقى التاكسى العاملين فى الحى ، عرضناهم على البواب ، فتعرف على أحدهم ويدعى يونس باعتباره صاحب التاكسى الذى حمل حقائب مكرم عبد القيوم ، ولم يجد السائق صعوبة فى تذكر الرجل ، وقال انه أوصله الى سميراميس . وانطلقت الى الفندق مصحوبا ببعض المعاونين . وهناك توكد لى أن الرجل بات فى الفندق ليلة واحدة ثم غادره فى الصباح الباكر ، رجعت أسأل عن هوية التاكسى الذى حمله ، لكن الشيال وكد لى أنه نقل الحقائب الى سيارة ملاكى مرسيدس بيضاء ، وان البك الضخم الأسمر ذا الشعر الذهبى ساقها بنفسه ، اما رقم السيارة فلم يلحظه احد .

اهو صاحب السيارة ؟ . لم لم يستعملها طوال اقامته فى العمارة ؟ .. هل امتلكها امس فقط ؟ . كلما أحدق الغموض بتصرفاته رسخت تهمة الاتهام فى نفسى .. فتوثبت غرائز البحث والتحدى فى اعماقى .

- ٤ -

قصدت بعد ذلك جيرانه المقيمين معه فى نفس الطابق . أولهم مهندس معمارى يدعى رءوف ، وما سمعنى أردد اسمه « مكرم عبد القيوم » حتى تقبض وجهه تقززا ، فقلت :

ـ يبدو انك لا تستلطفه ؟

ـ عليه اللعنة ! ، رجل غريب ، منطو على نفسه لحد الشذوذ ، ولا اشك فى أنه يمقت البشر ..

ـ للبواب رأى آخر فيه ؟

ـ لا تأخذ بأقوال البواب فان شلنا يدير رأسه ، لا أنسى مرة تلاقينا فيها فى مدخل العمارة ، بدأته بتحية فرد على بايماءة متكبرة هبط لها قلبى وغلى دمى ، انه وقح وقليل الأدب .

ـ جديد علىّ ما تقول ..

ـ اتحدى أن تعثر على ساكن واحد من سكان العمارة قد تبادل معه تحية ، انه متعجرف بغيض ، أما قسوته ..

ـ تقول قسوته ؟

ـ حكت لى زوجتى انها رأته يركل قطة بحذائه ، صادفته أمام باب شقته ـ فارتطمت بعنف فى الجدار ثم سقطت بين الحياة والموت !

ـ عجيب هذا ..

ـ فى مآتم العمارة يتجاهل الواجب الانسانى بلا مبالاة ، يمر أمام السرادق بلا اكتراث ولا حياء .

ـ وسلوكه الشخصى ؟ .. اعنى الشقة المفروشة ؟

ـــ لا .. لا .. لم يزره أحد فيما نعلم ، أمثاله يعانون نقصا خفيا يدارونه بالعجرفة وابهة المظهر ..

ـــ ولكنه ثرى فيما يبدو ؟

ـــ لم لا ؟ .. ما اكثر الأثرياء الأوغاد !

— ٥ —

ليست شبهة ولكنها تهمة حقيقية . والبواب صادق كما أن المهندس رءوف صادق . وتوكد ظنونى معرفتى الوثيقة لتاريخ الجريمة . من غير مكرم عبد القيوم يرمى بالنقود الى شرفات الفقراء ويدس السم فى الشيكولاطة للأبرياء ؟ .. اليس هو الذى يهب النقود لتغذية القطط الضالة ثم يركل واحدة منها حتى الموت ! .

وذهبت الى الجار الثانى ، مدرس لغـــة عربية ، يدعى عبد الرحمن . قال :

ـــ الرجل وحيد حقا ولكنه لبس متعجرفا ، والمسألة أن المهندس رءوف كرهه من رد تحيته بجفاء ، ولعله كان وقتها مكدر البال ..

ـــ فماذا تراه أنت ؟

ـــ اشهد له بالتقوى ، طالما تقابلنا فى الجامع عنـــد صلاة الجمعة ..

ـــ حقا ؟

ـــ وماشيته مرة عقب الصلاة فوجدته لطيفا ، دعانى الى الغداء فى مطعم الكورسال ، والح على فلم أجد بدا من الاستجابة ، وأعلن لى عن حبة التراث ، ورغب فى الاستعانة بى فى الاستزادة منـــه ..

ــ لعله لم يتعلم ؟

ــ كلا .. لم يكن متبحرا فى التراث .. ولكنه تخــرج فى الجامعة بكلية الحقوق ، ودرس فى السربون القانون والتاريخ ..

ــ لعلك الوحيد الذى خالطه ؟

ــ لعلى ، كنا نتقابل فى مشرب مينا هاوس ، وهناك وضح لى انه كثير الأصحاب ، مصريين واجانب ، وكان يدعى الى التليفون مرات عديدة حتى خيل الى انه من رجال الأعمال ..

ــ الم يخطر لك ان تسأله عن عمله ؟

ــ مرة سألته بلباقة عما يفعل بوقته ، فأجاب بأنه يحب اشياء لا حصر لها ولكنه غير ملتزم بعمل محدد ، بمعنى آخر هو من الاعيان ..

ــ ما مصدر ثروته ؟

ــ أرض . اسهم وسندات وهلم جرا .. ولكن ميزته الأولى فى نظرى انه واسع الاطلاع .. وقد طالبته مرة بأن يؤلف فى التاريخ ، فابتسم وسألنى : « أتصدق حقا انه يوجد شىء اسمه تاريخ ؟ » فاعتبرت تساؤله دعابة ، ولكنه استدرك قائلا : « يمكن الاستغناء عن التاريخ ببابى المديح والهجاء فى الشعر » ..

ــ طبعا لم تعرف لماذا تجنب الزواج ؟

ــ مرة شكوت اليه تمرد احد ابنائى ، فقال لى بأسى لم المسه فيه من قبل : « ان تمرد ابن خليق بأن يشكل مأساة بلا نهاية » .. ولرنين الأسى فى نبرته شىء قال لى انه ذلك الابن او انه الأب المبتلى ، وبشىء من الدهاء قلت له : « لقد أرحت نفسك من ذلك كله » فنظر الى وابتسم .. ولكنه لم يشف غليلى ..

ــ لم لم تستوضح تلك النقطة ؟

ــ كنت اعاشره واهابه ، واخشى ان اثقل عليه فأخسره ..

ــ طبعا اخبرك بنية ذهابه ؟

— أبدا .. فوجئت برحيله .. ولكننى حتما سألقاه يوم الخميس فى مينا هاوس ..

— لا أظن ، ومع ذلك سنرى ..

— لماذا قلت لا أظن ؟

— ألا تدرى ان ثمة شبهة فى أنه مرتكب حوادث حينا المثيرة ؟!

فاتسعت عينا الرجل فى ذهول وقال غير مصدق بل محتجا :

— أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ..

— ٦ —

تجهم الغموض فانقلب ظلاما ، ولكن شعورى — شعور الخبرة والسنين — صار يقينا او كاد . واوشكت على الاكتفاء بما استخلصت من معلومات لأسرع فى المطاردة ، ولكنى لم أجد بأسا من لقاء الجار الثالث — الملاصق بابه لباب مكرم عبد القيوم — وهو مفتش الضرائب بكر الهمذانى . ما ان سمع اسمه حتى هتفت :

— المجنون !

— مجنون ؟ !

— طبعا ، طالما بلغنى صوته وهو يدوى كالطبل فى صمت الليل ، ترى ايتحدث فى التليفون ؟ .. يحدث نفسه ؟ .. يتعارك مع خيال ؟ . ولا عزيف الريح وجعجعة الرعد ، وكان هنالك ما هو ادعى الى الدهشة ..

— حقا ؟

— كان يغنى ويلعب بأوتار العود !

— شىء جديد تماما .. ؟

— الحق أن صوته قوى وجميل ، ولكنه يغنى احيانا أغنيات

فى غاية الوقار مثل « يا ما انت واحشنى » أو يغنى أغنيات فى غاية الابتذال مثل : « أنا أبله كنت هبله » أو تصور ذلك الرجل الضخم الوقور وهو يغنى : « يوم ما عضتنى العضة » .. ولكنه رجل عربيد .

ـ عربيد ؟

ـ كنت مرة راجعا من سهرة مسرحية ، فرأيته خارجا من حانة فلاديمير وهو يترنح من شدة السكر .. ويقول بلسان ملعثم : « أنا جدع » ..

ـ ما أعجب هذا .. !

ـ بل يوجد ما هو أعجب ، رجعت مرة من سهرة فرأيته يسبقنى بخطوات ، دخل شقته وملت نحو شقتى ، ولسبب ما وجدنا شراعة بابه مفتوحة ، لاحت منى نظرة فرأيت فى نهاية الدهليز حجرة مضيئة ، ولعلها حجرة جلوس ، فتسمرت فى مكانى لغرابة ما رأيت ..

ـ رأيت خليطا من عجائب متنافرة ، على الجدار المواجه لى ثبتت أقنعة غريبة ، جميلة وبشعة ورءوس حيوانات محنطة ، وأسلحة من مختلف العصور ، وأدوات موسيقية ، وفى وسط الحجرة ما يشبه المعمل الكيماوى .. بل معمل كياوى بالفعل ..

ـ معمل كيماوى ؟ !

ـ أجل .. مائدة طويلة صفت فوقها أوعية زجاجية مليئة بسوائل مختلفة الألوان ، وأنابيب طويلة مركبة على قوائم معدنية ، وبوتقات ، ومولدات الطاقة ..

ـ مدهش .. مدهش ..

ـ ذهبت الى شقتى ذاهلا .. ايقظت زوجتى .. أخبرتها بما رأيت .. اتهمتنى بالسكر .. تحديتها أن تخرج معى لترى بنفسها .. كان منظرا مذهلا ..

ـ ألم تتبادل معه تحية أو كلاما ؟

ـ ابدا .. اصارحك بأننى كنت اخافه ، وقد تشهدت حين سمعت برحيله ..

## - ٧ -

فى نفس اليوم ذهبت الى السمسار ، لم أكن فى حاجة الى مزيد من المعلومات عن شخصية « المتهم » ولكنى أملت أن أجد عنده خيطا يوصلنى اليه . ووجدته متذكرا تماما للمعاملة التى جرت بينهما رغم انقضاء ما يقارب العام عليها . بل انه قال :

ـ ذلك يوم لا يمكن أن ينسى !

ـ لماذا ؟

ـ تمت المساومة فى دقيقة ، بل لم تكن ثمة مساومة على الاطلاق ، وكان أكرم مما يتصور العقل ، ولكنى اكتشفت فقد حافظة نقودى فى ذلك اليوم أيضا ، ولذلك فهو لا يمكن أن ينسى ..

ـ كيف حدث ذلك ؟

ـ سلمنى النقود فوضعتها على المكتب ثم انصرف ، شغلت دقائق بمكالمة تليفونية ، ثم تناولت النقود لأودعها الحافظة فلم أجد للحافظة أثرا ..

ـ ماذا دار بخلدك ؟

ـ كانت الحافظة معى ، لم يدخل دكانى الا مكرم عبد القيوم ومساح الأحذية ، وفى الحال شككت فى مساح الأحذية ، استدعيته ، استجوبته ، عنفت به حتى صرخ ، ولكنه اقسم بأغلظ الأيمان وبكى ..

ـ طبعا لم تشك فى الآخر ؟

ـ كلا ، الحق كانت تساورنى شكوك أحيانا ولكنها كانت

تمز على التصديق ، وقد حرقنى فقد أكثر من مائتى جنيه ، ولكن كيف أوجه تهمة الى رجل مثله بدا لى أنه من أصحاب النفوذ بلا أدنى شك ؟ .. وما جدوى الاتهام الا أن يعرضنى لبطشه ؟ !

ــ وسلمت أمرك لله ؟

ــ كما يحصل فى أغلب حوادث النشل ، وكنت أراه أحيانا وهو ماض فى الصباح فأتبعه عينى بحيرة وأتمتم « ربنا عزيز ذو انتقام » .

## — ٨ —

واجتمعت برئيسى فى مساء اليوم نفسه ، وعرضت عليه التقارير التى سجلتها بعناية تامة . راح يقرأ وهو يسند رأسه الى راحته حتى فرغ منها ، ثم طالعنى بوجه متجهم وقال :

ــ علينا أن نستعيد الصورة ، توجد حوادث مثيرة ، بعض الفقراء يجدون فى شرفات منازلهم صررا مليئة بالنقود هبطت من مصدر مجهول ، آخرون يجدون علب حلوى سليمة ، أناس يجدون علب حلوى مسمومة مات بسببها أبرياء ، اختفاء أطفال ، حرائق تشب فى الحوانيت . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يجىء جواب من مجهول يوجه الاتهام الى المدعو مكرم عبد القيوم ، وتتحرى أنت عن الرجل فتجيئنى بمجموعة من التناقضات تماثل فى غرابتها تناقضات الحوادث ، ما رأيك ؟

قلت :

ــ أصبحت على يقين من انه المجرم ..

ــ يقين ؟ !

ــ انه شعور داخلى ..

ـ ما يهمنى هو الدليل القاطع أو الاعتراف ..

ـ لا تنس يا صاحب السعادة أن الحوادث توقفت منذ رحيله .

ـ الفترة قصيرة جدا ولا تعنى شيئا ..

ـ لا تنس أننا أصبحنا مضغة للأفواه ..

ـ سيخونه حرصه عاجلا أو آجلا .. فهو بلا شك مجنون !

ـ مجنون ؟ ! محتمل . ومحتمل أيضا أن يكون عاقلا وداهية وذا أغراض خفية ..

## ـ ٩ ـ

اندفعت فى المطاردة بقــوة متحدية ، ضـــاعفت الدوريات والعيون ، أبلغت الأوصاف الى جميع الأقسام ، ورسمت خطة شاملة للمرشدين ولأهل الخبرة بأوساط المجرمين . لم يخف عنى أنه تحد لشخصى ومستقبلى وواجبى ، وسيطر الموضـــوع على يقظتى ومنامى ، وفكرت وفكرت ثم قــررت تأجيل الاســـتعانة بالصحف والاذاعة .

## ـ ١٠ ـ

وفيما نحن منهمكون فى المطاردة انقضت علينا صاعقة ، طلعت علينا الصحف بأنباء حوادث مماثلة لما وقع فى حينا ولكن فى طنطا هذه المرة ، انطلقت الى طنطا بلا استئذان ، وضعت معلوماتى تحت تصرف المسئولين هناك .

وفيما نحن نرسم خطة جديدة معتمدين أولا على الاستفادة من

التجربة السابقة ، طلعت الصحف بأنباء حوادث تقع فى أسيوط ، وفى الحال سافرت الى أسيوط وانا أشعر بأن الجريمة استحالت فضيحة قومية . وهناك تلفنت الى رئيسى أخبره بمقرى فاذا به يصيح :

ــ اين أنت ؟ ! . . ما هذا التصرف المشين ؟ !

هممت بشرح الأمر ولكنه صاح بى :

ــ احضر حالا . . لقد عادت الحوادث الى حينا !

## ــ ١١ ــ

وخطر لى أن أستدعى رساما مشهورا ، جمعت بينه وبين الشهود . وطالبته برسم صورة دقيقة للرجل المجهول من واقع شهادتهم . وقلت له :

ــ لا تتركها حتى يقروا بأنها طبق الأصل .

ونشرت الصورة فى الصحف مطالبا من يعرف صاحبها بأن يدلنا عليه ، ودلنا مواطنون على أكثر من شخص ، عمدة ، تاجر أسماك ، تاجر شنطة ، بل انطبقت الصورة على مسئول فى الدولة له شأن ، فاستفحلت الفضيحة حتى انقلبنا سخرية الساخرين ونادرة المعلقين .

وصاح بى رئيسى :

ــ لقد أشعلت النار فى الادارة !

فقلت باصرار :

ــ لا غبار على الخطة .

ــ ها قد جاءنا من لا نبحث عنه ، وغاب عنا من نبحث عنه !

ــ لعله تعمد الاختفاء أو التنكر .

ـ واضح أن الحوادث المتفشية فى جميع الأنحاء ليست من صنع رجل واحد ..

ـ لعله رئيس عصابة !

فهتف بيأس :

ـ لقد أشعلت النار فى الادارة !

رجعت الى حجرتى أعمى تماما من الغضب . عند الباب سمعت حوارا حادا بين الحاجب وآخر يريد الدخول لمقابلتى . قلت بحزم :

ـ لا وقت عندي الآن لأحد .

فقال الآخر بصوت جهورى متزن :

ـ أنا مكرم عبد القيوم !.

## ـ ١٢ ـ

تأبطت ذراعه ، دخلنا الحجرة ، وقفنا متواجهين وأنا ألهث ، تساءل بهدوء غاضب :

ـ ما معنى المنشور فى الجرائد ؟

فسألته وأنا أمتحنه بعينى :

ـ لم لم تحضر مباشرة عقب النشر ؟

ـ كنت فى البحر الأحمر بعيدا عن الجرائد وغيرها .

وفصل بيننا صمت متقد حتى عاد يتساءل :

ـ ما معنى هذه التهمة السخيفة ؟

فقلت بحنق :

ـ سنرى ..

وقررت اجراء التحقيق فى حجرة رئيسى وتحت اشرافه .

## - ١٣ -

ـ ماذا اقول ! ...

اجاب الرجل عن كل سؤال فورا وفى بساطة وثقة ، لم نجد دليلا واحدا يدينه ، عرضناه على أهل الضحايا والمخبرين المبثوثين فى انحاء الحى فلم يشهد احد بأنه رآه فى ليل او نهار . أذعنا رسالة موجهة للمجهول صاحب الرسالة أن ينورنا بمعلومات أن كانت لديه فلم يرد علينا احد . وهكذا غادرنا مكرم عبد القيوم مرفوع الراس وقد اصابنى بضربة قاضية . والعجيب بعد ذلك أن شعورى الباطنى باتهامه لم يتزعزع .

## - ١٤ -

كان لابد من كبش فداء فقررت الداخلية نقلى الى الديوان . وأحلت محلى من رأته أعظم اهلية للعمل . وتلقيت الأمر بغضب وتحد ، فقدمت استقالتى معتزما الاشتغال بالمحاماة ، وظللت أتابع انباء الحوادث والتحقيق وأنا مشفق من أن ينجح من حل محلى فى القبض على المجرم ، انه شعور مخجل ولكنه متوافق مع الطبيعة البشرية ، وما ادرى ذات يوم الا ومكرم عبد القيوم يقتحم على مكتبى ، رمقته بدهشة ، فجلس أمام مكتبى وهو يقول :

ـ جئتك لاعرض عليك أن تتولى ادارة أعمالى وقضاياى !

وكان العرض مغريا لدرجة يتعذر معها رفضه ، ولكننى سألته :

ــ لم أنا بالذات ولم أعمل فى المحاماة الا عامين ؟

ــ ولكنك ذو خبرة كبيرة ، ثم اننى أعد نفسى مسئولا بعض الشيء عن استقالتك ..

فسألته بحذر :

ــ نوع من الشماتة ؟

فهتف بصدق :

ــ معاذ الله ، ما ورائى الا شعور طيب ..

لم لا ؟

هكذا أصبحت مستخدما فى دائرة الوجيه مكرم عبد القيوم !

## ــ ١٥ ــ

واشهد لقد وجدته وجيها بكل معنى الكلمة ، وقورا ، عالما ، عذب الحديث ، طيب المعاشرة ، كريما ودودا . وربما فتر حماسى أحيانا فأتساءل « الا يفاجئنى مرة بتناقض من تناقضاته ؟ .. الا يحسن بى أن التزم جانب الحذر ؟ » . ولكنه خيب وساوسى . وقرص ضميرى باصراره على كل ما هو طيب .

وذات صباح ــ وعقب مراجعته لما عرضته عليه ــ رجع بمقعده الهزاز الى الوراء وقال :

ــ أخيرا قيدوا القضية ضد مجهول !

فقلت بشماتة :

ــ لتكن هذه اللطمة ردا على اللطمة التى تلقيتها .

فقال بهدوء عذب :

ـ كلا .. لقد اخطأت ..

ـ ولكن ..

وسرعان ما قاطعنى قائلا :

ـ كان من الخطأ أن تركز الاتهام فىّ بسبب رسالة سخيفة غفل من الامضاء .

فقلت مدافعا :

ـ ليس بسبب الرسالة ولكن باغراء التحريات غير العادية !

ـ وبتركيزك الاتهام فىّ تركت المجرم الحقيقى يفلت من يديك !

ـ لم يكن معقــولا أن اربط بين أقوال الشــهود وغرابة الحوادث ؟ !

ـ يا استاذ ! هل يخلو مخلوق من تناقضــات ؟ .. ثم ما الغرابة فى أن اطعم القطط وان أركل قطة مريضة هاجمتنى ؟.. ما العجب فى أن أتواد مع رجل .. وأجافى آخر لسوء خلقه ؟ .. وما الجديد فى أن امضى وقورا حينا واترنح من السكر حينا آخر ؟. ايعنى هذا أن اسمم الأطفال واشعل الحرائق ؟ !

لذت بالصــمت متفكرا وحــذرا فى نفس الوقت ، أما هو فواصل :

ـ بنفس المنطق يا عزيزى يمكن ان نوجه التهمة اليك انت !

فندت منى ضحكة وتمتمت :

ـ أنا ؟

ـ لم لا .. لقد استمرت الجرائم رغم تشديد الحراسة وبث المخبرين ، كيف اخترق المجرم سبيله فى حى ملغم ؟ .. لا شك انه كان مطمئنا الى أن احدا من رجال الأمن لن يشك فيه ، عظيم .. فمن يكون هدا ان لم يكن الرئيس المكلف بالمراقبة ؟ .. أو بمعنى آخر ان لم يكن انت ؟ !

فضحكت عاليا وقلت :

ــ وجرائم طنطا ؟

ــ لقد وقعت حوادث طنطا . وثبت انك سافرت الى طنطا ، اما أن سفرك لحق بالحوادث او سبقها فلا نعرف عنه شيئا !

فقلت وما زلت اضحك :

ــ عظيم ، ولكن ما الدافع وراء الجرائم ؟

ــ هو الدافع الكامن فى أعماق المجرم الذى أعياك البحث عنــه !

ــ فى اعتقادى انه مجنون ..

ــ وغير مستحيل أن تكون مجنونا !!

ــ هل تجد فى عملى معك شبهة جنون ؟ ..

ــ الجنون أنواع ، والمجنون آخر من يعلم ..

وضحكت متظاهرا بالاستهانة ولكن حديثه ساءنى ، وساءنى أكثر الجد الذى تناول به حديثه حتى خيل الى لحظة انه يوجه الى اتهاما حقيقيا ، بل انه يصب اتاهمه على الناس جميعا . ثم تبسم فعاد الاشراق الى وجهه الكبير ، وقال بنبرة جديدة :

ــ حسبنا ، ولنواصل العمل .

وقلت لنفسى يا له من رجل محير ! .. لا شك أن العمل فى دائرته فوز مرموق ، وأن شخصيته تتعالى عن الاتهام ، ولكن ما بال شعورى الباطنى باتهامه لا يفارقنى ؟ !



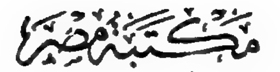

تأليف

## الدكتور محمد حسن عبد الله

مناقشة هادئة لبعض الاتجاهات الروحية . والقضايا الاسلامية فى ادب نجيب محفوظ .

وان هذه المحاولة لا تهدف الى وضع نجيب محفوظ بين الكتاب الاسلاميين ، بالمعنى الضيق لهذا المصطلح ، وهى اذ تتجه الى التحفظ والتوضيح ، تدل فى النهاية على ان الصورة التى رسمت لأدبه وشاعت على أيدى بعض نقاده ، كانت مغرضة الى حد كبير ، وأن نقادا آخرين بصمتهم عنه قد أسهموا ايجابيا فى تأكيد هذه الصورة المغرضة ، كما أسهموا من قبل فى تعميق مفاهيم معينة عند الكاتب ، لأنه لم يجد من يناقشه ، أو يوضحه ، أو .. يوضح له .

٤٥٦ صفحة




**سعيد جوده السحار وشركاه**

**تقدم قائمة بمؤلفات عمالقة القصة المصرية**

## مؤلفات الأستاذ نجيب محفوظ

| اسم الكتاب | | تاريخ أول طبعة | | تاريخ آخر طبعه |
|---|---|---|---|---|
| مصر القديمة | | ١٩٣٢ | | |
| همس الجنون | مجموعة | ١٩٣٨ | العاشرة | ١٩٧٩ |
| عبث الاقدار | رواية تاريخية | ١٩٣٩ | العاشرة | ١٩٨٢ |
| رادوبيس | رواية تاريخية | ١٩٤٣ | العاشرة | ١٩٨١ |
| كفاح طيبة | رواية تاريخية | ١٩٤٤ | العاشرة | ١٩٧٩ |
| القاهرة الجديدة | رواية | ١٩٤٥ | الحادية عشرة | ١٩٧٩ |
| خان الخليلي | رواية | ١٩٤٦ | العاشرة | ١٩٧٩ |
| زقاق المدق | رواية | ١٩٤٧ | العاشرة | ١٩٨٢ |
| السراب | رواية | ١٩٤٨ | الحادية عشرة | ١٩٨٢ |
| بداية ونهاية | رواية | ١٩٤٩ | الثالثة عشرة | ١٩٨٢ |
| بين القصرين | رواية | ١٩٥٦ | الثانية عشرة | ١٩٨٣ |
| قصر الشوق | رواية | ١٩٥٧ | الثانية عشرة | ١٩٨٤ |
| السكرية | رواية | ١٩٥٧ | الحادية عشرة | ١٩٨٤ |
| اللص والكلاب | رواية | ١٩٦١ | التاسعة | ١٩٨٠ |
| السمان والخريف | رواية | ١٩٦٢ | السابعة | ١٩٧٨ |
| دنيا الله | مجموعة | ١٩٦٢ | الخامسة | ١٩٧٨ |
| الطريق | رواية | ١٩٦٤ | السابعة | ١٩٨١ |
| بيت سيء السمعة | مجموعة | ١٩٦٥ | السابعة | ١٩٨٣ |
| الشحاذ | رواية | ١٩٦٥ | السابعة | ١٩٨٢ |
| ثرثرة فوق النيل | رواية | ١٩٦٦ | السادسة | ١٩٨٣ |
| ميرامار | رواية | ١٩٦٧ | الخامسة | ١٩٧٩ |

| اسم الكتاب | | تاريخ اول طبعة | تاريخ آخر طبعة | |
|---|---|---|---|---|
| خمارة انقط الاسود | مجموعة | ١٩٦٩ | السادسة | ١٩٨٠ |
| تحت المظلة | مجموعة | ١٩٦٩ | الخامسة | ١٩٧٨ |
| حكاية بلا بداية ولا نهاية | مجموعة | ١٩٧١ | السادسة | ١٩٨٤ |
| شهر العسل | مجموعة | ١٩٧١ | السادسة | ١٩٨٢ |
| المرايا | رواية | ١٩٧٢ | الرابعة | ١٩٨٠ |
| الحب تحت المطر | رواية | ١٩٧٣ | الرابعة | ١٩٨٠ |
| الجريمة | مجموعة | ١٩٧٣ | الرابعة | ١٩٨٢ |
| الكرنك | رواية | ١٩٧٤ | السادسة | ١٩٨٢ |
| حكايات حارتنا | رواية | ١٩٧٥ | الخامسة | ١٩٨٤ |
| قلب الليل | رواية | ١٩٧٥ | الثالثة | ١٩٨١ |
| حضرة المحترم | رواية | ١٩٧٥ | الرابعة | ١٩٨٣ |
| ملحمة الحرافيش | رواية | ١٩٧٧ | الثانية | ١٩٨٣ |
| الحب فوق هضبة الهرم | مجموعة | ١٩٧٩ | الثالثة | ١٩٨٤ |
| الشيطان يعظ | مجموعة | ١٩٧٩ | الثانية | ١٩٨٢ |
| عصر الحب | رواية | ١٩٨٠ | | |
| افراح القبة | رواية | ١٩٨١ | الثانية | ١٩٨٣ |
| ليالى الف ليلة | رواية | ١٩٨٢ | الثانية | ١٩٨٣ |
| رأيت فيمايرى النائم | مجموعة | ١٩٨٢ | | |
| الباقى من الزمن ساعة | رواية | ١٩٨٢ | | |
| امام العرش ( حوار بين الحكام ) | | ١٩٨٣ | | |
| رحلة ابن فطومة | رواية | ١٩٨٣ | | |

## تحت الطبع

الجهاز السرى مجموعة
العائش فى الحقيقة رواية
يوم قتل الزعيم رواية
حديث الصباح والمساء رواية

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

رقم الايداع ٣٧٧٣
الترقيم الدولى ٣ — ٣٩٠ — ٣١٦ — ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة




دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه